قضايا معاصرة في ضوء الإسلام

اعداد
أ.د/ حلمي عبد المنعم صابر
الأستاذ بكلية الدعوة الاسلامية بالقاهرة
جامعة الأزهر

دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
الرياض

قضايا معاصرة
في
ضوء الإسلام

© دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
صابر، حلمي عبد المنعم
قضايا معاصرة في ضوء الإسلام .
٢٢١ صفحة ؛ ١٦,٨×٢٤ سم
ردمك ٧ ـ ٢٦ ـ ٧٧٥ ـ ٩٩٦٠
١ ـ الإسلام والمجتمع، ٢ ـ الإسلام ـ دفع المطاعن أ ـ العنوان
ديوي ٢١٩ ١٦/٠٠٧٩

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م

رقم الإيداع : ٠٠٧٩ / ١٦
ردمك : ٧ ـ ٢٦ ـ ٧٧٥ ـ ٩٩٦٠

دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع

العليا ـ غرب مؤسسة التحلية ـ ت : ٤٦٥١٦٨٩ / ٤٦٣١٧٢٢
ص.ب. ٦٤٦٠ ـ الرياض ١١٤٤٢ ـ تلفاكس : ٤٦٣١٣٣٦
المملكة العربية السعودية

قضايا معاصرة
في
ضوء الإسلام

إعداد
أ. د / حلمي عبد المنعم صابر
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
جامعة الأزهر

دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
الرياض

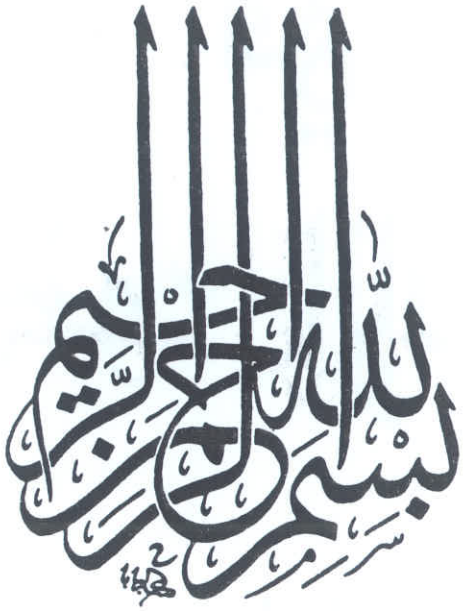
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد، ورضى الله عن آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، االلهم ذكرنا ما نسينا، وعلمنا ما جهلنا، وانفعنا بما علمتنا واجعله حجة لنا لا علينا يارب العلمين.

وبعد:

فهذه دراسة لبعض القضايا المعاصرة المطروحة على الساحة الفكرية وهى قضية الوجود، وقضية العالمية، وقضية العلم والدين، وقضية اللغة العربية وهى قضايا متنوعة فى مادتها، مختلفة فى موضوعاتها وقد كثر اللغط حولها من أعداء الإسلام مما استوجب دراستها وتمحيصها وبيان الحق فيها.

وقد حرصت فى تناول هذه القضايا على التأصيل الفكرى فيها، ثم على النقد والتحليل - خاصة - وأن الدراسة فى ضوء الإسلام.

تعرضت لقضية الوجود فى التصور البشرى وبينت أبرز الاتجاهات فى تفسير الوجود، ثم تناولت بالنقد والتحليل ما تنطوى عليه هذا التصورات البشرية من أخطاء، ولم أكتف بذلك بل عرضت منظوراً عاما للوجود من خلال الفكر الإسلامى الصحيح فى نظرته للوجود بل مؤصلاً ذلك من خلال المصدرين الكريمين القرآن والسنة.

كما تناولت قضية العالمية مؤصلاً عالمية الدعوة الإسلامية ومدللاً عليها من النقل و العقل والتطبيق، وتعرضت لدعوى عالمية الحضارة الغربية، وبينت إفلاس الحضارة الغربية من مقومات العالمية، وفعلت نفس الشئ مع دعوى عالمية النصرانية، وقد ناقشت هذه الدعوى من خلال النصوص التى عندهم. ومن خلال ما تحويه النصرانية الحالية من متناقضات وخلوها كذلك من مقومات العالمية. مع بيان الأغراض الحقيقية لدعوى التنصير فى العالم كله.

أما قضية العلم والدين ، فقد بينت موقف الإسلام من العلم وكيف أنه احتضن العلم منذ اللحظة الأولى لتنزل الوحى السماوى، وبينت المنهجية العلمية فى البحث والضوابط التى تحفظ سلامة النتائج من الخطأ وسلامة النتائج من العواقب الضارة، وقمت بعمل مقارنة بين موقف الإسلام من العلم وموقف الكنيسة من النهضة العلمية ورجالها فى أوروبا إبان عصر النهضة، ثم تناولت بعد ذلك العلاقة بين العقل والوحى، واستعرضت فيها مسيرة الوحى منذ عهد عيسى - عليه السلام - وتطور العلاقة بينه وبين العقل، وبينت الأسباب الى أدت بالحضارة الغربية إلى الفصل بين النقل والعقل، ثم ذكرت موقف الإسلام من هذ القضية، كما تناولت مسألة الموضوعية والشك المنهجى وقمت بدراسة عن الشك بأنواعه وتقويمه - خاصة الشك المنهجى عند الغزالى وديكارت، وهل يصلح هذا المنهج فى البحوث أم لا؟ وتفنيد دعوى المستشرقين فى التزامهم الموضوعية.

أما القضية الرابعة فكانت حول اللغة العربية والتحديات التى تواجهها، وقد أبرزت أهمية اللغة العربية وأثرها فى حفظ وحدة الأمة وحفظ دينها وتراثها، وأثر القرآن على اللغة، كما بينت خصائصها ودلائل عالميتها، وتعرضت للهجمات الشرسة التي صوبت سهامها نحو اللغة العربية من أجل القضاء عليها، وبالتالى يسهل القضاء على الدين وعلى الذاتية الإسلامية وكان أبرز هذه الحملات: الهجوم على قواعد اللغة، والهجوم على الفصحى، والهجوم على حروف الهجاء العربى ومحاولة استبدالها، فعرضت شبههم وعقبت عليها بما يكشف عن دوافعها الخبيثة. وقد حاولت الاختصار ما أمكن فى كل ما قدمت حتى تكون الجرعة مقبولة لطلاب الدراسة الجامعية، وأترك الباب مفتوحاً لمن أراد المزيد، حسبى أنى أخذت بيد الطالب وقدمت له مادة فى الرد علي أعداء الإسلام، وكشفت له عن أبعاد القضايا التى تناولتها الدراسة.

والله أسأل أن يجعل ذلك نافعاً للمسلمين، وإن كنت قد وقفت فالحمد لله، وإن كانت الأخرى فأسأل الله المغفرة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

القضية الأولى:

قضية الوجود وتشمل

أ - المنظور الإسلامى للوجود.

ب - المنظور البشرى للوجود:

ويتضمن الاتجاه المادى ونماذج عليه، والاتجاه المثالى ونماذج عليه.

إن قضية الوجود من القضايا الكبرى التى تشغل الإنسان دائماً، فهى ليست قضية شخصية، وإنما هى قضية إنسانية، لأنها تتعلق بحياة كل إنسان مهما اختلفت لغته أو بيئته أو عقيدته أو جنسه، فهى من القضايا الفطرية فى النفس الإنسانية، فكل إنسان تنتابه هذه التساؤلات: لماذا أنا موجود فى هذه الحياة؟ ومن الذى أوجدنى؟ وما هو المصير بعد الموت؟ وما الذى يريده منّى من أوجدنى؟ إلى غير ذلك من التساؤلات الفطرية فى كل نفس بشرية، فإذا كانت قضية الألوهية وقضية الموت والحياة، وقضية الخير والشر، وقضية الجزاء والحساب وغيرها من القضايا الكبرى التى تشغل التفكير الإنسانى، فإن قضية الوجود لا تقل أهمية عن هذه القضايا، إن لم تكن من أهمها بعد قضية الألوهية.

وقد رأينا على امتداد مسيرة الإنسانية وامتداد عطائها الفكرى كيف شغلت قضية الوجود الأذهان، وجعلها الفلاسفة والمفكرون على قمة القضايا التى ينبغى دراستها، وكان مبحث الوجود فى الفلسفة هو من أوليّات البحث الفلسفى. وقد كثرت التصورات حول هذه القضية وتباينت تبايناً شديداً - وهذا طبيعة التفكير الذهى البعيد عن هداية الوحى - فقد رأينا من يشكك فى الوجود، وينفى وجود حقائق ثابتة فى هذا الوجود، ورأينا من يجعل الوجود محصوراً فى العالم المحسوس فقط ويقول ليس هناك شئ موجود على الحقيقة سوى المادة، وكل شئ فى الحياة إنما هو انعكاس للمادة أو صورة من صورها. ورأينا من يجعل الوجود أمراً مثالياً أو روحياً محضاً، وقد تفرعت على كل تصور من هذه التصورات مذاهب ونظريات وأفكار شتى انعكست آثارها علي الناس فزادتهم تحيرا وتيها وضلالاً، ومن هنا كانت ضرورة الدراسة لقضية الوجود لعرض هذه الاتجاهات وما تفرع عنها ومناقشتها وبيان ما فيها من زيف وضلال، ثم عرض هذه القضية من المنظور الإسلامى الذى تناولها فى اعتدال وواقعية بعيداً عن الشطط والخلط لأنه تصور محكوم بتوجيهات الله عز وجل الذى خلق الوجود، ويعلم أنواعه وأسراره. ومن ثمّ ستكون دراستنا للوجود من زاويتين... **الزاوية الأولى:** هى التصور الإسلامى للوجود وبيان أنواعه وخصائصه، **والزاوية الثانية:** هى التصورات البشرية للوجود وبيان الاتجاهات الفكرية حول هذه القضية وما تفرع

عليهـا من مذاهب ونظريات وحـركات ومناقشتهـا، حتى يتبين الصـواب من الخطأ والغث من الثمين والخير من الشر.

أولاً : الوجود فى التصور الإسلامى

١ - تعريف الوجود:

مادة الكلمة «وَجَدَ» وهى الواو والجيم والدال: تعنى تحصيل الشئ أو الظفر به جاء فـى لسان الـعرب لابن مـنظور: أوجده الـله مطـلوبه أى أظـفره به والـشئ المتحصل عليه أو المظفور به قد يكون حـسّيا مثل قولك: وجدت كتابى وقد يكون معنويا مثل قولـك فى مسألة علمية: وجدتُ حلّها، والوجـود مقابل للعدم، وهو بَدَهى لا يـحتاج إلى تـعريف لأنه أظـهر من كل ظاهـر، فمن يشـعر بذاته يـشعر بوجوده.

والوجود ينقسم إلى قسمين: خارجى وذهنى:

والوجود الخارجى: عبارة عـن كون الأشياء فـى الأعيان، أى فى الـواقع المحسوس، وهو الوجود المادى.

والوجود الذهنى: عـبارة عـن كون الأشـياء فـى الأذهان، وهـو الوجـود العقلى.

والـوجود لا يمـثـل جوهـراً يـقوم بـذاته، وإنمـا هـو عرض أو صـفـة تقـوم بالموجـودات، ولذلك جعلـه الفلاسفة مـقابلاً للـماهية، لأن الماهـية هى الطبـيعة المعقولة للشئ والوجود هو التحقق الفعلى له.

والوجود إذا أطـلق فى الإسلام يُـراد به الوجود بنـوعية الحسّـى والغيبـى فما كانت وسائـل إدراكه الحواس أو التجربـة أو العقل، فهو الـوجود المادى لأن هذه الوسـائل مأطـورة بإطار الـزمان والمكان الحـسيين، وأمـا ما كانـت وسيلـة إدراكه "الوحى" فهو الوجود الغيبى، ذلك الـنوع من الوجود الذى لا يمكن للحواس أو العقل إدراك حقائقه فى غيبه الوحى.

والوجود الغيبى وجـود حقيقى، فهو ليس صوراً تقوم فى الـذهن وفقط ولكنه حقائق موجودة تعجـز طاقة حواسنا وعقولنا عن إدراك كنههـا فى هذه الحياة، مثل الملائكة ، واللوح، والـقلم، والعرش، والكرسى، وغير ذلك مـن عوالم الغيب الأخروى.

٢ - مصداقية التفسير الإسلامى للوجود:

حينما نقارن بين التصورات البشرية للوجود على اختلاف مشاربها وبين ألتصور الإسلامى له، سـنجد أن المعيار الإسلامى لـتصور الوجود أدّق وأشمل، ويـتجلى التصور الإسلامى للوجود فى ناحيتين:-

الأولى: أنه أشـمل وأوسع من أى تـصور بشرى آخـر، لأن تصورات البـشر ومعلوماتهم مهما سمت وتقدمت فإنها لا تتعدى حدود الزمان والمكان، ولا تتعدى معارفهم هذا الإطـار الحسى، أما الإسلام فإنه يمّد الإنسان بفـيض من المعارف عن العالم الـغيبى لا يمكن له - فى غـيبة الوحى - أن يصل إلـيها، إنها حقائق غـيبية يزود بها الإنسان ويؤمن بها عن طريق الوحى دون سواه.

ومهما كان العقل وتفكيره فيما وراء الطبـيعة فلن يصل إلى المعرفة الشاملة وإنما سيكون غاية ما يصل إليه هى معلومات مخـتلفة فيها غبش كثيف عن عالم ما وراء الطبيعة، وليس أدل على ذلك من هذا الحصاد الـفلسفى على مر التاريخ فى مجال البحث عن الغيبيات أو البحث فى الإلهيات.

الثانية: أن التصور الإسـلامى فى نظرته للـوجود يقوم علي الصـدق واليقين، فمعارفه معارف يقينه لأن مصدرها القرآن الكـريم والسنة النبوية الصحيحة، فمعيار التصور الإسلامى للـوجود يقوم على الصدق، وليس على التـخمين أو الظن كما هى عائدات التصورات البـشرية، فإنها فى أغلبها تصورات خاطئة تـعتمد على فكر صاحبهـا. وقد يكون فكراً ضـالاً أو اجتهاداً خاطئاً، وعـلى ذلك فلا يتوفـر اليقين والصدق فى النظرة المـعيارية للوجود إلا فى ظل الإسلام بمصدريـه الكريمين القرآن والسنـة ،من هنا كـان الإسلام فى تفـسيره للوجـود أكثر مصـداقية من غـيره من التصورات البشرية المجردة عن نور الوحى، وصدق الله القائل: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكـتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى**

به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم. صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلي الله تصير الأمور﴾ (١)

٣ - أنواع الوجود فى الإسلام:

الوجود فى الإسلام ينقسم إلى نوعين متقابلين ومختلفين فى خصائصهما وفى طريقة الإدراك لهما وهما:

الأول: الجود الحسّى، أو الوجود المشهود المدرك بالحواس وهو ما يسمى بعالم الطبيعة، وهو يشتمل على سائر الموجودات المدركة بالحس من جمادات ونباتات وحيوانات وإنسان ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من الوجود فى آية سورة الحج فى قوله تعالى: **﴿ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾**(٢) وبالنظر فى الآية الكريمة نجد أن المولى عز وجل بعد أن عمم الحكم وأثبت عن طريق الاستفهام التقريرى أن كل شئ فى السموات وفى الأرض يسجد له ويخضع لإرادته ومشيئته سواء علمناه أم لم نعلمه ، نجده سبحانه وتعالى قد فصل وأوضح هذه المخلوقات ورتبها من الأدنى إلى الأعلى فبدأ بذكر الجمادات في قوله **﴿والشمس القمر والنجوم والجبال﴾** ثم ذكر النباتات فى قوله **﴿والشجر﴾** ثم ذكر الحيوانات فى قوله **﴿والدواب﴾** ثم ذكر أعلى الأجناس وهو الإنسان فقال **﴿وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب﴾** وبهذا تصبح الأجناس مرتبة فى الآية على هذا النحو: جماد ثم نبات ثم حيوان ثم إنسان وأدناها رتبة هو الجماد وأعلاها رتبة هو الإنسان.

الثانى:

هو الوجود الغيبى، وهو ما لا يدرك بالحواس ، ولا يصل الإنسان بمفرده لمعرفة حدوده ، وإنما يدركه عن طريق الوحى الإلهى، وهو ما يعرف بعالم ما وراء

---

١) سورة الشورى الآيتان رقم ٥٢، ٥٣

٢) سورة الحج الآية رقم ١٨.

الطبيعة أو "الميتافيزيقا". مثل: الله جل جلاله، والملائكة، والجن، والجنة والنار..... اسلخ.

ولما كان الوجود الحسى ظاهراً لا يتأتى فيه الإنكار، وكان الوجود الغيبى خفياً لا تدركه الحواس، فقد وجدنا الإنكار وقع من البشر لهذا الوجود الغيبى ونازعوا فيه واستبعدوه لأنهم قصروا نظرتهم على المحسوس فقط ، لهذا جعله الله أساساً من أسس الإيمان فقال تعالى: **﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾** (١)

٤ ـ منهج الإسلام في تعريف الإنسان بالوجود:

لم يكتف الإسلام بعرض صفحة هذا الوجود أمام الإنسان فقط وإنما رسم له الطريق الذى يتجاوز به المعرفة النظرية إلي المعرفة العملية التى يتفاعل بها مع هذا الوجود وظهر ذلك في محاور ثلاثةس تتمثل فى:

الأول: هو تعرف الإنسان على هذا الكون المحسوس المحيط به وبيان خصائصه.

الثانى: هو تعرف الإنسان على نفسه واكتشافه ذاته وما أودع فيه من خصائص ومميزات تجعله قادراً على التفاعل العملى مع هذا الكون المحسوس.

الثالث: هو بيان أطر العلاقة بين الإنسان وبين الكون من حوله وما تمخّض عنه من عمارة لهذا الكون وحسن خلافة للإنسان عليه، وسنوضح بشئ من التفصيل هذه المحاور الثلاثة التى تمثل المنهج الإسلامى فى تعريف الإنسان بالوجود.

---

١) سورة البقرة الآيتان ٢, ٣.

أولاً خصائص الكون المحسوس:

من يقرأ القرآن الكريم بتدبر يجد أن الله عز وجل قد عرض مشاهد الكون بصورة واسعة وشمولية مبينا ما فيه من منافع وما بين أجزائه من ترابط ولم يكتف القرآن بعرض هذه المشاهد وفقط ولكنه نبه على أصل هام وهو أن كل ما فى هذا الكون وُجد بعد أن لم يكن ، فَبُنْية هذا الكون وما يحويه محدثة مخلوقة وأن الخالق لها هو الله عز وجل، ومن هنا كانت أولى خصائص هذا الكون: «أنه كون مخلوق من عدم وأن له بداية وستكون له نهاية» فهو ليس بقديم كما يقول الفلاسفة، وليست بُنْيته المادية أزلية كما يقول الماركسيون ، وحسبنا أن نقرأ بعض الآيات والشواهد القرآنية التى تدل على خَلْق هذا الكون، يقول تعالى من سورة النحل: **﴿خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون. خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين. والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون﴾**(١)

ومن يتابع قراءة الآيات فى هذه السورة سيجد عرضاً ضخماًلمشاهد الكون فى شمولية عجيبة يبيّن الله فيه أنه أنزل من السماء ماءً فأنبت به الزروع والثمار والأشجار، وأنه سخر الليل والنهار وسائر الكواكب والأفلاك، وأنه سخر البحر بما فيه من منافع وأنه سخر الجبال وأجرى الأنهار إلى غير ذلك من أنواع الموجودات المشهودة والتى هى جميعاً من خلق الله تعالى ولهذا كان الختم لهذا المشهد من الآيات هو قول الله تعالى: **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾** (٢)

وقد أثبتت نظريات العلم التجريبى صحة هذا الأصل وبينت أن هذا الكون لا يمكن أن يكون قديماً، بل إن له بداية وستكون حتما له نهاية، فقد كشف القانون الثانى للحرارة الديناميكية أو ما يسمى بقانون الطاقة المتاحة أو ضابط التغير، حيث أثبت هذا القانون أن الحرارة تنتقل من وجود حرارى إلى عدم حرارى دائماً، وأن العكس غير ممكن لأن ضابط التغير هو التناسب بين الطاقة المتاحة والطاقة غير المتاحة.

---

١) سورة النحل تنظر الآيات من رقم ٣ - ١٨.

٢) السورة السابقة.

وبناء على هـذا الكشف العلمى الـهام: فإن عدم كفاءة عمل الـكون تزداد يوما بعد يوم، ولابد من وقت تـتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحيـنئذ لا تبقى أية طاقة مـفيدة للحيـاة والعمل، وسيترتـب على ذلك أن تنتـهى جميع العـمليات الكيماوية والطبيعية، وتنتهى تلقائيا - بقدرة الله تعالى - مع هذه النتيجة الحياة.

وبما أننا نرى أن العمليات الكيماوية والطبيعية جارية ومشاهدة وأن الحياة قائمة، فإن ذلك يثبت لنـا قطعا أن الكون ليس بأزلى ، إذ لو كان كـذلك لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد - بناء على هذا القانون - ولما بقى فى الكون بصيص من الحياة.

كما أثبتت أيضاً نظرية العناصر المشعة العمر التقريبى لنشأة هذا الكون من خلال تحوّل عنصر اليورانـيوم المشع إلى معدن الرصاص الموجـود فى الجبال، وقد قدرت بعض التجارب هذه المـدة بنحو ألف وأربعمائه مليون سنـة، وقدرها البعض الآخر بألفى مليون سنة تقريباً [١].

كما جاءت آيات فى القـرآن تصرح بأمر النهاية لهذا الكـون، فكل شئ فى هذا الكون له نـهاية ولا يمكن أن يكون أبديـاً، لأن الذى يتصف بالأبديـة والأزلية هو الله وحده يقول تعالي: ﴿**كل شئ هالك إلا وجهه**﴾ [٢]، ويقول تعالى: ﴿**كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ [٣] ، وليس فى بنية هذا الكون شئ يعجز الخالق جل وعلا، فإنه كما ذكر: ﴿**إنما أمره إذا أرادشيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ [٤] وقد أفاض القرآن فى ذكر النهـاية لهذا الكون، وبين أنه إذا جاء وقت النهاية لهذه الحيـاة - كما قدرها الله تعالى - فإنه سيجعل هـذا الكون كله حصيداً كأن لم يكن، يقول تعالى: ﴿**حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها**

---

١) يراجع في قانـون الطاقة المتاحة ونظريـة العناصر المشعة كتـاب الإسلام يتحدى للشيخ وحـيد الدين خان ص ٥٥, ٧٦ طبعة دار المختار.

٢) سورة القصص الآية رقم ٨٨

٣) سورة الرحمن الآيتان رقم ٢٦, ٢٧.

٤) سورة يس الآية رقم ٨٢.

أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ (١).

ويبين الله أنه من علامات «الساعة» وهو وقت «القيامة» والذى يعنى نهاية هذه الحياة الدنيا، سيكون من علاماتها انهيار هذا الكون، وفك هذا الترابط المحكم بين أجزائه، فتتناثر أجزاء الكون هنا وهناك، ومن يقرأ الجزء الأخير من المصحف سيجد المشاهد المروعّة لانهيار بنية هذا الكون ، حينما تتشقق السماء، وتتزلزل الأرض، وتكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتتطاير الجبال كالعهن المنفوش وتتحول البحار إلى نار، ويكون الناس هلعى كالفراش المبثوث، يقول عز وجل: **﴿إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت، وإذا البحار فجرت، وإذا القبور بعثرت، علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾**(٢) إنه الانفجار الكونى، وانفكاك السنن والقوانين التى أحكم الله بها الأشياء فى بنية هذا الكون، فيختل النظام، وينفك الارتباط، ويصطدم كل شئ فى هذا الكون وينهار، وتنتهى بذلك الحياة الدنيا لتبدأ الحياة الأخرى التى وعد الله بها عباده.

أما ثانى هذا الخصائص للكون المحسوس فهى : أنه كون متحرك، وأن حركته هذه قد أقامها الله تعالى على سنّة الدوران فليس شئ فى بنية هذا الكون بساكن، بل كل شئ يتحرك حتى ولو لم نشعر به لأن السكون عدم، وأن حركة الكون أساسها الدوران ، وما أكثر شواهد القرآن على ذلك حسبنا أن نقرأ قوله تعالى: **﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون﴾** (٣) وقوله تعالى: **﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾** (٤) وقوله تعالى : **﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى**

---

١) سورة يونس الآية رقم ٢٤.
٢) أول سورة الانفطار الآيات ١ - ٥.
٣) سورة النمل الآية رقم ٨٨.
٤) سورة يس الآية رقم ٤٠.

الموتى إنه على كل شئ قدير﴾ [1] وقوله تعالى: **﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾** [2] ولعل أبرز الآيات استشهاداً على حركة هذا الكون هي آيات سورة القصص والتى يقول الله تعالى فيها: **﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾** [3].

ففى هذه الآيات الكريمة يبين الله لنا فيها آثار قدرته المطلقة ويمن علينا بنعمته الكبرى وهى نعمة الزمن المقدر فى هذا الكون على هذا النحو المشهود لنا والذى يتقاسمه ليل ونهار، ومما هو معلوم أن تعاقب الليل والنهار على الأرض هو نتيجة دورانها أمام الشمس، فالحركة هى أساس الزمان، ولو توقفت الأرض عن الدوران لتوقف الزمان ولأصبحت الحياة على الأرض نصفها ليل دائم ونصفها الآخر نهار دائم فالجزء الذى يواجه الشمس من الأرض يكون نهارا، والجزء الخلفى منها يكون ليلا.

وهذا ما عبر الله عنه فى الآيات بالليل السرمد والنهار السرمد، وكأنه تعالى يريد فى هذه الآيات أن يعلمنا بأنه قادر على أن يوقف حركة الأرض وبالتالى سيتوقف الزمان. ولا يتعاقب الليل والنهار، وإذا فعل الله ذلك فمن يستطع أن يحرك الأرض لتدور من جديد وتدور معها حركة الزمان بالليل والنهار ؟ إنه لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك، ولو اجتمع سكان الأرض جميعا على أن يحركوا الأرض لتدور أمام الشمس فلن يستطيعوا مهما كان معهم من علم وأجهزة، حقا لن يستطيعوا لأنهم ـ مجتمعون ـ بالنسبة لحجم الأرض أشبه بقطيع من النمل فوق جبل ضخم، فهل يستطيع النمل أن يحرك الجبل؟ إنه لن يستطيع أن يفعل ذلك إلا

---

١) سورة فصلت الآية رقم ٣٩.
٢) سورة الحج الآية رقم ٥.
٣) سورة القصص الآيات رقم ٧١ - ٧٣.

الله وحده جل شأنه وعظمت قدرتـه، ولهذا يقول تعالى: ﴿**من إله غير الله يأتيكم بضياء**﴾ إنه لن يستطيع أحد كائنا من كان أن يأتى بالليل والنهار إلا الله وحده. كما يبين الله لنا فى هذه الآيات أيضا آثار نعمته العظيمة فى جريان الزمن وتعاقب الليل والنهار على الأرض، إذ لا تصلح الحياة بدونهما، فلو كانت الحياة ليلاً دائما لتعفنت الأشياء وكثرت الرطوبات فى الأرض وانعدم الأوكسوجين واختنق الناس لأن الأوكسوجين يتولد من عملية التمثيل الضوئى للنبات والذى لا يحدث إلا فى ضوء الشمس، وكذلك لو كانت الحياة نهاراً دائماً لما صلحت لأن الناس فى حاجة إلى ظلمة لتسكن فيها الأعصاب وتعوض فيها الخلايا التالفة، وتشحن فيها الطاقة المفقودة من الجسم، وقد أجريت بعض التجارب العملية على بعض فئران التجارب حيث حُبست فى ضوء مبهر لمدة طويلة متصلة فكانت النتيجة أن تلف جهازها العصبى وأصابها الجنون.

وهكذا يبين الله لنا فى هذه الآيات أمرين: الأول طلاقة قدرته ومشيئته، والثانى نعمته العظمى فى حركة الأرض وتولد الليل والنهار، فالحركة سّر الحياة والسكون عدم لها، ولهذا ختم الله هذا المشهد الكونى بقوله تعالى: ﴿**ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾.

كما ثبت أيضا أن هذه الحركة لهذا الكون المحسوس تكون على سنة الدوران، فكل شىء فى بنية هذا الكون يدور من الذرة إلى المجرة، فالأرض تدور حول الشمس، والقمر يدور حول الأرض، والشمس تدور حول مجرة، والمجرة تدور حول مجرة أكبر وهكذا، بل إن الذرات فى الجسم تكون فى حركة دائمة ودائرية فقد ثبت أن الذرة بها نواة وهى مركز الذرة ويدور حولها أو يسبح حولها الكترونات سالبة وموجبة، ولحكمة فى تشريع الخالق جل علا أنه تعبدنا بالدوران حول الكعبة فى الطواف وكأنه سبحانه يريد أن يلفت أنظارنا إلى سنة من سننه الثابتة فى هذا الكون وهى سنة الدوران، فكل شىء فى هذا الكون يدور حول مركز، حتى فى الصناعات البشرية نجد أن الحركة فى كل الأشياء أساسها الدوران، فالسيارة تمشى بطريقة الدوران فالكفرات (العجلات) تدور، والماكينة تدور فيها

التروس بطريقة دائرية، بل حينما تنظر فى مدينة الملاهى للأطفال تجد أن كل شىء فيها يدور بحركة دائرية فالأرجوحة والقطار والطبق الطائر وغير ذلك من مسميات الألعاب كل شىء فيها يتحرك على سنة الدوران وعلى ذلك كانت الحركة فى الحياة أساسها الدوران، فكل شىء فى هذا الكون يدور حول مركز، والكون كله من الذرة إلى المجرة بما احتوى من مخلوقات وكائنات كلها تدور حول موجد الوجود وهو الله جل جلاله. إنه دوران حاجة وافتقار إلى الخالق جل وعلا، فهو سر الموجودات، وهو الذى يمدها بالحياة والحركة وكلها متعلقة به سبحانه تعلق ذل واحتياج، وصدق الله القائل: ﴿**ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد**﴾(١).

وقد أشار النبى ﷺ فى خطبته فى حجة الوداع إلى هذه السنة الإلهية فقال: ﴿**أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا.. إلخ الحديث**﴾.

وثالث هذه الخصائص للكون المحسوس: أن كل شىء وجد فيه إنما خلق بحكمة وتقدير، وخُلق بقصد وعناية وليس شىء فيه وليد الصدفة أو وجد كيفما اتفق بطريقة عشوائية ـ كما يقول الملحدون ـ وإنما كل شىء فيه بقدر ونظام دقيق، فلا تطير الرياح ورقة إلا بقدر، ولا ترزق نفس إلا بقدر، ولا تنزل من السماء قطرة ماء إلا بقدر، وصدق الله القائل: ﴿**إنا كل شىء خلقناه بقدر**﴾(٢) وقال تعالى: ﴿**وأحصى كل شىء عددا**﴾(٣) وقال تعالى: ﴿**وخلق كل شىء فقدره تقديرا**﴾(٤) ﴿**وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ومانـنزله إلا بقدر معلوم**﴾(٥) وقال تعالى: ﴿**ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى**﴾(٦) وفى الحقيقة ما أكثر آيات القرآن التى جاءت تصف الدقة والنظام فى بنية هذا الكون، وأن كل شىء فيه لا يغيب عن علم الله، ولا يخرج عن قدرة الله، وأنه جل جلاله أوجده بحكمة وقصد وعناية، ولهذا وجد كل شىء فى هذا الكون منسجما مع غيره، ومرتبطا

---

(١) سورة فاطر الآية رقم ١٥
(٢) سورة القمر الآية رقم ٤٩
(٣) سورة الجن الآية رقم ٢٨.
(٤) سورة الفرقان الآية رقم ٢
(٥) سورة الحجر الآية رقم ٢١
(٦) سورة طه الآية رقم ٥٠

بعضه بـبعض، فبين أجزاء الكـون ترابط محكم يـدل على قدرة الصانع وحـكمته وعلمه الشامل المحيط بكل شيء.

وقد أثبتت العـلوم التجريبية وحدة النـظام الكونى، وشهد العلمـاء الذين بحثوا فى بنـية هذا الكون مع اخـتلاف تخصصاتـهم من علمـاء النبات وعلمـاء الحيوان وعلمـاء الفلك وعلمـاء الكيميـاء وعلماء الأحيـاء والطبيعة، وعـلماء الجيولـوجيا وغيرهم، قـد شهدوا بأن كل شيء فـى هذا الكون يشهـد بالنظام والدقـة والقصد المحكم فى الخلق، وأن القـول بالصدفة هو قول لا يقبله عقـل ولا يؤيده سند من علم أو تجربـة، ومن أراد المزيد من هذه الحقيـقة فليقرأ كتاب «الإسـلام فى عصر العلم» للـدكتور أحمد الغمراوى، وكتـاب «الإسلام يتحدى» للشيـخ وحيد الدين خان، وكتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» لمجموعة من علماء الطبيعة الأمريكيين، وكتاب «العلم يدعو للإيمان» لمؤلفه كريسى موريسون.. إلخ الكتب الكثيرة فى هذا المجال.

حقا: إن العناية والتدبير سمتـان فى خلق هذا الكون، وإن التوازن بين أجزائه واضح لكل متأمل متدبر، وانظر معى عـلى سبيل المثال لا الحصر: ماذا يحدث لو اقترب القـمر من مداره حول الأرض أكثر ما هـو عليه الآن؟ إن المياه ستـطفو فى البحار والمحـيطات، وتغرق الأرض ومن علـيها وسط لجج الماء. ومـاذا يحدث لو ابتعـد فى مداره عن الأرض أكثـر مما هو عليه الآن؟ إن المـاء سينجذب إلـى باطن الأرض ونبحـث عن المياه فى الأنهـار والآبار فلا نجدها وهذا مـا عبر عنه العـلماء بظاهرة المد والجزر فى البحار والمحيطات والأنهار، وصدق الله القائل: ﴿**قل أرأيتم إن أصبح مـاؤكم غورا فمن يـأتيكم بمـاء معين**﴾[1] فكأن وضـع القمر فـى مداره الحالى قد وضع بعناية وحكمة، ولو اختل القمر فى مداره لاختلت معه الحياة.

وانظـر مثلا فى حـاجة الإنسـان والحيوان إلـى الأوكسوجين، إن الـتنفـس فى الكائنـات العضوية الحية هـو سر حياتها، ولو حـبس الهواء عن الكائـن الحى فترة وجيزة لمات وتوقف القلب عن العمل وحينما ننظر فى بنية هذا الكون نجد التعادلية الحكيمة أو التوازن الدقيق، فنحن نعلم ما يعرف بعملية التمثيل الضوئى للنبات فى

(١) سورة الملك رقم ٣٠.

ضوء الشمس. حيث تأخذ النباتات ثانى أكسيد الكربون وتخرج الأوكسجين، إنها تأخذ فضلات التنفس للكائن الحى، ونحن نأخذ فضلات التنفس للنبات، إنها معادلة متساوية الطرفين، وبهذا تصلح الحياة، وإلا ماذا يحدث لو لم تشرق الشمس وصارت الحياة ليلا دائما؟. إننا لا نجد فى الهواء أوكسوجين حينئذ، وإنما سيصبح الهواء خاملا مشبعا بغاز ثانى أوكسيد الكربون وهو غير صالح للتنفس، إذن لابد من ليل ونهار ولابد من شمس، ولابد من نبات ولابد من حيوان وإنسان، والكل يتكامل فى منظومة واحدة هى روعة الحياة التى أوجدها الله ونظمها وأحكمها وصدق الله القائل: **﴿صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون﴾**(١).

إن النظر فى خصائص الكون المحسوس تجعلنا ندرك على الفور الحكمة الإلهية من الأمر المتكرر فى القرآن بالنظر والتدبر حيث يقول الله تعالى: **﴿قل سيروا فى الأرض ثم انظروا﴾**(٢) ويقول تعالى: **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رفعت. وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت.. فذكر إنما أنت مذكر﴾**(٤) ويقول تعالى: **﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾**(٤) إنها حقا دعوة إلى التأمل والنظر ليكتشف الإنسان من خلالها عظمة الخالق وجلاله وعلمه وقدرته فيؤمن به ويستجيب له، وعلى ذلك كان النظر فى خصائص الكون والتعرف عليه هو فى حقيقته دعوة إلى الإيمان أو إن شئت قلت مدخلا إلى الإيمان فى نفوس الناس.

إنها دعوة إلى النظر فى الكون ليصل الإنسان منها إلى المكوِّن، إنها دعوة للتأمل فى الخلق ليصل منها إلى الإيمان بالخالق جل وعلا **﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**(٥).

---

(١) سورة النمل الآية رقم ٨٨

(٢) سورة الانعام الآية ١١

(٣) سورة الغاشية الآيات رقم ١٧ ـ ٢١

(٤) سورة يوسف الآية رقم ١٠١

(٥) سورة الروم الآية رقم ٢١

إنها باختصار دعـوة إلى النظر فى الكون المحسوس لتوصـل الإنسان إلى أمرين الأول: الإيمان بخالق هذا الكون، والثانى: الانتفاع بمافيه بعد فك رموزه والتعرف على سننه المطردة والثابتة.

ثانيا: خصائص الخلق الإنسانى: أو الإنسان فى المنظور الإسلامى:

لقد حرص القرآن الكـريم على تعريف الإنسان بنفسه، وتعريـفه بمقامه فى هذا الكون، من أجل أن يـعرف دوره ورسالته فى هذه الحياة، وأن يعـرف مدى الصلة بينه وبين العوالم الأخرى من حوله، وهل هى صلة تبعية أم صلة سيادة وخلافة؟ وقد انتهج القرآن الـكريم فى حديثه عن الإنسان منهجـا واضح المعالم ذا خطوات أساسية تتمثل فيما يأتى:

أ ـ أصل خـلقـته: فهـو مخلوق مـن طين، ومخلـوق خلقا مـستقلا بـيدى الله الكريمتين، وليس ـ كما يقول فلاسفة التطـور ـ أنه وجد نتيجة التطور فى السلسلة الحيوانية ـ وما أشار إليه القرآن من صور الخلق الإنسانى [مرة من تراب ـ ومرة من طين ـ ومرة مـن حمأ مسنـون ـ ومرة من صلـصال ـ ومرة من ماء مـهين] إن هذه الأوصاف فى الحقيقة ليـست متعارضة أو متقابلة إنما هى مراحـل فى تسوية الخلق الإنسانى ـ فأصل خلـقه من تراب، ثم وضع على التراب ماء فصـار طينا، ثم ترك الطين حتى اختمـر ـ فصار حمأ مسنونا، [الحمأ: الطـين الأسود، والمسنون: المنتن المتغير الرائحة]، ثم تُرك الحمأ المسنون لـيجف ويبس ـ فصار صلصالاً [والصلصال هو الطين اليابس يسمع له صلصة أى صوت إذا يبس]، ثم بعد هذه التسوية ـ نفخ فيه مـن روحه فصار إنسـانا، ثم كان بعـد ذلك التزاوج والـتناسل عن طـريق الماء المهين وهـو المنى من الـرجل. ويقول الحـق جل وعلا: **﴿الذى أحسـن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنـسان من طين. ثم جعل نسله من سلالـة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾**(١).

ب ـ طبيـعته: بما أن الإنـسان أحد عـوالم هـذا الكون المـشهود، فـهو يـشارك الحيوانات فى غرائزها وله نفس المطالب المادية من غذاء ومسكن وتناسل وغير ذلك

(١) سورة السجدة الآيات رقم ٧ ـ ٩

مما يشترك فيه مع الحيوان لكنه يتسامى على الحيوان بعقلة الراجح وفكره المنظم وروحه الوثابة، فهو وإن كان فيه ما يشده إلى الطين أو إلى الغرائز فإن فيه أيضا ما يرتفع به إلى القمة السامية فى عالم الفضائل والروح، وإذا كانت طبيعة الإنسان مكونة من مادة وروح، فإن لكل منهما خصائصها، وليس فى الحقيقة بينهما تنافر وتقابل، بل هما عنصران متلازمان فى طبيعة الإنسان لا يكون الإنسان إنساناً إلا بهما معاً، فهو من أجل أن يفكر بعقله لابد من طاقة لهذا العقل ومصدرها هو الغذاء، وهو من أجل أن يعبد وتسمو روحه لابد من جسد صحيح وبدنٍ قوىّ به يتعبدّ لخالقه، وهو من أجل أن يعمر هذا الكون ويبنى ويشيد لابد من تناسل واستمرارية لوجوده عن طريق الوراثة والذرية، وإذا كان الإنسان مكونا من جسد وروح، فإن السيادة فيه للروح حيث يستطيع من خلال تساميه الروحى أن يهذّب غرائزه وأن يكبح جماح شهواته وأن يعلو على سائر المخلوقات التى تشاركه عالمه المحسوس فيصبح سيدها بلا منازع والمسيطر عليها بما أودعه الله فيه من عقل وروح وصدق الله القائل: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾**(١).

جـ ـ رسالته: الإنسان مخلوق ذو رسالة فى هذه الحياة، فليس وجوده فى هذا الكون عبثا أو كما مهملاً، وإنما له مهمة حددها الله قبل خلقه وهى الخلافة فى الأرض قال تعالى: **﴿وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون﴾**(٢) فالإنسان منذ وجوده فى هذا الكون وهو مناط به أمر الخلافة فى هذه الأرض، فهو مكلف أن يعمر هذا الكون، وأن يكتشف قوانينه، ويفك رموزه حتى ينتفع بما فيه، وكل شىء فى هذا الكون مسخر له، ولكن عليه

---

(١) سورة الإسراء الآية رقم ٧٠

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٣٠

أن يعمره وفق منهج الله، فهو لا يخبط فى الوجود خبط عشواء، ولا يكون أسير شهوته وهواه وإنما يستمد منهجه من الله يقول تعالى: ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾(١)، فهو بما كرمه الله به من عقل، وما منحه من حرية، وما خول له من إرادة وقدرة، جعله سيدا فى هذا الكون سخر له كل شىء، قال تعالى: ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾(٢) ولهذا أناط به وحده حمل الأمانة، إنها أمانة التكليف والاتصال بالملأ الأعلى، أو هى متطلبات الخلافة من الالتزام بمنهج الله فى عمارة هذه الحياة، قال تعالى: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾(٣) أى إنه إذا ابتعد عن منهج ربه كان ظالما لنفسه جاهلا برسالته وحقيقة خلقته فى هذا الكون، وإذا كانت جميع المخلوقات الأخرى قد أطاعت ربها طاعة مطلقة فاستجابت لأمره ولم تخرج عن سننه فى خلقها، فإن الإنسان هو الذى يتمرد على خالقه فيعصى أمره ويخالف منهجه إلا من حفظ الله، وعلى الإنسان إذا أراد السعادة أن يسعى جاهدا لإرضاء خالقه والاتصال به فى عبودية دائمة له، وهكذا ينتهى الإسلام بالإنسان إلى اتصاله بربه وخالقه، وأن هذه الصلة الإيمانية ضرورة لتوازنه وسعادته وعمارته لهذا الكون، يقول تعالى: ﴿**فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هدى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾(٤).

ثالثا: أطر العلاقة ـ أو الصلة ـ بين الإنسان والكون:

إذا كان الإنسان هو أحد عوالم الكون المشهود، فإنه المخلوق الوحيد الذى ميزه الله عن سائر المخلوقات الموجودة معه على هذه الأرض، فهو بما فيه من عقل وبما

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٣٨

(٢) سورة لقمان الآية رقم ٢٠

(٣) سورة الأحزاب الآية رقم ٧٢

(٤) سورة طه الآيتان رقم ١٢٣ ـ ١٢٤

حباه الله من خصائص سيد هذا الكون بلا منازع ـ ولهذا كان له فضل الخلافة وشرف حمل الأمانة، ومن هنا كانت صلته بالكون صلة غير عادية، بل هى صلة متميزة تقوم على أطر ثابتة، وتصبح علاقته بالكون ذات معالم محددة تتضح فى الأمور الآتية:

١ ـ أنها صلة تقوم على العلم والمعرفة: ـ

فإذا كان الكون المحيط بالإنسان لغزاً كبيرا، وإذا كانت السنن التى انتظمت أمر هذا الكون تحتاج إلى كشف وعلم، فإن الله عز وجل قد منح الإنسان العقل الذى به يفكر ويكتشف ودفعه إلى العلم والمعرفة، وأمره بالتأمل والنظر فى بنية هذا الكون من حوله، وعاب على من تكون نظرته إلى الكون نظرة سطحية هامشية فقال عز وجل: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾**(١).

ويبين الله تعالى للإنسان أن هذا الكون من حوله ليس شبحا مخيفا، كما أنه ليس لغزا لا يحل، وإنما هو كون مسخر للإنسان، وما على الإنسان إلا أن يستخدم مواهبه التى منحها الله له من علم وعقل من أجل أن يفك رموز هذا الكون وينتفع بما فيه، وأن تكون صلته بهذا الكون صلة أساسها العلم الصحيح وليس الوهم أو الظن أو الخرافة، ولهذا عاب الإسلام على من يعطل مواهبه ويذهب إلى عراف أو كاهن أو ساحر، فليس واحد من هؤلاء عنده العلم الصحيح، وليست طريقتهم هى طريق المعرفة النافعة، وإنما غاية ما عندهم يقوم على الوهم والخرافة، يقول ﷺ «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»(٢) كما نهى الإسلام عن التقليد الأعمى لموروثات الآباء والأجداد، وأمر الإنسان بتحرى الحق فى كل ما يصله عن غيره، كما بين أن صلته بالجن ليست

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ١٧٩

(٢) الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك والإمام أحمد فى المسند كلاهما عن أبى هريرة وقال عنه السيوطى فى الجامع الصغير: حديث حسن.

مفيده فى تحصيل المعارف الصحيحة لأنهم لا يعلمون الغيب، فليسوا مصدراً للمعرفة يقول تعالى ﴿**وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا**﴾[1] ويقول: ﴿**فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين**﴾[2] من هنا كان الأساس الأول فى علاقة الإنسان بالكون يقوم على العلم، وليس من طريق لتسخير ما فى هذا الكون سوى العلم، وما أكثر النصوص فى القرآن الكريم والسنة التى جاءت تدعو إلى هذا الطريق، وتقفل الباب أمام الوسائل الخاطئة فى المعرفة من التقليد الأعمى، والتعلق بالجن، والذهاب إلى السحرة والدجالين، ولم يقف الإسلام عند حد رفض هذه الوسائل الخاطئة، بل رسم له الطريق الصحيح فى المعرفة، وأوضح له مناهج البحث فى هذا الكون وجعل أساسها الأول هو التدبر والتبصر والتفقه والتعقل والنظرة الفاحصة الواعية، كما جاءت بذلك آيات القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير**﴾[3] ويقول تعالى: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾[4].

٢ ـ أنها صلة تقوم على العمارة للأرض والانتفاع بما فى الكون:

يقول الله تعالى: ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾[5] والألف والسين والتاء فى أول الفعل تدل على الطلب، أى أن الله عز وجل طلب منا عمارة هذه الأرض، وهى جزء من رسالة الإنسان فى الحياة، والعمارة لن تكون إلا بمعرفة أسرار المخلوقات وفك رموز الكائنات وتسخيرها والانتفاع بها، ومن مقتضيات العمارة أن تكون نافعة، فهى عمارة تبنى لا تهدم، وتشيد لا تخرب، وتنفع لا تضر، ولن يتأتى ذلك إلا إذا التزم الإنسان فى سعيه للعمارة بما شرعه الله

(١) سورة الجن الآية رقم ٦

(٢) سورة سبأ من الآية رقم ١٤

(٣) سورة العنكبوت الآية رقم ٢٠

(٤) سورة النحل الآية رقم ٧٨

(٥) سورة هود الآية رقم ٦١

له من ضوابط الإيمان والأخلاق، أما إذا انطلق الإنسان فى عمارته للكون انطلاق البهيمة الجامحة بلا ضوابط، فإنه يفسد أكثر مما يصلح ويضر أكثر مما ينفع، وليس أدل على ذلك من تلك الشعارات التى رفعتها الحضارة الغربية من أن العلم للعلم، وأن الغاية تبرر الوسيلة، وأن العلم والدين ضدان لا يجتمعان. . إلخ هذه الشعارات المادية التى حولت الإنسان إلى وحش كاسر فى هذه الحياة لا يأبه لأخيه الإنسان فى أى مكان أو زمان، وإنما فقط مصلحته الذاتية، وليست معطيات الحضارة الغربية عنا ببعيد، ولا يخفى على أحد ذلك التطور الهائل فى أسلحة الدمار ومحاولة تجريبها على الآخرين، وتلك النفايات الذرية التى تدفن فى أجواء الدول الفقيرة فتضر بالتربة والسكان وغير ذلك من المآسى التى يشهدها الواقع المعاصر.

ويجب على الإنسان أن يعى جيداً أنه إذا كان الله قد أمره بالعمارة، وأنه سخر له ما فى السموات وما فى الأرض، ومنحه العلم والموهبة ليتملك بهما زمام الكون، فيجب ألا ينسى أن مقتضيات العمارة هى الإصلاح لا الإفساد، والنفع لا الضرر، والإيمان بالله وليس الكفر به.

٣ ـ أنها صلة تقوم على الإيمان بالله تعالى: ـ

فليس الهدف من صلة الإنسان بالكون هو الانتفاع به وفقط، صحيح، هذا جزء من رسالته ولكن هناك جزء آخر من مهمته ـ بل هو أساس مهمته ـ يجب ألا يغفل عنه لحظة، وهو معرفة الله، معرفة خالقه وفاطره، وخالق هذا الكون ومسخره للإنسان.

فيجب أن يكون النظر فى المخلوقات، واكتشاف ما فيها من أسرار، ومعرفة ما قامت عليه من سنن ثابتة يجب أن يوصل إلى الإيمان بالله، إن هذا الكون صفحة مملوءة بشواهد الربوبية، ودلائل الألوهية فما يجده الإنسان من إحكام فى الخلق، وما يجده من قصد وعناية بالمخلوقات لهو أكبر دليل على وحدانية الله تعالي، ولله در من قال: وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد.

ويرحم الله شوقى حينما قال فى وصف الطبيعة :ـ

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى | حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا | لروائع الآيات والآثار
من كل ناطقة الجلال كأنها | أمّ الكتاب على لسان القارى
دلت على ملك الملوك فلم تدع | لأدلّة الفقهاء والأحبار
من شك فيه فنظرة فى صنعه | تمحو أثيم الشك والإنكار

حقا ما أكثر الآيات المبثوثة فى الكون هنا وهناك، هى تقف شاهدة على ربوبية الله لهذا الكون، وتفرده بالوحدانية الحقة، يقول تعالى: **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**(١) وما أكثر الآيات القرآنية التى جاءت تتحدث عن الكون المشهود وما فيه من منافع وشواهد على قدرة الله تعالى، حتى أوصلها بعض الباحثين إلى ثمانمائه مائة آية كونية فى القرآن، كلها تعرض صفحة هذا الكون وما فيه من دلائل الإيمان بالله تعالى، ولهذا عاب الله تعالى على الذين يقفون بعلمهم عند حدود المادة، ويجعلون غايتهم هى الانتفاع فى هذه الحياة فقط فقال تعالى: **﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾**(٢)، فيجب على الإنسان أن يعتبر وأن يتبصر وأن تكون صلته بهذا الكون صلة إيمانية، فيصل من النظر فى روائع الكون إلى جلال المكون، ويصل من كشف أسراره وتسخيره إلى معرفة الخالق الذى أقام الكون على سنن ثابتة: **﴿سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾**، وأن يأخذ من تمايز المخلوقات رغم تشابهها دليلاً على عناية الله وحكمته يقول تعالى: **﴿وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**(٣)

---

(١) سورة فصلت الآية رقم ٥٣

(٢) سورة الروم الآية رقم ٧

(٣) سورة الرعد الآية رقم ٤

إذا قامت صلة الإنسان بالكون على هذا النحو الإيمانى فإنه حقا يكون قد استشرف الدرجة العليا فى عالم الشهادة، واستحق بجدارة أن يكون سيد هذا الكون وخليفة الله فى أرضه.

عالم الغيب والطريق إلى معرفته:

لقد تبين فيما سبق حدود المنهج الذى رسمه الله تعالى فى تعريف الإنسان بالكون المشهود ورأينا كيف عرفه الله بخصائص المحسوسات، وكيف عرفه بنفسه، وحدد له إطار العلاقة السليمة بينه وبين هذا الكون، وقد بقى لنا أن نتعرف على قسيم الوجود الثانى وهو عالم الغيب: ما هو؟ وما هو الطريق إلى معرفته؟ وما هو الإطار الذى ينبغى على الإنسان أن يقف عنده، أو الحدود التى ينبغى ألا يتجاوزها؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التى تحدد لنا سير البحث فى هذا النوع من الوجود.

صحيح: إن العقل قد أدى جهدا مشكورا في عالم الشهادة، فكشف عن أسراره وانتفع بما فيه، وعرف كيف يتعامل معه، لكن هل لهذا العقل الإنسانى قدرة أو طاقة على معرفة الغيب؟ وهل يستطيع الإنسان المأطور بأطر الزمان والمكان الحسيين ولا يستطيع أن يتجاوزهما مهما كان عقله، هل يستطيع أن يلج دائرة الغيب ويتعرف وحده على دائرة الوجود الغيبى؟ إن الإجابة قد تتضح أكثر إذا مابحثنا فى مصادر المعرفة عند الإنسان أو منابعها فى نفسه، وهل يمكن لهذه المصادر أن توصله إلى عالم الغيب أم لا؟ لنرى ذلك:

مصادر المعرفة البشرية:

مما هو معروف أن الإنسان يولد وهو صفحة بيضاء، لا يعى من أمر الوجود شيئا، وصدق الله القائل: **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾**[1] ولكنه يولد وهو مزود

(١) سورة النحل الآية رقم ٧٨

بآلات المعرفة، وإمكانية العلم، وكلما نما شيئا فشيئا نمت معه تلك الوسائل، وقد أشار القرآن إلى مصدرين للمعرفة فى الآية هما الحواس والعقل، فالسمع والبصر هما قمة الحواس الخمس فى الإنسان، وأما الأفئدة فإنها تعنى منطقة التعقل فى الإنسان، كما أشارت الآية أيضا إلى وجود التلازم والترابط بين هذه المداخل للمعرفة، فلا قيمة للحواس بمفردها، وإنما تصبح مردودات الحواس ذات قيمة فى المعرفة باستقبال العقل لها، واستنباط العلاقات بين الأشياء والنتائج المترتبة على هذه العلاقات، وكأن الإنسان يتدرج من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلية، أو من التصور إلى التصديق، وقد أرجع بعض الباحثين مصادر المعرفة الإنسانية إلى مصدرين اثنين فقط هما العقل والوحى، واعتبر الحواس والتجربة والإلهام الذى يكون فى المجال الواقعى، والحدس العقلى، اعتبرها مصادر فرعية غير مستقلة بذاتها فى تقديم المعرفة ولا يصبح لها قيمة إلاّ بتأييد العقل أو الوحى لها[1].

فإذا كان الإنسان يبدأ حياته بالتقليد والمحاكاة لوالديه أو للآخرين، فإن مرد هذا التقليد يرجع إلى الحواس، وإذا كان الإنسان ينظر إلى الأشياء فيحكم عليها بالصغر أو الكبر أو الصفرة أو الحمرة أو غير ذلك، وإذا كان يسمع الأصوات فيحكم عليها بالجمال أو القبح، أو يحكم بأنها أصوات شجن وفرح أو أصوات حزن وألم، وإذا كان الإنسان يشم الروائح فيحكم عليها بأنها طيبة أو فجة أو غير ذلك، وإذا كان يتذوق الأشياء فيحكم عليها بالحلاوة والمرارة أو البرودة والحرارة، وإذا كان يلمس الأشياء فيحكم عليها بالنعومة أو الخشونة أو غير ذلك فإن هذه الأحكام الصادرة على الأشياء إنما اشترك فيها العقل، بل إن الحدس العقلى لا يعدو أن يكون منهجا من مناهج العقل فى تحقيق المعرفة، بل إن التجربة وإن بدت فى شكل حسّى مادّى، فإنها قائمة على أساس عقلى، فالعلوم التجريبية التى تعتمد على التجربة وتعتبرها أساس العلم الصحيح إنما تنطلق من أساس عقلى، وهى المبادىء الأولية العقلية المغروسة فى الفطرة، مثل أن لكل معلول علة ولكل ظاهرة سبباً أحدثها.

(١) راجع مصادر المعرفة فى الفكر الدينى والفلسفى للدكتور عبدالرحمن الزنيدى، نشر المعهد العالمى للفكر الإسلامى.

والذى نريد أن نقـرره هنا هو: أن العقل بكـل الوسائل المساعدة له فـى المعرفة من الحواس والتـجربة والحدس وغيرهـا. هل يستطيـع أن يصل إلى عالم الـغيب ويقف على أسراره؟ هل نستطيع بالعقل أو بالحواس أو بالتجربة أو بالحدس العقلى أن نكتشف أن هناك ملائكة أو عرشاً للخالق جل وعلا، أو جنة وناراً؟ إن الإجابة قطعا بـالنفى، لأن العقل وكـل الوسائل المساعدة مـعه فى المعرفة محـصورة بإطار المكان والـزمان الحسيـن وليس فى مقـدوره أن يتخطـى حدودهما، وإذا مـا فعل فبـحث فيـما وراء الطبـيعة فـإنه حتـما سيـقع فى مـتاهات ولن يـعود إلا بالـظن والتخمينات، ولن يستطيع بمفرده أن يصل إلى معرفة صحيحة أو يقينية فى عالم ما وراء الطبيعة، وهذا ما يشهد به الحصاد الـفلسفى فى القديم والحديث، الذى قطع مشواره فى بعد عن الوحى الإلهى المعصوم.

صحيح: إن العقل قادر أن يصل ـ بحكم المـعارف الأولية الفطرية المغروسة فيه إلى أن لهذا الـكون خالقاً، فحـيث إن لكل ظاهرة سـبباً أوجدها، ولكـل معلول علـة، فلابد أن يـكون وراء هـذا القصـد والعنـاية والتـدبيـر والإحكام فـى شأن المخلوقات المشهودة والتى هى عبـارة عن هذا الكون المنظور، لابد أن يكون وراءه خالق عظيم، ومـن هنا نقول إن فى مقدور العقل أن يـصل إلى هذا الأصل وهو وجود خالق وإله لـهذا الكون، لكن ما صفته ومـا ينبغى له، وما يستحـيل عليه؟ وماذا خلق من أشـياء وراء هذا الكون المنظور؟ وكيـفية الصلة به؟ وكيفـية العبادة والتقرب إليه؟ وماذا يريـد منا؟ وما مصير هذه الحياة بعد الفنـاء، وما مصيرنا نحن بعد الموت؟ كل هـذه التساؤلات لا يمكن للعـقل أن يقف عليها، ولـيس لذلك إلا طريق واحد وهو الوحى المعصوم، ولهذا كان الـوحى هو المصدر الثانى فى المعرفة الإنسانـية، وهو بحق المصـدر اليقينى فـى المعرفة لأنه يحـمل شواهد صدقه فـيما أخبرنا الله عنه على لسان أنبيائه ورسله المعصومين من الكذب والمؤيدين بالمعجزات الدالة على صدقهم فيما يبلغونه عن الله.

ومن هنا جاء الـوحى فعرفنا بالله وبصفـاته العلا وبأسمائه الحسـنى، وبما يجب له، وما يجوز فى حقه وما يستحيل عليه.

وعرفنا بالملائكة وبخصائصهم ومدى صلتهم بالإنسان، وعرفنا باللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه ما جرى فى علم الله، وعرفنا باليوم الآخر، وما هو مصير الإنسان بعد الموت، وماذا سيكون فى يوم القيامة، وعرفنا بمطلوب الله منا بما بينه من عبادات وقيم وتشريعات التى هى منهج الله الشامل الكامل لسعادة الإنسان فى الحياة الدنيا والحياة الأخرى.

وفى الحقيقة: إن العقل والوحى يتآزران معاً فى استكمال دائرة المعرفة فى الإنسان، فليس بينهما تنافر، وليس ثمة خصومة بين العلم والدين، أو بين العقل والوحى، إنهما فى الحقيقة مصدران للمعرفة لمورد واحد وهو الإنسان، ومن واهب واحد وهو الله جل جلاله، ولغاية واحدة وهى تحقيق السعادة للإنسان، فإذا كانت الطبيعة هى الميدان الواسع لعمل العقل فإن هذا العقل فى تعامله مع الكون يحتاج إلى الوحى الإلهى الذى يبين له مدى علاقته بهذا الكون وما هو الطريق السوى الذى يسلكه فى التعامل مع هذا الكون، وما هى القيم التى تحرسه فى سلوكه، وما هى العقيدة التى تنظم سائر حياته فى انسجام وترابط، حتى لا يقع فريسة لشطحات الفكر وهواجس النفس، ونوازع الهوى والشهوة[1].

فالعقل وهو يتعامل مع هذا الكون لابد أن يتلقى عن الله ما يعصم به نفسه من الزلل والضياع ولهذا يبقى العقل دائما فى حاجة إلى الوحى، بل هو تابع للوحى، لأن الوحى له العصمة وهو المصدر المعصوم من الزلل والزيغ، ويجب على العقل أن يجعله الميزان الذى يزن به مفهوماته ومعارفه، وصدق الله القائل ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾[2] فالكتاب هو الوحى والميزان هو العقل، وهما معاً متآزران فى استكمال دائرة المعرفة الإنسانية.

ولذا يجب على العقل ألا يتجاوز حدوده فى عالم الغيب، وألا يبحث فيما حجبه الله عنه لأنه إن فعل ذلك لن يعود بطائل، وإنما سيعود بالتعب والملل، وقد

---

(١) راجع صفحة ٦١٦ وما بعدها من كتاب مصادر المعرفة، مرجع سابق.

(٢) سورة الحديد الآية رقم ٢٥

استنفذ طاقته وأضاع وقته فى غير مافائدة، ومن هنا جاء قول النبى ﷺ «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا»[1] فالبحث فى كنه الذات هو أمر فوق العقل وقال تعالى: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾[2] فالبحث فى حقيقة الروح مضيعة للوقت ولن يعود الباحث إلا بالضلال لأن حقيقتها مما استأثر الله بعلمه، فهو أمر خارج عن طاقة العقل. وكذلك قول الله تعالى: ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[3] فوقت الساعة أمر مقصور على علم الله وحده، فليس فى إمكانية العقل أن يصل إليه.

ولهذا عاب بعض الباحثين على مفكرى الإسلام انشغالهم بالجدل حول المسائل العقدية والغيبية. حيث استنفدوا طاقتهم فى جدل عقيم وشغلوا الناس معهم بالخلافات حول أمور كان الناس فى غنى عنها، وبدل أن توجه الطاقة إلى علوم الكون وفك رموزه واستكشاف أسراره حتى يتمكنوا منه، ويسخروه وينتفعوا بما فيه، وتكون لهم الهيمنة التى يستطيعون معها قيام دولة الإسلام وتحقيق شريعة الله، كما قال تعالى: ﴿**الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾[4] بدل أن يفعلوا ذلك انشغلوا بجدل عقيم عطل مسيرة الحضارة الإسلامية.

يقول هذا الباحث: «إن الإسلام وضع الحقائق الإلهية الكاملة أمام العقل فى المجالات التى ليس له أن يلجها بحثا وتنقيبا حتى يتفرغ للبحث الجاد فى كشف أسرار الكون وعمارة الحياة وتنظيم العمران، إنه باختصار من أجل أن يكون عقل الإنسان عقلا عمليا، وكلما حمل العقل نفسه الخوض فى مجالات وتفصيلات

---

(١) المقاصد الحسنة للسخاوى رقم ١٥٩ وذكره الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٧٨٨

(٢) سورة الإسراء الآية رقم ٨٥

(٣) سورة الأعراف الآية رقم ١٨٧

(٤) سورة الحج الآية رقم ٤١

الأمور الغيبية ضل وتاه، ولم يغد إلا بالإضطراب والإلحاد ـ كما رأينا ـ فى الحصاد الفلسفى القديم والحديث، مما يدل على قصور العقل فى هذا المجال»[1].

وخلاصة القول من هذه النقطة: أن مصادر المعرفة الإنسانية لا تستطيع أن توصل إلى عالم الغيب بمفردها لأنها مأطورة بحدود الزمان والمكان الحسيين، ولهذا كان العقل وجميع الوسائل المساعدة له فى المعرفة عاجزة عن الوصول إلى آفاق العالم الغيبى، وليس ثمة من طريق إلى معرفة العالم الغيبى سوى الوحى المعصوم.

وأن العقل والوحى يتآزران فى إتمام حلقة المعارف الإنسانية وليس بينهما صراع أو تنافر، بل هما الميزان الذى أقامه الله فى تقويم حياة البشر على هذه الأرض.

وأن العقل بحكم طبيعته وطبيعة الخلق الإنسانى قاصر وحده ويحتاج إلى ميزان يعصمه من الزلل. لهذا كان العقل تابعا للوحى، لأن الوحى له العصمة وفيه يقينية المعرفة ولهذا وجب على العقل أن يقف فى أمور الغيب عند حدود ما أطلعه الله تعالى عليه وهو كاف فى مسيرة حياته واعتدال سلوكه، وألا يتجاوز المناطق المحظورة وإلا وقع فى الضلال والتيه وصدق الله القائل ﴿**ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم**﴾.

---

(١) تجديد الفكر الإسلامى ص٩١ د. محسن عبدالحميد، طبعة دار الصحوة.

ثانيا: الوجود فى التصورات البشرية

تبين لنا فيما سبق: كيف أن العقل فى غيبة الوحى الصحيح يكون عرضة للزلل والخطأ، وإذا كان العقل فى مقدوره أن يصل إلى وجود خالق لهذا الكون - بحكم ما أودع فيه من معارف أولية وأشواق فطرية إلى الإله - فإنه إذا تجاوز هذه المنطقة وحده ضل وتاه، وعجز عن أن يصل بمفرده إلى معرفة صفات هذا الإله وما ينبغى له وكيف تكون صلتنا به، وكذلك أيضا يعجز العقل وحده أن يفسر القضايا الكبرى تفسيرا صحيحا كقضية الموت والحياة أو البعث والنشور وغير ذلك.

ولا أدل على ذلك من تلك الإفرازات التى توصل إليها الفلاسفة بعقولهم المجردة عن تصور الإله والموت والحياة والبعث بعد الموت، فمنهم من تصور الله حالا فى جميع الموجودات يتبدى فيها، ومنهم من تصوره ملكا عظيما مهيبا له عرش عظيم تحيط به الأسود من كل جانب، ومنهم من تصوره عقلا محضا أو روحا محضا منعزلا كلية عن خلقه بعد أن خلق فى كل شىء ناموسه، ومنهم من تصوره يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، ومنهم من تصوره فكرة مطلقة مازالت تحاول التعبير عن نفسها من خلال التدرج فى الكائنات إلى أن وصل إلى الدولة ومؤسساتها، إلى آخر هذا الخلط الذى لا يحده حصر فى وصف الإله، ومثل ذلك عن الروح والبعث والجزاء والخير والشر.

من هنا: كان الوحى ضرورة عقلية وفطرية، لأنه هو العاصم للعقل من الزلل، والممد له بأنواع المعرفة الغيبية التى لا يمكن أن يصل إليها، كما أنه أيضا هو الذى يحفظ للأمة وحدتها الفكرية ويجمعها على أصول واحدة فى توجهها العقيدى والقيمى والتشريعى.

وإذا كنّا سندرس الوجود من خلال التصورات البشرية المحضة، فحتماً سنجد بين الأفكار تقابلا وسنجد فيها خلطا، وستقابلنا تصورات وفلسفات ومذاهب عديدة فى نظرتها إلى الوجود، فسنجد من يتجه بالوجود وجهة مادية بحتة، فيجعل كل شىء فى الوجود أساسه المادة وحدها ولا شىء غيرها، وسنجد من يجعل الوجود أساسه الروح وكل شىء فى الوجود إنما هو انعكاس للروح

والعقل، وسنجد من يشكك في الوجود وينفى الحقائق المطلقة الثابتة، ويجعل الفرد مقياس الحقيقة، وأن المعارف كلها جزئية شخصية وأنه لا توجد معارف ثابتة، وليس هناك يقين فى أى شىء من هذا الوجود.

ورغم كثرة التصورات، وكثرة المدارس الفلسفية، وتعدد المذاهب، والنظريات، والحركات، التى تفسر الوجود إلا إنه يمكن ردها إلى اتجاهين أساسيين هما:-

الاتجاه المادى، والاتجاه المثالى، وسنقوم بدراسة كل اتجاه من هذين الاتجاهين على حدة مع إعطاء نماذج لكل منهما من خلال المذاهب والنظريات السائدة اليوم فى الحضارة الغربية، والتى أفرزت سمومها الفكرية وأطلقت شظاياها فلوثت العالم كله.

الاتجاه المادى

وهو ذلك الاتجاه الذى يحصر أصحابه الوجود كله فى المادة وحدها وينكرون ماوراءها، أو يلغونه من الاعتبار فلا يقيمون له وزنا فى حياتهم، ولذلك فهم يفلسفون أو يفسرون كل شىء فى الوجود من هذا المنظور المادى:-

فالوجود عندهم: مادى فى طبيعته، ولا شىء فى الوجود غير المادة، والحياة والحركة والفكر وغيرها - مما يظن البعض أنها تشهد بوجود الروح أو العقل منفصلا عن المادة - ليست فى الواقع إلا وظيفة من وظائف المادة، أو صفة من صفاتها، فإذا انحلت المادة: توقف الفكر وتوقفت الحركة وانعدمت الحياة.

ويرون أن التجربة لم تكشف إلا عن وجود الجسم وأعضائه ووظائف هذه الأعضاء، فالتفكير وظيفة المخ، كما أن التذوق وظيفة اللسان، وأن المخ يفرز التفكير كما يفرز الكبد العصارة الصفراء. فليس ثمة شىء اسمه العقل أو الروح منفصلا عن المادة، إذ أن النشاط الروحى والعقلى قد وجد بوجود الحياة العضوية وسينتهى بانتهائها.

والأخلاق عندهم: مادية حيث يرون أن غاية الأفعال الإنسانية هى تحقيق المنافع المادية من لذة وطعام وملبس ومسكن ومال وجاه ونحوها، وعلى ذلك فهى

أخلاق نفعية، فما حقق للإنسان نفعاً مادياً فهو خلق حسن وفضيلة، وما منعه عن تحقيق مأربه فهو زذيلة، فليست الأخلاق والقيم فى حياة الناس، قيما فى ذاتها كالحق والعدل والخير، وإنما هى قيم نفعية مادية تدور مع مصلحة الإنسان حيث دارت.

والعلم والمعرفة عندهم: ما كان مستنبطاً من التجربة وحدها، فما يخضع للتجربة فهو العلم ومالا يخضع للتجربة فليس بعلم، وهم بذلك ينكرون كل العلوم التجريدية أو العلوم المعيارية والمعارف الإنسانية التى لا تخضع للتجربة، فالمعرفة عندهم تكون فقط فى العلوم الطبيعية، وما يستنبطه الناس بعقولهم المجردة، أو يتلقونه عن طريق الوحى إنما هو هراء وعبث ولا طائل من ورائه، فالعقل عندهم تابع للمادة ولا شىء حقيقى فى هذه العلوم والمعارف إلا فى الواقع المادى المحسوس الذى يخضع للتجربة دون سواها.

والتاريخ عندهم: مادى بحت، فهم يردون حضارات الأمم ومعتقداتها ونظمها الاجتماعية والسياسية، بل والعادات والأعراف والفنون والآداب، يردون ذلك كله إلى أسباب اقتصادية مادية، فالاقتصاد هو الذى يؤثر فى تشكيل الحضارة، وهو الذى يطبع الحياة الأدبية والدينية والعلمية بطابعه الخاص عند كل أمة، فليس صحيحا ما يقال بأن النهضة العلمية والأدبية والقيم الدينية هى التى تشكل التاريخ وتصنع الحضارات، بل العكس هو الصحيح حيث إن الحياة الاقتصادية هى التى تؤثر فى هذه الأشياء وما النهضة الأدبية والعلمية وغيرها إلا انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية فى مسيرة الأمم عبر عصور التاريخ(١).

وهكذا ـ كما مر ـ نجد أصحاب الاتجاه المادى يفسرون كل شىء فى الوجود تفسيراً ماديا، وكان الاتجاه المادى بمثابة الرحم التى تولد منها مذاهب مادية ونظريات مادية وحركات مادية عديدة منها:ـ

مذاهب مادية مثل: الوضعية، والوجودية، والماركسية... إلخ.

(١) انظر فى ذلك مبحث الوجود فى كتاب أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل من صفحة ٧٧ ـ ١١٠ طبعة مكتبة النهضة المصرية.

ونظريات مادية مثل: الداروينية، والفرويدية، والدوركايمية... إلخ.

وحركات مادية مثل: العلمانية، أو العصرانية والميكافيلية، ... إلخ.

وكان هذا الاتجاه المادى من السعة بحيث شمل معظم الإفرازات العقلية فى الحضارة الغربية المعاصرة، حتى أضحت هذه الحضارة موسومة بسمة الحضارة المادية وقبل أن نشرع فى دراسة الجذور الفكرية لهذا الاتجاه المادى فى الحضارة الغربية المعاصرة أحب أن أشير إلى نقطتين:-

الأولى: قدم هذا الاتجاه فى حياة الأمم والشعوب بل والحضارات التى انحرفت عن الوحى أو حرمت منه.

والثانية: ضرورة دراسة هذه الاتجاهات الفكرية حيث إنها لم تعد قاصرة على بيئتها الغربية، وإنما زحفت إلى بلاد المسلمين من خلال الغزو الفكرى المنظم لها والرامى إلى إحلالها محل المفاهيم الإسلامية الصحيحة، بل وإلغاء الإسلام نفسه.

أما عن النقطة الأولى فسيكون مصدرنا فيها هو حديث القرآن الكريم عن هذا اللون المادى فى نظرة بعض الناس وفى سلوك البعض الآخر. ولعل وثائق التاريخ عن مسيرة الأمم والحضارات الإنسانية لا تخرج عن هذه الحقائق اليقينية، وتلك التوصيفات الدقيقة التى أخبرنا بها القرآن الكريم، فالقرآن هو السجل المعرفى اليقينى عن مسيرة البشرية منذ خلق الإنسان الأول أبينا آدم عليه السلام - وحتى اليوم.

❑ حديث القرآن عن الاتجاه المادى:

لقد أشار القرآن إلى صنف من البشر حصروا نظرتهم إلى الوجود فى هذا العالم المحسوس فقط، وأرجعوا كل شىء إلى المادة، وقد سماهم القرآن بالدهريين فقال عنهم: **﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾**[1] فبين القرآن أن دعواهم هذه ليس مبناها العلم الصحيح، وإنما هى ظنون وأوهام.

(١) سورة الجاثية الآية رقم ٢٤

ولقد عبر بعضهم عن هذا الاتجاه بقوله «ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر» فهم يستبعدون من نظرتهم كل أثر لوجود إله، منه كانت الحياة وإليه يرجع الناس للعرض والحساب.

❑ كما أشار القرآن إلى جبلة اليهود: حيث تأصلت فيهم النظرة المادية إلى الأمور وخلدت بهم طبائعهم إلى الأرض، وتعلقت أفئدتهم بالمادة حتى صار ذلك طبعا لهم لازما، فصاروا يسمون بالماديين.

❑ **انظر إليهم:** بعد أن عبروا البحر مع نبيهم موسى عليه السلام، وشاهدوا المعجزة التى انفلق فيها البحر فكان طرقا عبر عليها بنو إسرائيل ونجاهم الله من الغرق ثم أغرق فرعون ومن معه ماذا قالوا حينما مروا على قوم يعبدون الأصنام؟ لنسمع حديث القرآن عنهم فى قوله تعالى: ﴿**وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون**﴾(١).

❑ **وانظر إليهم:** حينما ذهب موسى على عجل لميقات ربه ووعدوه بأن يكونوا على إثره، لكن سرعان ما تحركت فيهم طبائعهم المادية، فصنعوا عجلا من ذهب وجلسوا لعبادته، يقول تعالى مخبرا عنهم: ﴿**وما أعجلك عن قومك يا موسى. قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى. قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى. فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى. قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى. فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم وإله موسى فنسى، أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا**﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ١٣٨

(٢) سورة طه الآيات من رقم ٨٣ ـ ٨٩

❑وانظر إليهم: حينما قالوا لموسى لن نصدقك ونتبعك حتى نرى الله جهرة، يقول تعالى مخبرا عنهم: ﴿**وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون**﴾(١).

* ولقد وصفهم الله بقوله: ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة**﴾(٢).

❑ووصفهم كذلك بقوله: ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة**﴾(٣).

❑ولم يستطيعوا أن يتخلصوا من شوائبهم المادية فى معرفة الله عز وجل، فوصفوه بأوصاف مادية فقالوا: «إن الله فقير ونحن أغنياء" وقالوا: يد الله مغلولة، وقالوا: نحن أبناء الله، وقالوا... وقالوا...

يقول تعالى: ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ماقالوا..**﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء**﴾(٥).

ومن يقرأ التوراة الحالية يجد أن النظرة المادية متأصلة فيهم وأنها لم تفارقهم أبد الدهر، فجاءت صفة الله فى توراتهم كلها تجسيما وتشبيها بخلقه، حتى جعلوا الرب يدخل فى عراك مع إسرائيل، وكاد إسرائيل أن يصرعه، فقال له الرب دعنى وأبارك شعبك أو نسلك ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

بل إن التوراة الحالية نجدها خالية تماماً من أى ذكر عن اليوم الآخر وعن الحساب والجزاء وكأنهم لا يرغبون فيما يذكرهم بانقطاع هذه الدنيا والرجوع إلى

(١) سورة البقرة الآيتان رقم ٥٥، ٥٦

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٧٤

(٣) سورة البقرة الآية رقم ٩٦.

(٤) سورة آل عمران رقم ١٨١

(٥) سورة المائدة الآية رقم ٦٤.

الآخرة.

وحينما جاءهم نبى الله عيسى عليه السلام، ليدعوهم إلى الله ويرفع عنهم بعض الحرج والشدة التى فرضت عليهم فى شريعة موسى عليه السلام، وينهض بهم من كبوتهم المادية التى أغرقوا فيها حتى شحمة آذانهم، رفضوه، وحاربوه، وأغروا به الحاكم الرومانى ليقتله، ولكن الله نجاه «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم» إنهم حقاً ذوو رقاب غليظة وذوو أفئدة جامدة وقلوب غلف طبع الله عليها بكفرهم يقول تعالى: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما**﴾(١)

بعد هذا الاستطراد من عرض الاتجاه المادى عند اليهود وتأصله فى جبلتهم، وكأنهم فطروا عليه ـ أود ألا يفهم القارىء أنه استطراد فى غير موضعه، فإننى تعمدته، وحرصت على إبرازه هنا بين يدى الحديث عن الجذور الفكرية للاتجاه المادى فى الحضارة الغربية المعاصرة لأننا سنجد عند عرض النماذج على هذا الاتجاه، أن اليهود كانوا وراء هذه المذاهب المادية وتلك النظريات والحركات المادية التى ظهرت فى أوربا فقد كان أغلب الدعاة إلى هذه المذاهب بل والمؤسسون لها من اليهود، ومن لم يكن من اليهود فقد روج اليهود لفكره المادي والمنحرف لأن ذلك يوافق ميولهم ويحقق لهم ذواتهم ويرونه طريقا خادما لأفكارهم وأهدافهم فى تدمير البشرية وإبعادها عن ربها وعن مصدر الهداية الإلهية لها حتى يسهل عليهم قيادة الأمم ويركبونها كما تركب الدواب والحمير.

وإذا كان القرآن قد أخبرنا عن سيرة الأقوام السابقين مع أنبيائهم حينما جاءوهم ليربطوهم بخالقهم وينزعوهم من عبادة الأصنام واتخاذ الوسائط من دون الله،

(١) سورة النساء الآيات من رقم ١٥٥ ـ ١٥٨

فإننا نرى ذلك انتزاعا لهم من الركون إلى المادة، فما عبادة الأوثان لذاتها أو عبادتها كوسائط تقرب عابديها إلى الله، ما هذا اللون فى ارتكاس البشر إلا نوع من الارتكاس فى أوحال المادية واحتجاب الرؤية عما وراء هذه المحسوسات من عالم الغيب، ولهذا كانت عبادة الأصنام وغيرها من صور الشرك، كانت لونا من ألوان إخلاد البشر إلى المادة يقول تعالى: ﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**﴾(١).

ففى هذه الآية الكريمة يصفهم المولى عز وجل بأنهم عطلوا آلات الإدراك عندهم وحصروها فى الواقع المحسوس، وكانت غايتهم هى تحقيق المنافع المادية والمتع الحسية، ولهذا نزلوا إلى درك الحيوانية بل أشد لأنهم لم يستشرفوا ما وراء المادة، وظلوا محبوسين فى هذا الإطار المادى النفعى، فخرجوا من إطار الإنسانية السامية إلى إطار الحيوانية الغافلة المحجوبة بإطار المادة الكثيف.

وأما النقطة الثانية: وهى ضرورة دراسة هذه الاتجاهات الفكرية بين أبناء المسلمين.

فإننا نرى ضرورة هذه الدراسة، وضرورة التعرف على هذه الإفرازات البشرية المنحرفة لأنها لم تعد قاصرة على بيئتها بل زحفت إلى البيئة الإسلامية وبدأت تنتشر بين الشباب وفى أوساط المثقفين، ووجد من الكتاب والمفكرين من أبناء المسلمين من يتبناها ويدافع عنها، بل من يقضى عمره كله فى الترويج لها ونشرها وقد رأينا الدكتور زكى نجيب محمود يتبنى المذهب الوضعى ويقضى عمره داعيا له ومروجا له من خلال الكتب والندوات والصحف والمجلات. وكذلك الدكتور عبدالرحمن بدوى الذى تبنى هو الآخر مذهب الوجودية ودافع عنه بشراسة وانتقل بين الجامعات العربية يروج لهذا الفكر فى محاضراته وكتبه ومؤلفاته وما أكثر دعاة العلمانية اليوم فى البيئة الإسلامية وهجومهم الشرس والمستمر على الأصالة الإسلامية والثوابت الإسلامية والشريعة الإسلامية، ويحاولون جاهدين:

(١) سورة الأعراف الآية رقم ١٧٩

إبعاد الدين كلية عن الحياة، وأن تكون مسيرة الحياة وفق العقل والهوى وليست وفق ضوابط الشرع وحكم الله تعالى، ورأينا من يدافع عن الليبرالية ويدعو إلى اندماج المجتمعات الإسلامية فى التيار العالمى الجديد القائم على سياسة النفعية أو البرجماتية، وليس بخاف على أحد ما أحدثه المد الشيوعى الملحد فى الدول الإسلامية والذى استجابت له حكومات كثيرة فى بلاد الإسلام، وقامت بشراسة على حرب الإسلام وإبادة العلماء وتحويل المجتمعات الإسلامية باسم الاشتراكية أو البعثية، أو غيرها من المسميات إلى مجتمعات ملحدة تعمل على إبعاد الإسلام من حياتها كلية، وليس الأمر قاصراً على انتشار المذاهب المادية بل بدأت المذاهب الروحية الضالة هى الأخرى تفرز سمومها فى بلاد المسلمين وقد رأينا مذهب «تحضير الأرواح» ينتشر بسرعة فى البلاد الإسلامية وتؤسس باسمه جمعيات وتصدر باسمه مجلات فيوجد فى مصر الآن عدة جمعيات تتبنى هذا المذهب وتروج له، وتوجد عدة صحف ومجلات تروج لهذا المذهب فضلا عن مجلة «عالم الروح» الخاصة بهذا المذهب، وناهيك عن انتشار ما يسمى بالفلسفة الإشراقية وانتشار الفكر الصوفى الباطنى والمنحرف عن تعاليم الدين فى كثير من بلاد المسلمين.

أقول باختصار: لقد أضحت البيئة الإسلامية ميدانا فسيحا لهذه الاتجاهات المنحرفة وزحفت هذه التيارات الفكرية من الحضارة الغربية إلى بلاد المسلمين وأضحى لها رواج وانتشار، ولهذا كان لازما على علماء الأمة وطلاب العلم أن يتصدوا لهذه الأفكار، وأن يبينوا زيفها ويفندوا أسسها وأن يحموا الأجيال من شرورها، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال دراستها ومعرفة جذورها وبيان أسسها وأهدافها.ودعاتها، ثم الرد عليها وتفنيدها وإبطال مزاعمها التى تكتسى بثوب العلم والعقل وهى أبعد ما تكون عن العلم الصحيح والعقل الراشد والفكر المستنير، لأنها فى جملتها بعيدة عن هدى الله ووحيه المعصوم، ولله در الفاروق عمر بن الخطاب حينما قال: لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

[الجذور الفكرية للاتجاه المادى فى الحضارة الغربية الحديثة]

قبل البدء فى دراسة بعض النماذج الفكرية والحركية على الاتجاه المادى فى الحضارة الغربية الحديثة لابد من بيان المنابع التى استقى منها هذا الاتجاه أو بعبارة أخرى: ماهى العوامل التى ساعدت أو أبرزت هذا الاتجاه المادى فى توجهات الحضارة الغربية الحديثة؟ هذه الجذور أو العوامل التى أفرزت هذا الاتجاه المادى تتلخص فى أمور ثلاثة هى:-

١ - الفكر المادى فى الفلسفة اليونانية

٢ - الموقف الكسنى من رجال النهضة والبحث العلمى.

٣ - المنهج التجريبى المجرد من أيديولوجيته الإسلامية.

وسنتناول بشىء من البسط هذه الجذور الثلاثة حتى تتضح أمامنا النظرة الشمولية لهذا الاتجاه.

أولا: الفكر المادى فى الفلسفة اليونانية

لقد ظهرت النزعة المادية لدى اليونان فى تلك المحاولات التى قام بها الفلاسفة الطبيعيون فى رد الوجود إلى العناصر الأربعة هى: الماء والتراب والهواء والنار ثم تطور هذا الاتجاه المادى على يد الفيلسوف اليونانى «ديمقريطس» فيما يعرف بمذهب الجواهر الفردة.

حيث يرى هذا الفيلسوف أن الموجودات تتألف من جواهر فردة يفصل بينها خلاء، وهى جزئيات مادية غير متناهية العدد وغير قابلة للقسمة بالفعل - وإن قبلتها فى الذهن - وهى تتميز بصفتين هما: الشكل والمقدار، فشكلها مستدير أو مجوف أو محدب.. إلخ ومقدارها متفاوت ولكنه لا يقبل التجزئة، وهى فى حركة دائمة فينشأ من حركتها اجتماع بعضها بالبعض على صور شتى ومن هنا ينشأ كون الأشياء - أى وجودها وتكونها على نحو معين - فإذا انفصلت الجواهر كان فساد الأشياء، أى انحلال الموجودات المادية وإن كانت الجواهر التى يتألف منها الروح والعقل تكون أسرع فى الحركة وأدق فى الشكل من تلك التى تتألف منها الأجسام[1].

وهكذا حصر ديمقريطس الوجود فى تلك الجواهر أو الذرات المادية، وجعل كل شىء فى هذا الوجود مرده إلى المادة وحدها حتى الروح والعقل فهما جوهران ماديان ولايوجد شىء اسمه العقل أو الروح منفصلا عن المادة.

وقد ترك هذا الاتجاه المادى فى الفلسفة اليونانية بصماته فى الفكر الغربى الحديث فجاءت أفكار كثير من الفلاسفة الغربيين ترديداً لما قاله ديمقريطس اليونانى ولم يستطع الفكر الغربى الحديث أن يتخلص من الفلسفة اليونانية التى عاش أسيرا لها حتى قيام النهضة العلمية فى أوروبا على المنهج التجريبى المقتبس من الحضارة

---

(١) أسس الفلسفة ص٨٩

لإسلامية، وإن كانت أوروبا قد استطاعت أن تتخلص من المنهج الأرسطى العقيم الذى يعتمد على القضايا الكلية الذهنية المجردة عن الواقع، فإنها لم تستطع التخلص من بعض الاتجاهات المادية عند اليونان وجاء كلام ماركس وداروين وأوجست كونت ونيتشة وغيرهم، حيث حصر هؤلاء الوجود فى المادة وحدها وقال ماركس: إن المادة خالقة لكل شىء ورفع شعاره المعروف «لا إله والكون مادة» وقال بأزلية المادة وأبديتها وبتبعية العقل للمادة إلى غير ذلك من الأفكار المادية التى سنناقشها فى مواضعها من البحث.

وهكذا كان الاتجاه المادى فى الحضارة الغربية الحديثة ترديداً للاتجاه المادى اليونانى وإحياء له فى صورة فلسفة علمية مادية لا تؤمن إلا بما يخضع للتجربة والحس.

ثانيا: الفساد الكنسى وموقف الكنيسة من رجال النهضة والبحث العلمى:

لقد مكثت أوروبا ردحا طويلا من الزمان تحت سلطان الكنيسة أو بعبارة أدق تحت سلطان الدين الذى صنعه رجال الكنيسة، فالمسيحية الصحيحة قد ذهبت وحلت محلها مسيحية «بولس» ذلك اليهودى الماكر الذى كان من أشد الناس عداء للنصارى، وادعى فى حكاية تمثيلية أن الرب قد ظهر له وعاتبه على معاداته للنصارى، ثم أصبح بعدها رسولاً معلما من قبل الرب، وأدخل فى المسيحية ماليس منها، وأكمل هذا السيناريو فى صياغة المسيحية الجديدة «قسطنطين» ملك الرومان الذى دخل المسيحية بغية اتخاذها شعاراً يوطد به أرجاء دولته، وكانت الحضارة الرومانية ـ كما هو معلوم ـ حضارة وثنية، ورثت فلسفة اليونان الوثنية، وكان مؤتمر «نيقية» الذى عقده قسطنطين سنة ٣٢٥ ميلادية بداية الانحراف الرسمى للمسيحية حيث أُبعد الموحدون، وأبعدت الأناجيل التى تحمل التوحيد الصحيح، واعتمدت الأناجيل التى تحمل المسيحية الملفقة من تعاليم بولس ونزعات الفلاسفة، وتقررت ألوهية الروح القدس ثم تقرر الثالوث بعد ذلك، وكان كل شىء يتم عن طريق المجامع والمؤتمرات، ومن أجل أن تقبل هذه التجديدات أو أن شئت قلت التحريفات: أضفى على رجال الدين صفة العِصْمة والقداسة، فصار كلامهم وتعاليمهم مقدسة، لأنهم ـ على حد زعمهم ـ مؤيدون بالوحى، وأنهم يلهمون هذه التعاليم الجديدة من قبل الرب، وجاء فى نصوص الأناجيل أن الرب قال لبطرس كبير الحواريين: أن كل ما ربطته على الأرض فهو مربوط فى السماء وكل ما أجللته على الأرض فهو محلول فى السماء.

ومن هنا بدأت المسيحية تنتشر بين ربوع أوربا وهى تحمل خليطا من وثنية الرومان وفلسفة اليونان وشطحات القسس والباباوات، ومن أجل أن يكسبوها صفة القداسة كان كل شىء يقرر من قبل المجامع المقدسة، وصار لرجال الكنيسة

العصمة والقداسة[1] وأصبح الكتاب المقدس حكراً عليهم وحدهم وأنهم وحدهم المختصون بمعرفة الاسرار مثل: أسرار التثليث وأسرار العشاء الربانى وأصبحت أمور كثيرة فى المسيحية لاتقبل النقاش وظهرت فى المسيحية طقوس وشعائر، وفرضت ضرائب باسم الكنيسة، وفرضت تعاليم الكنيسة بالقوة، وكان الشعار آنذاك «أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى» فلا شىء يناقش بالعقل، وإنما كل شىء يصدر عن الكنيسة هو مقدس، واتجهت الكنيسة فى تعاليمها وجهة روحية بحتة، وركزت على الدعوة إلى الزهد ومقاومة الجسد، وكبت الغرائز، ولم تصرف عنايتها إلى التقدم واكتشاف سنن الطبيعة من أجل تحسين المعايش للناس، وتواطأت الكنيسة مع رجال الإقطاع وملوك أوروبا، لأنها هى الأخرى أصبحت ـ من خلال الضرائب وصكوك الغفران ـ من أصحاب الأموال بل أصبحت من أكبر الإقطاعيات، ولهذا ظلت الكنيسة حريصة على بقاء الإقطاع، وسخرة العمال فى الإقطاعيات، مقابل مواعظ الزهد، ودعوى العوض لهؤلاء بنعيم الجنة وملكوت الرب فى الآخرة، وإذا كان التحريف قد وقع فى العقيدة من جعل الإله الواحد ثلاثة أقانيم، وتأليه عيسى، وادعاء بنوته لله، وتأليه مريم وروح القدس، واختراع قصة الصلب والفداء وعبادة الصليب والتماثيل.. إلخ، فإنه قد حدث تحريف آخر فى الشريعة وهو لا يقل سوءاً عن الأول. حيث اكتفت الكنيسة بالعقيدة وتركت الشريعة للقانون الرومانى الوثنى، فعزلت بذلك الشريعة عن العقيدة، وزعمت الكنيسة أن السيد المسيح هو الذى قال ذلك «أعطوا مالقيصر لقيصر ومالله لله» وفسرت الكنيسة هذا اللفظ ـ إن صح ـ بأن لها العبادة والشعائر وأن لقانون قيصر الحكم.

---

(١) كما صار لهم سلطان روحى بوصفهم الوسطاء بين الناس وبين الله، وأصبحت حياة المسيحى مرتبطة من بدايتها حتى نهايتها بتلك الكهانة أو الوساطة من القسس ورجال الدين، فالطفل لايعد مسيحيا حتى يعمد والتعميد لا يتم إلا على يد كاهن، وهو الذى يزوجه، وهو الذى يصلى به القداس فى الكنيسة، وهو الذى يقبل اعترافه بخطاياه ويقبل توبته، وهو الذى يصلى عليه يوم وفاته، فالمسيحى مرتبط بهذه الوساطة من مولده حتى وفاته.

وظلت أوروبا ترسخ تحت قيود الكنيسة، قرونا طويلة حتى احتك الأوروبيون بالحضارة الإسلامية تارة حربا ـ فى الحروب الصليبية ـ وتارة سلماً من خلال تلك المنارات الإسلامية على مشارف أوروبا فى حوض البحر المتوسط، حيث المراكز العلمية فى الأندلس وفى صقلية وفى جزر كريت وغيرها.

وقد ألهبت هذه اللقاءات حماس الأوروبيين إلى التخلص من هذا الظلم الكنسى، ومن تلك التعاليم المقدسة التى وضعها رجال الكنيسة، حيث وجد هؤلاء صفاء العقيدة فى الإسلام ونور العلم فى الإسلام وعدم العصمة لأحد من علماء الإسلام، والتكافل الاجتماعى والمعيشى فى الإسلام والعلاقة بين الحاكم والمحكومين وغير ذلك من الجوانب المشرقة فى تعاليم الإسلام وتلك النظم السامية التى سعد فى ظلها المجتمع الإسلامى.

ولذلك قامت الثورات الإصلاحية ضد الكنيسة مثل ثورة «**مارتن لوثر**» وثورة «**كلفن**» وغيرها، وقامت الثورة ضد الإقطاع، وأشعلت الثورة الفرنسية جذوة الحماس ضد هذا النظام البائد الجامد والذى أحكم قبضته لمدة طويلة: رجال الاقطاع بالتواطؤ مع رجال الكنيسة.

ومما زاد فى هذه الاندفاعة الحماسية من أجل التحرر وكسر قيود الظلم والتخلف: ما قررته الكنيسة من تلك الوقفة العدائية لرجال البحث العلمى فى أوروبا، فحينما احتك شباب أوروبا بالحضارة الإسلامية، بهرتهم تلك الحضارة فى علومها وفى أنظمتها وفى أخلاقها، فضلا عن عقيدتها الصافية وتشريعاتها المحكمة، ودائما ـ كما يقول ابن خلدون:ـ بأن حضارة الأقوى تؤثر فى الأضعف ـ فأقبل هؤلاء على اللغة العربية يتعلمونها ويتقنوها لأنها الوسيلة الوحيدة للاستفادة بما فى الحضارة الإسلامية من كنوز، وتأثر بعضهم بالإسلام فدخلوا فيه، ومن هنا انزعجت الكنيسة من هذه النهضة العلمية القادمة من عند المسلمين على يد أبنائهم وشبابهم وكان هذا الانزعاج يرجع إلى أمرين:ـ

الأول: خشية أن يزحف الإسلام على يد هؤلاء إلى أوروبا.

والثانى: خشية أن يضرب الكتاب المقدس وتزول هيبته من النفوس، لما يقدمه هؤلاء الباحثون من نظريات عن الكون والحياة تخالف نصوص التوراة والأناجيل.

لهذين السببين وقفت الكنيسة موقف العداء السافر من رجال النهضة العلمية، وكانت محاكم التفتيش المعروفة، وصدرت أحكام بالهرطقة والردة على كل من يأتى بكشف جديد يخالف نصوص التوراة والأناجيل[1] وحكم على كثير من العلماء بالإعدام شنقا أو حرقا وحرقت كتبهم، وحكم عليهم بالطرد واللعنة من رحمة الكنيسة، وقد سجل التاريخ الأوروبى تلك الصفحات السوداء من بغى الكنيسة واضطادها للنهضة العلمية ورجالها أو بمعنى أدق: ضد العلم المستورد من البلاد الإسلامية، وقد جندت الكنيسة كتّابها لمهاجمة الإسلام وتشويه صورته لدى الأوربيين.

لهذا كان رد الفعل عنيفا من رجال النهضة ورجال البحث العلمى، وقامت الثورات ضد الكنيسة وضد الاقطاع، ودخلت أوروبا عصرا جديداً كان شعاره إبعاد الكنيسة بكل تعاليمها عن مجالات الحياة، ووقف رجال العلم من الكنيسة موقف العداء فمنهم من كفر بالكنيسة وبالدين الذى كانت تمثله، وظهر الإلحاد الصريح فى صورة نظريات وفلسفات علمية مثل الماركسية ومنهم من اكتفى بتحييد الكنيسة عن سياسة الحياة، ولا مانع من أن يبقى الدين مجرد رمز لا أكثر، ودخلت أوروبا عصر النهضة وهى كافرة بالكنيسة وبكل تعاليمها، لأنها هى التى عطلت مسيرة التقدم ردحاً طويلا من الزمان، وظهرت سياسة «**العلمانية**» والتى هى فصل الدين عن الدولة، وحل العقل محل الشرع، ووصف الدين بأنه لا يصلح للتقدم، وأنه عائق لحركة الحياة، وصيغت قوانين الحياة ونظمها وفق مصلحة البشر من منطلق العقل المجرد من الوحى: ووصف الدين فى أوروبا بهذا الوصف هو وصف صائب لأن الدين الذى كانت أوروبا تدين به ليس هو الدين الصحيح وإنما هو دين الكنيسة المؤلف من وثنية الرومان وفلسفة اليونان وشطحات القسس والباباوات،

---

(١) لقد بدأت الزوبعة حينما قال الباحثون بكروية الأرض وأنها ليست مركز الكون، بينما نصوص التوراة تصرح بأن الأرض مسطحة ومستوية، وأنها مركز الكون كما أن الإنسان مركز الوجود، وقد اشتهر من أبطال مقولة كروية الأرض ثلاثة هم: كوبر نيكوس العالم الفلكى البولندى توفى سنة ١٥٤٣م، وجردانو برونو الفيلسوف الإيطالى توفى سنة ١٦٠٠م، وجاليليو العالم الفلكى الإيطالى توفى سنة ١٦٤٢م.

كان دين المجامع والمؤتمرات، وليس دين الله الصحيح الذى جاء به موسى وعيسى عليهما السلام. وكانت المواقف الساخرة من الدين - بهذا الوصف - محقة إلى درجة كبيرة لأن الذى سخروا منه لم يكن فى الحقيقة دينا سماويا، بل كان دينا وثنيا وضعيا، لكن الخسارة الكبرى هى فى قياس الدين الصحيح على ما كان فى أوروبا من دين أو على دين الكنيسة وفرق كبير بين دين صحيح وبين دين منحرف بعيد عن هداية الله ووحيه.

وباسم دين الكنيسة حوكم دين الإسلام الصحيح وزحفت مواقف أوروبا تجاه الدين المسيحى لتلقى بظلالها على الدين الإسلامى، وظهرت العلمانية فى دول الإسلام لتحكم فى غيبة الوحى، مدعية أن الدين عائق عن التقدم ومعطل لمسيرة الحياة، **وبالهول المقارنة** بين تعاليم الإسلام الصحيح الذى ما ترك صغيرة ولا كبيرة من أمر الحياة إلا ونظمها وشرع لها، والذى احتضن العلم من أول آية نزل بها الوحى، والذى واءم بين نوازع الفطرة ومطالب الجسد والروح وأعطى للإنسان تصورات مشرقة عن الكون والحياة والوجود، أقول شتان بين الدين الإسلامى الصحيح وبين الدين الذى صنعته الكنيسة، وقيدت به حركة الناس وحبستهم وسط تعاليم بشرية أضفوا عليها صفة القداسة والعصمة.

لقد كان موقف الكنيسة - كما ذكرنا - مبرراً قويا أمام رجال النهضة الأوربية لينصرفوا عنه ويكفروا بكل ما هو روحى وديني، ويتجهوا أو يتحولوا تحولاً آخر نحو المادية والمادية المفرطة التى صبغوا بها كل شئ فى هذه الحضارة وظهر الاتجاه المادى كسمة للحضارة الغربية الحديثة(١).

ثالثا: المنهج التجريبى مجرداً من أيديولوجيته الإسلامية:

منهج البحث التجريبى: هو المنهج الذى يقوم على المشاهدة والتجربة، فالباحث به يصعد من الجزئيات إلى الكليات، فهو يبدأ بدراسة الحقائق الجزئية ثم يتدرج إلى اكتشاف القوانين العامة التى تحكمها، فأساس هذا المنهج هو المشاهدة

(١) يراجع فى بيان الفساد الكنسى من جميع جوانبه: الدينى والمالى والسياسى والأخلاقى، التمهيد القيم الذى كتبه الأستاذ محمد قطب فى بداية كتابة «مذاهب فكرية معاصرة» من ص٩ - ٧٨ طبعة دار الشروق.

والتجربة، والمشاهدة تعنى تسجيل الظواهر على حالتها وتتبعها فى كل الأحوال والظروف ليرى ما بينها من اضطراد أو اختلاف، وأما التجربة فهى ثمرة المحاولات التى يقوم بها الباحث للتحقق من وجود الشيء أو عدم وجوده، فمن يلاحظ ينصت للطبيعة، ومن يجرب فإنه يستجوبها لتكشف عن نفسها.

وقد وضعت قواعد الاستدلال والاستقراء وتبرمجت على نحو متكامل على يد الإمام الشافعى رضى الله عنه فى كتابة القيم «**الرسالة**» وقد أقام الاستقراء على قانونين: أولهما: قانون العلية، أى: أن لكل معلول علة، وثانيهما: قانون الاضطراد فى وقوع الحوادث، أى أن العلة الواحدة إذا وجدت تحت ظروف متشابهة أنتجت معلولاً متشابها[1].

وقد كانت للمسلمين الريادة فى استخدام هذا المنهج وتطبيقه فى علوم الكون والطبيعة فأثمر أعظم الثمار فى اكتشاف قوانين الطبيعة والاستفادة منها، وما «**جابر بن حيان**» ١٢٣ ـ ١٩٥هـ (٧٤٠ ـ ٨١٠م) وأعماله الكيمائية إلا خير شاهد على استخدام المنهج التجريبى وكذلك ابن الهيثم وهو: أبو على بن محمد البصرى ولد بالبصرة وتوفى بالقاهرة عام ٤١١هـ واكتشافاته المذهلة فى علم الضوء والبصريات وغيرهما من علماء المسلمين الأفذاذ فى الطب والفلك والجغرافيا وسائر العلوم الطبيعية، ما هؤلاء جميعا إلا شواهد صدق على فضل المسلمين وريادتهم فى اكتشاف هذا المنهج وتطبيقاته العملية والتى أنتجت ثمارها اليانعة فى ظل الحضارة الإسلامية.

وقد كان لهذا المنهج التجريبى الفضل الأول فى انبعاث الحضارة العلمية الحديثة فى أوروبا بعد أن نقله «**فرنسيس بيكون**» فى القرن السادس عشر الميلادى إلى أوروبا، وما كان له من فضل سوى إعادة صياغته وتفصيل خطواته، وجاء بعد ذلك «**جون ستورت مل**» المولود سنة ١٨٧٣ ميلادية، فأسهم بشكل كبير فى إكمال النقص الملحوظ فى منهج «**بيكون**» التجريبى وقد أقام قواعد الاستقراء

(١) راجع فى ذلك: مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص٦٥ ـ ٧٠ للدكتور على سامى النشار، طبعة دار المعارف المصرية سنة ١٩٧٨م.

التجريبى على نفس قواعد الاستقراء الأصولى عند المسلمين وهما قانونا العلية والاضطراد فى وقوع الحوادث.

والذى يهمنا بيانه هنا- بعد التعريف بالمنهج التجريبى وبيان الريادة فى تقعيده وتطبيقاته لعلماء المسلمين - هو أن هذا المنهج كان فعلاً أساس انطلاق الحضارة الغربية، وإذا كان علماء النهضة ورجال الثورة فى أوربا قاموا بحملتهم ضد السلطة الدينية الممثلة فى رجال الكنيسة، فإنهم كذلك قاموا بثورة على السلطة العلمية الممثلة فى منطق أرسطو، وبدأ العلماء هجومهم على هذا المنطق الأرسطى الذى ظلت أوربا عدة قو،م حبيسة لقوانينه وقواعده الصورية، واعتبروه المسئول عن تأخر النهضة وركود الفكر الغربى هذه المدة الطويلة من عصور الظلام، حيث إن المنهج الأرسطى يقوم على الفكر المجرد، ومباحثه صورية، ونتائجه ذهنية بحتة، فمهمته مقصورة علي الانتقال من مقدمات معلومة إلى نتائج مجهولة دون النظر إلى صحة هذه المقدمات وصدق ما تتضمنه من معلومات، وهو بهذا يعتبر عقيما مجدباً لا يكشف جديداً، وإذا كان أرسطو قد حصر العلم فى الكليات، وقال بأن العلم الجزئى ليس علماً على الإطلاق، وإنما العلم الحقيقى هو العلم الكلى اليقينى، وأن العلم اليقينى يكون فى الأذهان لا فى الأعيان فإنه بذلك قد ابتعد عن التجربة ولم يقم لها وزناً، وأصبحت نتائجة صورية بعيدة عن الواقع.

وقد فطن علماء المسلمين إلى قصور المنهج الأرسطى، وقاموا بنقده، وقضوا على أسطورة «القوانين الكلية العاصمة للذهن من الخطأ» وانبرى «ابن تيمية» رحمه الله لنقد منطق أرسطو مبينا أن الكليات التى يدعيها المنطق الأرسطى ويعتبرها العلم اليقينى، لا تكون إلا فى الأذهان، وهى غير موجودة فى الواقع، وأثبت ابن تيمية أن القضية التجريبية هى أساس القضية الكلية بل هى الحقيقة الوحيدة المؤكدة لأنها محسوسة مشاهدة، يقول ابن تيمية: إننا لن نصل إلى القضية الكلية «كل نار محرقة» بدون التجربة والعادة وأصدق القضايا نتائج هى التى تعتمد علي التجربة وهى القضايا الجزئية، والقضايا الحسية لا تكون إلا جزئية، فنحن لو لم ندرك بالحس إحراق هذه النار وهذه النار . . لم ندرك أن

«كل نار محرقة» ومن هنا تكون الجزيئات المعينة القائمة على الحس هى الحقائق الوحيدة المتحققة فى الأعيان، وأن الكليات لا توجد إلا فى الأذهان، وأن مصدر العلم وطريقه هو التجربة فى العلوم الطبيعية.

ومن ذلك تظهر لنا حقيقتان: الأولى: اكتشاف المنهج التجريبى على أيدى المسلمين، والثانية: بيان قصور المنهج الأرسطى ونقده واكتشاف المسلمين بأنه منهج عقيم لا يصلح للتقدم والعمران، وقد اكتشف علماء أوروبا بعد فترة طويلة قصور المنهج الأرسطى الذى ظل فترة طويلة هو منهج البحث فى الغرب، واكتشفوا المنهج التجريبى لدى المسلمين، فنقلوه وطبقوه فى بحوثهم فأثمر معهم هذه الحضارة العلمية الرائعة في علوم الطبيعة والكون.

لكن الذى يجب أن ننبه إليه هو أن أوربا أخذت المنهج التجريبى مجرداً من أيديولوجيته الإسلامية، أخذوا المنهج بدون قاعدته الأساسية وهى الإسلام، فطاروا به على جناح واحد وهو جناح المادية المفرطة، وتركوا الجناح الآخر - حقداً وعصبية - وهو الإسلام وقواعده الأخلاقية والتشريعية المتوازنة، فتحقق لهم نجاح هائل فى العلوم الكونية، وأخفقوا إخفاقاً كبيراً فى جوانبها الروحية العظيمة، روح الإسلام التى تعطى الحضارة اتزانا وأصالة وصدق الله العظيم: **﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾** (١)

وهكذا كان المنهج التجريبى الذى نقلوه عن المسلمين سبباً فى النهضة العلمية التى فتنوا بها فاعتبروها كل شئ ولا شئ بعدها، وقصروا العلم علي العلم المادى، وأن العلم الصحيح هو الذى يخضع للتجربة ومالا يخضع للتجربة فليس بعلم علي الإطلاق، وفاتهم أيديولوجية هذا المنهج كما كان فى بيئته الإسلامية: من ربط كل شئ فى نظام هذا الكون بخالقه العظيم الذى أحسن كل شئ خلقه، وما أن يتقدم العلم التجريبى خطوة فيكشف عن شئ من سنن هذا الكون إلا ونطق اللسان بالتسبيح لخالقه، واهتز القلب بالخشوع لبارئه، وذرفت الأعين دموع الشكر

١) سورة الروم الآية رقم ٧

للذى خلق وسخر وفتح أبواب المعرفة لذلك العقل المحدود؛ ومما ينبغى معرفته لطلاب العلم فى مسألة ربط العلم الطبيعى بالإيمان لدى علماء المسلمين التجريبيين هذه الحقائق:

١ - أن جابر بن حيان الكيميائى المشهور كان يسمى «جابر الصوفى» لكثرة زهده ونسكه.

٢ - أن الخوارزمى مبتكر علم الجبر إنما وصل إليه وهو يؤلف رسالة فى فقه الوصايا والفرائض.

٣ - أن ابن رشد الحفيد الفقيه المعروف صاحب كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» كان صاحب كتاب «الكليات» فى الطب والذى تتلمذت عليه أوروبا عدة قرون.

٤ - أن الفخر الرازى صاحب التفسير الكبير وصاحب الكتب الكثيرة فى علم أصول الفقه كان من أشهر الأطباء فى زمانه.

٥ - أن ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى وأول من أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية كان أحد فقهاء الشافعية الكبار [١].

وهكذا: رأينا كيف تآزرت الجذور الثلاثة السابقة: الفكر المادى اليونانى، والفساد الكنسى فى جميع نواحيه - خاصة - فى مصادرته العقل وحرمانه من التفكير بحجة أن تشريعات الكنيسة وتعاليمها لا تقبل النقاش لأنها مقدسة ولها العصمة، هذا فوق الوقفة الشرسة ضد النهضة العلمية ورجالها، ثم كان المنهج التجريبى الذى كان سببا فى النهضة العلمية فى أوروبا، والذى أخذوه من البيئه الإسلامية مجرداً عن أيديولوجيته الإسلامية ففتنوا به أعظم فتنة، وأصبح العلم معبودهم، وأصبحت التجربة هى العلم دون سواها فتنكروا للوحى ولكل ما هو

١) مجلة المجتمع عدد ١٠٩٣ بتاريخ ١٧ شوال سنة ١٤١٤هـ من مقال للدكتور: يوسف القرضاوى.

غيبى، وطارت الحـضارة الغربية بهذا المنـهج على جناح واحد، فكانـت حضارتها مادية ، وأخفقت إخفـاقاً ذريعاً فى الجوانب الروحية الإيمانيـة أقول: لقد ساعدت هذه العوامل الـثلاثة مع نفسية الغرب المـتأزمة فى هذه الفترة من الديـن الكنسى، فكانت فترة تحول صعبة أو إن شئت قلت: فترة مخاض عصيبة ولدت فيها الحضارة الغربية الحديثة مولية وجهها كله نحو المادية المفرطة، معرضة كل الإعراض عن أية روحية حتى ولو كانت الروحية الصحيحة، ويا للخسارة !!!!.

دراسة بعض النماذج على الاتجاه المادى

أولا: الوجودية:

وتتضمن الدراسة النقاط الآتية:

١ - التعريف بها وما تحمله من أفكار ومعتقدات.

٢ - أشهر المؤسسين لها والدعاة إليها.

٣ - مواطن انتشارها ومواقع نفوذها.

٤ - مناقشتها وبيان آثارها المدمرة على الفرد والمجتمع.

١ - "التعريف والأفكار"

الوجودية هى: تيار فلسفى يهتم بإبراز الوجود الفردى للإنسان ويعلى من قيمته ويجعله صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار بحيث لا يحتاج إلى موجه، وعليه أن يحطم كل القيود التى فرضها الدين على سلوكه وكذلك القانون والعرف والتقاليد، لأن هذه الأمور تحول دون تحقيق ذاته وإشباع رغباته.

فهى اتجاه يحصر وجود الإنسان فى جانبه المادى فقط، ويسعى جاهداً لتكسير كل القيود التى تضبط سلوكه وتهذب غرائزه، إنها فى الحقيقة دعوة إلى التمردّ، تمرّد الإنسان على خالقه، وتمرده على مجتمعه، وتمرده على القيم والأعراف التى درج عليها الناس، إنها دعوة تمرّد على كل نداء يأتى من خارج النفس مهما كان مصدره ومهما كانت أهميته فى ضبط السلوك الإنسانى.

يقول زعيمها المشهور "جان بول سارتر" الوجودية هى طاعة النفس، والوجودى فى مذهبه هو الذى لا يقبل توجيها يأتى إليه من الخارج، وإنما يكتشف نفسه بنفسه ، ويصنع عالمه بنفسه ويقول: إن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذاته إلا بإطلاق العنان لرغباته وشهواته، بحيث يفعل ما يشاء ويترك ما يريد، ولا يبالى بالعرف أو الدين .

ويقول: إن من لا يستمع إلينا ولا يقبل حرية إطلاق النفس من قيودها إنما هو جبان [1].

الوجودية من هذا المنطلق: تكفر بالله ورسله وكتبه وتنكر كل الغيبات وكل ما جاءت به الأديان وتعتبرها عوائق أمام الإنسان فى تحقيق طموحاته، فهى تتبنى الإلحاد مذهباً ولا تؤمن إلا بالوجود الإنسانى وتتخذه منطلقاً لها.

إن الإنسان هو قضيتها، وعليهم أن يحرروه من كل قيد، ويجب أن يتمتع بحريته المطلقة، وأن يثبت وجوده كما يشاء وبأى وجه يريد، وعليه أن يطرح كل القيود مهما كان مصدرها، وأن يتحلل من كل القيم، لأنه ليس من حق أحد أن يفرض قيمة أو خلقاً على أحد ، وإنما كل إنسان يصنع قيمه بنفسه وعلى حسب ما فيه مصلحته وتحقيق ذاته ، فالقيم نفعية ومقياسها مصلحة الفرد فقط.

الوجودية بين الإيمان والإلحاد: يرى البعض أن الوجودية ليست كلها ملحدة وإنما هى اتجاه واسع ينتمى إليه المؤمنون والملحدون، وقد قسّمها البعض إلى مدرستين: واحدة مؤمنة، والأخرى ملحدة. وليس بينهما من وحدة فكرية مشتركة سوى إنصاف «الشخصية الإنسانية» أو إنصاف الفرد فى مقابل المجموع الذى اهتمت به كثير من الفلسفات وضحّت من أجله بالفرد، كالشيوعية وغيرها.

والتعقيب على هذا الكلام فى نقطتين:

الأولى : أن الوجودية المتداولة علي الألسنة والتى اشتهرت وذاعت آراؤها هى الوجودية التى نادي بها «سارتر» وهى قائمة على الإلحاد، وهى المقصودة عند الإطلاق.

الثانية: أن دعوى الإيمان عند بعض الوجوديين فهمت على غير حقيقتها فهم مؤمنون بالنفس دون سواها، فالمؤمن الوجودى هو الذى يؤمن بنفسه ويكفر بالله، إنه لا يؤمن إلا بما يقع عليه الحس، وما لا يقع تحت سمعه وبصره فهو غير موجود، ولهذا كان السمت الحقيقى للوجودية هو الإلحاد [2].

---

١) انظر فى هذه الأقوال صفحة ٢١٠، ٢١١ من كتاب المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها للدكتور عبد الرحمن عميرة طبعة دار اللواء بالرياض سنة ١٩٨٤..

٢) راجع الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٥٤٤ إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامى بالرياض سنة ١٩٧٢م.

٢ - أشهر المؤسسين للوجودية وأبرز دعاتها

إن كون الإنسان هو المشكلة الأساسية الـتى يجب أن يكون لها أولوية الصدارة فى الفـكر الإنسانى، هـى مسألة قديمة فـى الفكر البـشرى حتى وجدنـا «سقراط» يعارض فلاسفـة اليونان الذين يوجهون كـل اهتمامهم فى البـحث عن أصل المادة وبيان طبيعة الكون، ويقول يجب أن نهتم بدراسة النفس، ووضع قاعدته المشهورة «اعرف نفسـك بنفسك» وظهرت فلـسفات كثيرة لعـلاج هذه المشكلة لكنـها ضلت الطريق حينما رأت أن تحقيق الذات الإنسانـية وأن حلّ مشكلاتها يكمن فى إطلاق القيود لها وإعطائها الحرية المطلقة فى تصرفاتها مثلما تبنّت «المزدكية» فكرة الإباحية المطلـقة أمام الإنسـان، فأحلت لـه النساء والأمـوال، وجعلت الـناس شركة فـيها كاشتراكهـم فى الماء والنار والكلاء، حتى جـاء عصر النهضة، وتخـلص فيه رجال الفكر مـن سلطان الكنيـسة ومن قيود الدين، وبـدأ اهتمامهم بهـذا الإنسان الذى عانى كـثيرا من قيـود الكنيـسة باسم الديـن. ومن أشهر الذيـن اهتموا بـالوجود الإنسانى وكانوا وراء إبراز المذهب الوجودى أو «الوجودية» هم:

١ - **بسكال بليز:** وهو مـفكر فـرنسى ولد عـام ١٦٢٣م حيث رفـض أصول مذهب «ديكارت» الـذى عنى فيه عناية خاصـة بالعلم وتعمق في مـوضوعاته ولم يهتم بمصير الإنسان ولا حياته فبدأ بسكال يوجه اهتمامه بالوجود الإنسانى وكان له فضل رسم الخطوط العريضة، ووضع المعالم الأولى للوجودية الحديثة.

٢ - **سورين كيـر كجورد:** ولد عام ١٨١٣م وهـو دانمركى الجنـسية، ويعـتبره رجال الفكر فى الغرب الأب الرسمى لمدرسـة الوجودية، حيث هاجم «هيجل» فى نظرية «المـطلق» وعارضها بـالوجود المطلق، ويـقصد به الوجود الإنـسانى، ومن أشهر مؤلفاته: رهبة واضطراب.

٣ - **ترديف:** وهو روسى الجـنسية، شـهد أزمة القيـصرية فى روسـيا وأزمة الشيوعية وشاهد الـكثيرين يقدمون إلى المقصلة بلا محـاكمة، ورأى كيف يضحى بالفرد من أجل النظام أو المجموع، فهاله ما رأى فكانت دعوته إلى الاهتمام بالفرد وتحريره من كل الـقيود ويعد «بيرديائـيف» و «شيستوف» و «سولوفـييف» من أبرز

الشخصيات الروسية التى نادت بالوجودية للعمل على تحقيق الوجود الفردى الذى سحقته الشيوعية من أجل المجموع.

٤ - **جان بول سارتر**: ولد فى باريس عام ١٩٠٥م وقد ذاعت شهرته وارتبط اسمه بالوجودية ويعتبرونه فى الغرب «أبو الوجودية» وهو فى الحقيقة ليس له من فضل فى تأسيس الوجودية، وإنما له بحق مغبة انتشارها والترويج لها بين جماهير لا تندرج تحت حصر، وهو ملحد، ويناصر الصهيونية ، وقد روّج اليهود لفكره، وعملوا على نشر كتبه وترجمتها إلى عدة لغات حتى تروج أفكار الوجودية الهدامة الملحدة بين سائر الشعوب وفى جميع بلدان أوروبا وأمريكا، ومن أشهر كتبه التى تمثل مذهبه: الوجودية مذهب إنسانى، الوجود والعدم، الغثيان، الذباب، الباب المغلق.

وقد رشحه اليهود لجائزة «نوبيل» لكنه رفض استلامها، وكل ذلك من باب الدعاية التى يتقنها اليهود ويملكون زمامها، حتى تروج أفكاره، وينتشر مذهبه، ويصبح سارتر حديث الجماهير.

وقد أقام أذنابه وتلامذته الدنيا وأقعدوها، حول هذ الحادث واتخذوا منه دعاية لنزاهة زعيمهم وترفعه عن عرض الدنيا والمنفعة الشخصية .

٣ - «مواطن الانتشار ومواقع النفوذ»

لقد ظهرت الوجودية الحديثة فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، ثم انتشرت فى فرنسا وإيطاليا وغيرهما من دول أوروبا وأمريكا وقد ساعد على انتشارها أمران:

الأول: الكفر بالكنيسة وبالدين، تلك الكنيسة التى أباحت لهم ارتكاب المعاصى باسم الدين، وغفرتها لهم بصكوك الغفران، ذلك الدين الذى حصر وجود الإنسان فى الرهبنة وصادر جسدة وغرائزه باسم التقرب إلى ملكوت الرب.

الثانى: الحرب العالمية الثانية وآثارها المدمرة على كل شئ فى الحياة، حيث هُدّمت المدن، وشُردت الأسر، وذهب كل شئ: المال، والأولاد، والزوجات،

والوظائف، وتركت الحرب الناس فى أوروبا صرعى يترنحون من هول ما حدث، نفوسهم ممزقة، وعقائدهم منهارة، والقيم عندهم قد تلاشت، حيث ذهب كل شئ ولم يبق شئ يأسون عليه، في هذا الفراغ النفسى، ووسط هذا السخط ، وفى تلك الظروف الصعبة، خرجت الوجودية الملحدة، تنادى على الناس أن هبوا من غفلتكم وتعالوا إلى عالمنا فستجدون فيه كل العوض، ستجدون الجنس مباحاً بلا قيود، ستجدون الحرية المطلقة بلا قانون ولا عرف ولا دين، افعلوا ما يحلوا لكم ولا تأسوا على شئ ولا تبالوا بشئ، فكل شئ مباح.

ولاقت الدعوة قبولاً بين المراهقين والمراهقات، وانطلقت النفس من جماحها بعد أن زينت لها الوجودية هذا الشرود باسم فلسفة أو باسم مذهب علمى من أجل وجود الإنسان وتحقيق ذاتيته التى أفقدتها الحرب، وأفقدتها الأنظمة الحاكمة بقوانينها وقيودها.

وزحفت الوجودية على أوروبا تأكل الأخضر واليابس، وتقدم الأعراض لمن يرغب بلا حرج وما أعذبها من دعوة لذلك الشباب الذى يفقد الحصانة والقدوة، وقد وجد أمامه الطريق مفتوحاً بصورة رسمية على يد «سارتر» ومذهبه الوجودى فوقع فى أوحال الرذيلة ظانا أنه يحقق ذاته، ويا للأسف إنه فقد ذاته إلى الأبد.

وإذا كنا نندهش لهول الكارثة فى أوروبا وأمريكا بسبب هذا المذهب الوجودى، فإن الذى يفزعنا حقا هو امتداد هذا الفكر الإلحادى المدمر إلى بيئتنا الإسلامية، فقد عمل اليهود علي ترويجه فى كل بلاد العالم، وركزوا على البلاد الإسلامية، فاستقطبوا الكتاب والمفكرين، واستأجروا بعض الصحف والمجلات، لتنشر هذه السموم بين شبابنا وفتياتنا، وساهمت وسائل الإعلام عن قصد أو غير قصد فى الترويج للأفلام الهابطة والمسرحيات الخبيثة، ونشر الصور العارية، وطرح الأفكار التحرريّة عن الجنس وعن العلاقات الجنسية، وغير ذلك من الخروج على القوانين الإسلامية والدعوة إلى التحرريّة من قيود الدين والعرف ورأينا الدكتور عبد الرحمن بدوى يفنى عمره فى الدفاع عن الوجودية والترويج لها فى محاضراته

وفى مؤلفاتـه، وهو فيلسوف وجودى متأثـر بفلسفة «هيدجـر» الألمانى، ومن أبرز مؤلفاته فى الدعوة إلى الوجودية «الأمان الوجودى».

٤ - "مناقشة الوجودية وبيان آثارها المدمرة"

إذا كانت الـدعوة التى انـطلقت مـنها الوجـودية هى تحقـيق الوجود الإنـسانى وإعلاء قيمة الـفرد فهل تحقيق هذا الهدف يـكون بتحويله إلى حيـوان ليس له من هدف إلا تحقيق غرائزه وإشباع رغباته الجامحة بلا ضوابط؟

وهل أخطاء الكـنيسة وقيود الدين التى ابـتدعها رجال الكنيسة، يـكون علاجها بالكفر بالدين جملة، وإنكار كل ما هو دينى وكل ما غيبى؟

وهل أخطـاء الساسة والحكام وشـره التسلط والـزعامة عندهم- والـذى أبرزته الحرب العالمية - يكون علاجها بهدم القـوانين والأعراف والقيم التى تضبط سلوك الفرد والجماعة؟

وهل الـتمزق النـفسى يكـون علاجه بتـحطيم الـنفس أم بإصـلاح الخلل فيـها وتصويب مسيرتها ونظرتها إلى الحياة؟

فى الحقيقة: نحن لا ننكر أنه كانت فى أوروبـا قبل عصر النهضة مشكلة - بل مأساة - إنسـانية شارك فيها الإقـطاع بقوانينه الجـائرة التى أفقدت الإنسـان ذاتيته، وشاركت فيها الكـنيسة التى صادرت غرائز الإنسان ، وصادرت فـكره وتركته أسير تعاليم وقيود ما أنزل الله بها من سلطان.

وكان فى أوروبا .... وكان .... وكان .....

لكن هل العلاج يكون على هذا النحـو الذى قالت به الوجودية فتخرج الإنسان من جحيم لتوقع به فى جحيم أشد؟

ولنا أن نسأل هؤلاء: هل الإنسان يعيش بمفرده أم يعيش مع جماعة؟

إن تعاليم الوجوديـة هى خرق لأبسط قوانين الاجتماع فلا يمكـن أن تستقر حياة الأمم والجماعات إلا في ظل قوانين وضوابط تحكم تصرفاتها وسلوكها وإلا انقلبت

حياة البشر إلى حياة الغابة، والقوى يأكل فيها الضعيف، وكل شئ مباح أمام الإنسان ما دام يقدر عليه بصرف النظر عن حقوق الآخرين.

ولهذا فقد هاجم علماء الاجتماع والتاريخ الوجودية واعتبروها نظرة شاذة ليس عليها دليل علمى وأن فكرهم يتسم بالانطوائية الاجتماعية والانهزامية فى مواجهة المشكلات المتنوعة.

ثم للننظر: هل الضوابط الأخلاقية والدينية قيود على حركة الإنسان ، وهل هى عائقة له عن تحقيق ذاته أو وجوده؟ إن هذه الضوابط فى الحقيقة: حماية للإنسان وصيانة له ولغيره، فحينما يمنعك الدين من هتك عرض الآخرين، فقد منع الآخرين أيضا من هتك عرضك، وحينما يمنعك من السرقة لمال الآخرين، فقد منع الآخرين أيضاً من سرقة مالك وهكذا . . . . فالضوابط هى لحماية الفرد أولا، وليست هى قيود لتدميره كما يراها الوجوديون الملحدون.

ثم ما الفرق بين الإنسان والحيوان إذن؟ إذا كان الحيوان تحكمه الغريزة فقط فهل ننزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوانية ونلغى عقله الذى ميزه الله به، ونجعله محكوما في تصرفاته بالغريزة فقط؟

لقد انطلقت الغرائز فى الإنسان بعد هذه الدعوة إلى درجة فاقت الحيوان، وفقد الإنسان صوابه وإنسانيته، ورأينا من يذهب إلى الكونجرس الأمريكى ومعه «بغلة» يريد تشريعاً من الكونجرس يبيح له الزواج منها، ورأينا من يخلع ثوبه ويمشى عاريا ، ورأينا ظهور «الهيبز» و «الخنافس» فى أوربا وأمريكا، ورأينا . . . ورأينا . . . . مالا يصدقه عقل من هذا الشذوذ، فضلا عن تقطع العلاقات الإنسانية وصلة الأرحام حتى إن الأم تعيش وحدها وتموت وحدها لا يعرف الابن عنها شيئا إلا إذا أخطر بالميراث.

فهل هذه الإباحية، وذلك التمرد على العرف والقانون، والخروج على تعاليم الدين هو الذى يحقق ذاتية الإنسان ويحقق وجوده.

والله لقد رأينا فى عالم الحيوان ما هو أشد حياءً من هؤلاء الهمج، فبعض الحيوانات كالإبل لا تأتى العشار إلا في ستر ، وبعض الحيوانات كالخيل والحمير لا تلد إل فى ستر وخلوة، وبعض الحيوانات لهى أشد تعطفاً علي أقاربها وأولادها من هؤلاء الذين قطعوا أرحامهم وانعزلوا عن آبائهم وأمهاتهم فلا يأبهون لهم ولا يعرفون عنهم شيئاً حتى يأتيهم الموت.

لقد اهتم الإسلام بالنفس البشرية، وشخص أمراضها ووضع لها علاجها، فهناك النفس الأمارة بالسوء، وهناك النفس اللوّامة، وهناك النفس المطمئنة، والنفس الراضية والنفس المرضية والنفس الكاملة. ولا شئ يحقق السعادة للإنسان، ويشعره بذاته حقاً إلا باطمئنان النفس إلي خالقها، ورضاها عنه وعن تعاليمه ومنهجه التشريعى الذى ضبط به حركة السلوك، بل ضبط به نوايا الإنسان وباطنه مثلما ربط به سلوكه، وجعل تحقيق الذات فى انسجام الإنسان مع نفسه، نعم مع نفسه الفاضلة التي هى الفطرة النقية التى فطر الله النفس عليها: ﴿**فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ ولا يمكن أن تتحقق ذات الإنسان إلا فى ظل هذا الانسجام مع الفطرة، ومع تعاليم الدين التى جعلها الله قوام الحياة، بما تتضمنه من عقيدة صحيحة: تربط الإنسان بخالقه، ومن شرائع: ترسم له طريق حياته، وتنظم له سائر شأنه فى اعتدال وتوازن بلا إفراط ولا تفريط، فتعطى للروح حقها وللجسد حقه، ومن قيم أخلاقية وقواعد للسلوك الإنسانى: تضبط سلوكه مع الاخرين، فلا ظلم، ولا غش ولا خيانة، وإنما عدل وخير ووفاء وإحسان، ورحمة ورفق مع الآخرين.

إنها باختصار : توجيهات الوحى التى ترتقى بالإنسان، وتحقق له ذاته، وتكفل له السعادة والانسجام مع نفسه ومع مجتمعه، وتهذب من غرائزه، وتحلّ مشاكله وتحقق له سعادة الدنيا والآخرة.

ولنقرأ معاً مقطعاً واحداً من كتاب الله - وهو غيض من فيض - لندرك الطريق السوى إلى سمو الإسنان وارتقائه في تحقيق ذاته وفى انسجامه مع نفسه ومع

الآخرين: يقول تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا. ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً. وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا. وإما تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسورا. ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً. إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعبادة خبيراً بصيرا. ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيرا. ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا. ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لولية سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا. وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا. ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا. ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها. ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً﴾.[1].

١) سورة الإسراء من الآية ٢٣ - ٣٩.

النموذج الثانى : [الوضعية]

الحديث عن الوضعية باعتبارها نموذجاً علي الاتجاه المادى فى الحضارة الغربية الحديثة يتضمن عدة نقاط هي:

١ - التعريف بها وما تحمله من أفكار ومعتقدات.

٢ - القول بنسبية المعرفة والتأريخ لأدوار العقل البشرى فى صلته بالكون عند أوجست كونت.

٣ - الوضعية المنطقية المعاصرة ونظرية "التحليل اللغوى"

٤ - الرد على الوضعية ومناقشتها.

أولا: التعريف بالوضعية:

الوضعية هى مذهب يقوم على دراسة الواقع المادى المحسوس باستخدام المنهج التجريبى، ويرى أصحاب الوضعية أن الوجود الحقيقى هو فى الواقع المادى المحسوس، وينكرون ما وراءه، ويرون أن البحث فى الغيبيات إنما هو عبث ولغو ولا فائدة من ورائه ويتهمون من يبحث فيما وراء الطبيعة بأنه يضيع وقته فيما لا فائدة منه وأنه لن يخرج بنتائج سليمة، لأن المنهج السليم في المعرفة هو المنهج التجريبي دون سواه.

ويشبّه «وليم جيمس» المولود سنة ١٩١٠م - الذى يبحث فيما وراء الطبيعة مثله مثل أعمى يبحث فى حجرة مظلمة عن قطة سوداء لا وجود لها.

ويقول : "أوجست كونت" المولود سنة ١٨٥٧م - إمام هذا المذهب وواضع اسمه - إن رجل الدين الذى يحدّث الناس عن الغيب لهو أشبه بذلك المهرّج الذى يصعد على خشبه المسرح ليضحك الناس بينما بطونهم تئن من الجوع .

وعلى ذلك فالمذهب الوضعى: يستبعد كل تفكير ميتافيزيقى، ويستبعد البحث فى الغايات والعلل الأولى ، ولم يعترف بغير الواقع المحسوس يعالجه بمنهج البحث التجريبى ويرى «اوجست كونت» أن هدفه واضح وهو تحقيق النفع للإنسان، وذلك فى البحث فيما يفيده ويعود عليه بالنفع، ولن يكون ذلك إلا بصرف

الاهتمام إلى الطبيعة والبحث عن كيفية حدوث الأشياء من أجل التوصل إلى القوانين التى تحكمها، فيسهل بعد معرفة هذه القوانين تسخير الطبيعة فى خدمة الإنسان وتحقيق كل ما يحتاجه، ولهذا يقول: إن الوضعية أقرت دينا جديداً إلهه الإنسانية. ويحمل الوضعيون على الفلسفة ويقولون إن مباحثها لا تخرج عن نطاق الجدل والمناقشة وإنها لم تصل إلى حل نهائى لمشكلة ما، وأنها قد استنفدت موضوعاتها وافتقدت ما يبرر وجودها، ولا يعترف الوضعيون بالعلوم التى تستخدم المنهج الاستنباطى ويقولون: «إن العلوم المعيارية والعلوم الإنسانية غير صحيحة، لأنها تعتمد على العقل النظرى الذى يقيم تفكيره على الأوليات التى تسبق كل تجربة، وهذا منهج يعجز فيه العقل عن الوصول إلى معارف صحيحة، فقد لاحظنا أن كل شئ وراء المعرفة الوضعية التجريبية ليس فى مقدور العقل البشرى أن يدركه، لأن مجال التفكير العقلى الصحيح إنما هو فى الحقائق وقوانينها والظواهر والعلاقات الثابتة التى ترتبط بعضها ببعض [1]

ثانياً: دعوى نسبية المعرفة والاستشهاد عليها بمراحل العقل فى علاقته بالكون:

يرى الوضعيون : أن البحث فى موضوع «المطلق» لا طائل من ورائه، لأنه لا توجد معارف كلية مطلقة، وإنما المعارف جزئية وهى متطورة وتختلف من عصر إلى عصر ويدلّلون على نسبية المعرفة بالتأريخ للعقل البشرى فى علاقته بالكون، حيث يرى «أوجست كونت» أن العقل مرّ بمراحل ثلاث وهى:

المرحلة الأولى :مرحلة الطفولة العقلية: حيث كان تفسير الإنسان لما يحدث فى الطبيعة تفسيراً يقوم على الخيال والوهم، لأن العقل كان يرد حدوث الأشياء إلى أسباب خفية خارجة عن الطبيعة كالآلهة والشياطين. وأن بحث العقل فى هذا الدور كان فى كنه الموجودات وأصلها ومصيرها، وابتعد الإنسان فى هذه المرحلة عن البحث فى كيفية حدوث الأشياء واكتفى بردها إلى القوى الخفية وسمى «أوجست كونت» هذه المرحلة «بالدور اللاهوتى» حيث ظهرت فى هذه المرحلة سلطة الكهنة ورجال الدين.

---

١) أسس الفلسفة ص ٩٩ بتصرف مرجع سابق.

المرحلة الثانية: مرحلة المراهقة العقلية، حيث ارتقى العقل فى تفسيره لظواهر الطبيعة فردها إلى علل مجردة فى ذوات الأشياء، وليست خارجة عنها ، صحيح إن العقل فى هذه المرحلة الثانية كان لا يزال فى علاقته بالكون والطبيعة يبحث عن كنه الموجودات وأصلها ومصيرها، إلا إنه ترقى مرحلة حيث ابتعد فى تفسيره عن القوة الخفية الخارجة عن الطبيعة، وردها إلي معان مجردة كقانون العلّية والاضطراد، وغيرها من القوانين العقلية المجردة، وهو بهذا قد خالف الدور اللاهوتى حيث أحلّ المجردّ مكان المشخص، ووضع الاستدلال مكان الخيال.

المرحلة الثالثة: وهى مرحلة النضج العقلى: حيث بدأ العقل فى التفسير الموضوعى لحدوث الأشياء، وابتعد عن الطريقتين السابقتين [طريقة الخيال وطريقة الاستدلال العقلى المجرد] واستخدم طريقة البحث التجريبى، وترك البحث عن أصل الكون ومصيره وعلله الخفية، وبدأ يهتم بالقوانين التى تربط الظواهر الكونية، ويقيم معرفته على أساس من المشاهدة والتجريب، وبدأ يهتم بكيفية حدوث الأشياء، من أجل الوصول إلى القوانين التى تحكمها.

واعتبر «أوجست كونت» أن هذه المرحلة ـ مرحلة التعامل مع الواقع المادى المحسوس ـ هى قمة التفكير العقلى، وهى أنضج مرحلة وصل فيها العقل الإنسانى على مر التاريخ فى نظرته إلى الكون وعلاقته به. حيث ثبت ذلك وشهد تاريخ الفكر الانسانى.

أنّ المسائل التى كانت تعالج بالطريقة اللاهوتية وبالطريقة العقلية المجردة لم تقدم جديداً فى كشف هذا الكون ومعرفة قوانينه وإنما كانت مجرد كلام في كلام لا فائدة من ورائه. وهو بهذا جعل العلم الوضعى آخر مرحلة مرّ بها العقل البشرى فى تطوره إلى الكمال، وأن هذا هو العلم الصحيح، وكل موضوع لا يعالج بالمشاهدة والتجربة لا يدخل في نطاق العلم ويرى «أوجست كونت» أنه بهذا قد هدم فكرة المطلق فى المعرفة واثبت - بشهادة التأريخ للعقل الإنسانى ومروره بتلك المراحل الثلاث - أن المعرفة نسبية.

ثالثاً : الوضعية المنطقية الحديثة ونظرية "التحليل اللغوى"

الوضعية المنطقية الحديثة هى امتداد لفلسفة «أوجست كونت» فى رفض ما بعد الطبيعة وتوجيه الاهتمام فقط إلى العالم المادى المحسوس، وهى ترفض كل تفكير خارج عن التجربة، ويدعى أصحابها أنها - أى الوضعية المنطقية - فلسفة علمية ترفض النظر الميتافيزيقى ومناهجه، وتجعل العلم الصادق فى العلوم التجريبية والرياضية فقط. والوضعية المنطقية لا ترى غير موجودات حسية موجودة فى الواقع ، واعتبروا أن الفلسفة الحقيقية هى من التحليل اللغوى للألفاظ والعبارات بمعنى أننا نستفتى الطبيعة: فما كان له مدلول فى الطبيعة فهو قابل للبحث وللحكم عليه بالصواب أو الخطأ، ومالا يكون له مدلول فى الطبيعة الحسية فهو خداع وهراء، ولا يمكن أن نصفه بالصدق أ والكذب لأنه لا وجود له: فالجملة التى لا تعبر عن قضية صادقة من الناحية الرياضية أو من الناحية التجريبية فهى تتجرد من كل معنى وتفقد كل دلالة وتصبح لغواً أو خداعاً.

فإذا قلت: التفاح لذيذ الطعم، فهى عبارة قابلة للصواب أو الخطأ لأننا فى الإمكان أن نجرى عليها التجارب ونكتشف النسب التى تتكوّن منها التفاحة، أما إذا قلت «الله موجود» فيقولون هذا خداع، وهى عبارة غير قابلة للبحث لأن «الله» غير قابل للتجربة - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا-.

وعلى هذا فنظرية "التحليل اللغوى» أو نظرية «اسمعنى» هى مقياس الوجود والعدم عندهم، حيث إن الألفاظ التى لها وجود فى الخبرة الحسية هى فقط التى يمكن أن يبحث فى صحتها أو خطئها وقد تأثر أصحاب الوضعية المنطقية المعاصرة بمذهب «دافيد هيوم» الذى أنكر فى معرض رفضه للميتافيزيقا كل معرفة أوليه بديهية لا تستسقى من التجربة، وجعل «هيوم» التجربة والرياضة مصدر كل علم يطمأن إلى صحته دون سواهما.

وقد ساير «كارنب» زعيم الوضعية الحالية فى أمريكا هذه الأفكار التي قال بها «هيوم» فى منهجه التجريبى، حيث قال: نحن علي اتفاق مع هذا الرأى الذى يدين به «هيوم» وخلاصته فى لغتنا - أى لغة الوضعية المنطقية - أن قوانين العلوم الرياضية والعلوم التجريبية هى وحدها التي تحمل معنى، أما غيرها من قضايا العلوم المزعومة الأخرى فإنها عديمة المعنى لأنها فى رأيه تحصيل حاصل ولا تنبئ عن علم جديد.

وتابع هيوم» كذلك فى أفكاره «آير» زعيم الوضعية المنطقية فى انجلترا حيث يقول: «إن الجملة التى لا تعبر عن قضية صادقة من الناحية الصورية - الرياضية - ولا عن قضية تجريبية تتجرد من كل معنى» (١).

وهكذا ترفض الوضعية المنطقية الحديثة كل تفكير لا يخضع للمنهج الرياضى والمنهج التجريبى ولا تعترف إلا بالواقع المادى المحسوس وتنكر كل ما وراءه من غيبيات، وهى بذلك تقوم على الإلحاد والكفر بالدين وترفض التفكير العقلى المجرد.

---

١) انظر ص ١٠٣ من أسس الفلسفة مرجع سابق.

رابعاً: الرد على الوضعيين - المحدثين والمعاصرين - ومناقشتهم

أولاً : الرد على استبعاد العلوم العقلية من العلم الصحيح:

١ - إن دعوى الوضعيين فى حصر العلم فى العلم التجريبى وإنكارهم لكل ما سواه، دعوى ينقضها الواقع المشاهد والتجربة الإنسانية.

حيث إن التفكير العقلى أو التأملات العقلية المجردة وظيفة طبيعية للعقل والعقل بفطرته ينساق إلى البحث فيما وراء الطبيعة المحسوسة مما لا تتناوله التجربة الحسية كالبحث عن طبيعة الموجودات ومصيرها ، وعللها الأولى، وغاياتها البعيدة، وهذه أمور لا تعالج بالتجربة الحسية فى المعمل، وإنما هى من عمل العقل المجرد، وإنكارها أو المصادرة عليها يعتبر مكابرة للواقع الذى يشعر به كل إنسان - خاصة عندما يشعر بالقلق وعدم الاطمئنان فى حياته الاجتماعية أو السياسية، حيث تتحرك فيه دواعى الفطرة فيفكر فى مصدر الوجود، وفى غايته وغير ذلك من موضوعات التفلسف.

٢ - إن العلم التجريبى موضوعاته جزئية، وهو مجرد وصف لظواهر الطبيعة والجزيئات لا تكفى لقيام العلم، لأن العلم يقوم على الكلى، بل إن نتائج العلوم الطبيعية هى فى الحقيقة أحكام عقلية توصل إليها العقل البشرى بعد مشاهدة ظواهر الكون واستقرائها بل إن العلوم التجريبية أصبحت تتجه الآن إلى التفلسف، أى إلى البحث، فى القوانين العامة والكلية التي تحكم الظواهر الطبيعية، وهذا ما أشارت إليه نظرية الترابط الكونى أو وحدة الكون، إذن فقد أصبحت العلوم الطبيعية تتجه إلى الكلى الذى هو حكم عقلى عام.

٣ - بل إن العلوم الطبيعية لا تستغنى عن العلوم الأولية القبلية البديهية، بل هى تنطلق من هذه القواعد العقلية الفطرية المسلمة التي لا تخضع للتجربة لأنها ليست محل شك أو ارتياب كمبدأ العلية، ومبدأ اجتماع النقيضين، وفكرة الزمان والمكان وقانون الاضطراد فى الحوادث، وكلها مدركات عقلية

بديهية لا تخضع للتجربة ويستخدمها علماء الطبيعة وينطلقون منها فى بحوثهم، ويستنتجون بناء عليها دون أن يدللوا على صحتها بالتجربة ومن ذلك على سبيل المثال:

عالم الرياضيات: فهو يبحث فى قوانين المكان، أو فى الوجود من حيث هو كم سواء أكان عدداً «كالحساب» أو شكلاً«كالهندسة» فهو يفترض وجود قوانين قبلية سابقة على التجربة مثل [الخطان المتوازيان لا يلتقيان مهما امتدا]، ومثل [الكميات المتساوية إذا أضيفت إليها كميات متساوية كانت نتائجها متساوية] . . . . وغير ذلك .

وكذلك عالم الطبيعة: الذى يبحث فى خصائص الأجسام، أو في تركيب الأشياء وردها إلى عناصرها، إنه يفترض مسبقاً وجود: المادة، وقانون العلية، وقانون عدم التناقض ويعتبرها قوانين بديهية سابقة علي التجربة.

وهكذا فى كل العلوم التى تخضع للمنهج الرياضى أو المنهج التجريبى، فإنها لا تستغنى عن هذه المسلمات العقلية أو المدركات العقلية البديهية التى هى فوق كل تجربة، ولابد من الإيمان والتصديق بالعلوم العقلية الفطرية التى هى ضرورة لصحة هذه الافتراضات العقلية أو المسلمات التى تبدأ بها العلوم الجزئية سواء أكانت علوما تجريبية أم رياضية .

ثانياً: الرد على الأدوار التاريخية للعقل

١ - إن الهرم الذى بناه «أوجست كونت» فى تأريخه للعقل البشرى فى صلته بالكون وحكمه بترقى العقل من الأدنى إلى الأعلى يعنى - على حسب زعمه - [من التدين إلى التفلسف ثم الواقع المادى المحسوس] فجعل أدنى المراتب للعقل هى مرتبة التدين والإيمان بالغيبيات وجعل أعلا مراتب العقل هى مرتبة التعامل مع الواقع المادى المحسوس دون سواه.

أقول: إن هذا الهرم الذى بناه «أوجست كونت» على هذا الشكل موضع نظر،

وإذا كان قد بنى استشهاده على التاريخ، فإن التاريخ لا يسلم له بذلك، بل إن الواقع التاريخى يشهد بخلاف ما قاله أوجست كونت في أدوار العقل الثلاثة حيث تشهد التجربة الإنسانية والواقع أن الأدوار الثلاثة متداخلة فى حياة الفرد الواحد، وفى حياة المحتمعات.

فالفرد الواحد: قد يقبل تفسيراً دينيا غيبيا - خاصة - عند الشدائد والضوائق النفسية - مع اعتقاده بالعلم الوضعى، وقد عبر القرآن الكريم عن الطبيعة الإنسانية فى قوله تعالى: **﴿حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق﴾**(١).

ففى هاتين الآيتين يبين الله الطبيعة الإنسانية، وأنها رغم انغماسها فى المادية، حينما تتعرض لشدة وتفقد كل أسباب النصرة المادية، تلجأ الفطرة إلي بارئها، وتهرع النفس إلى خالقها شاعرة بالضعف والعجز، فتطلب من ربها القوى القادر نجاتها، وبعد النجاة سرعان ما ينسى الإنسان ويغتر ويعود ليرتكس فى المادية من جديد

إذن فالأدوار الثلاثة التى قال بها أوجست كونت ليست منفصلة فى حياة الإنسان، فهو قد يجمع فى آن واحد بين التدين والتفلسف والعلم الوضعى.

والعصور التاريخية: التى صنّفها أوجست كونت لحياة المجتمعات البشرية، هى كذلك متداخلة، وفيها أدوار العقل الثلاثة، وليست بمنفصلة بعضها عن بعض.

= ففى العصر «اللاهوتى» أى عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخى وهو ما أسماه بالدور الأول: اختُرعت صناعات عن طريق المشاهدة ومعرفة طبائع الأشياء، استخدمها الإنسان فى ملبسه وفى مطعمه وفى حرثه وزرعه وغير ذلك.

= وفى العصر «الميتافيزيقى» أى الدور الفلسفى الذى شمل العصور القديمة،

١) سورة يونس الآيتان رقم ٢٢, ٢٣.

وهو الدور الثانى: وجدت مشاهدات فلكية، وعرفت هندسة إقليدس، وطب بيقراط، وطبيعيات أرسطو، وكيمياء العرب وغير ذلك مما مجاله المشاهدة والتجربة.

= وفى العصر الحديث: وهو الدور الوضعى، الذى يراه أوجست كونت قمة العقل، ويعتبره المرحلة الأخيرة فى ترقى العقل الإنسانى على مر التاريخ ، وهو الدور الثالث قد وجد كثير من دعاة الأخلاق والدين والتأمل الفلسفى، بل أصبحت النزعة الإنسانية الآن تهفو إلى الإيمان وتبحث عن مخرج لها فى الغيب بعد أن أفسدت الحياة المادية والعقل المادى حياتها وأصبحت فى قلق وحيرة، وكأن هذا العصر الواقعى - رغم أنه غارق فى المادية - إلا إنه يهفو إلى الروح وإلى الإيمان الذى يعطيه السكينة والطمأنينة التى افتقدها فى ظل المادية والوضعية، وقد وجد من العلماء فى أوروبا من نقض الوضعية ووجه إليها الاتهام الشديد لإفسادها الحياة الروحية والعقلية [1] بل إن كونت نفسه تراجع عن أفكاره وعاد إلى التدين مرة ثانية، وانقلب إلى متصوف كبير [2].

وعلى هذا فليس فى تاريخ العقل البشرى ما يثبت أن مرحلة التفكير الفلسفى تسبق مرحلة التفكير العلمى، وليس فى تاريخ العقل البشرى ما يثبت أن الارتباط بالغيب هو نوع من الطفولة العقلية أو الجهل، وأن الارتباط المحسوس هو قمة النضج العقلى والعلمى. وإنما كما رأينا: هى مراحل متداخلة، فى حياة الأفراد وفى حياة المجتمعات وليس بينها انفصال.

٢- إن الواقع المشاهد فى نمّو الإنسان يجعل هرم أوجست كونت مقلوبا، أى أن العكس هو الصحيح ، حيث تبدأ الطفولة العقلية بالمحسوسات، ثمّ تصعد إلى العقليات ، ثمّ تنتهى بالغيب، وتكون قمة النضج العقلى فى إيمانه بالخالق جل

---

١) أسس الفلسفة، ص ١٠٥، ١٠٦ مرجع سابق

٢) كتاب الدين للدكتور دراز ص ٩٤.

وعلا، وقد أشارت إلى ذلك الآية الكريمة في قوله تعالى" ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ [1] فالإنسان يولد صفحة بيضاء لا علم له بشئ ولا معرفة له بالأشياء من حوله، ثم يبدأ فى التعرف على الأشياء من حوله بواسطة الحواس، التى أشارت إليها الآية الكريمة فى قوله تعالى: ﴿**وجعل لكم السمع والأبصار**﴾ فإذا نما، بدأ عقله ينضج ويتساءل: لماذا تحدث الأشياء؟ ويسأل عن الروابط بين الأشياء والعلاقات بين الحوادث، وهذه مرحلة التفلسف العقلى، والتى أشارت إليها الآية الكريمة بقوله تعالى «والأفئدة» الفؤاد قد يراد به العقل، وقد يراد به القلب، فهو إذن شاهد على المرحلتين الثانية والثالثة فإذا أصبح الإنسان فى معمعه الحياة ومعتركها، واتسع أفقه، وتكونت عنده النظرة الشمولية، كانت المرحلة الثالثة وهى مرحلة الإيمان بالغيبيات وبالخالق جل وعلا، حيث يشعر الإنسان بالضعف والعجز، ويحتاج إلى السكن والطمأنينية، ويشعر بأن وراء هذا الكون المحسوس قوة عليا وأسرارا تفوق طاقة العقل البشرى، وتهفو روحه إليها وتتشوق النفس إلى باريها وخالقها، فيحصل هذا الاتصال بين العبد وربه، ويتقرب إليه بالعبادة ويتمسك بمنهجه الذى شرعه وبينه على ألسنة أنبيائه ورسله.

إذن فقمة العقل: هى فى الإيمان، هى فى الغيب ، فهو أعلا مراحل التفكير العقلى وأسماه على الإطلاق: وقد منّ الله على المسلم فرزقه ذلك من بداية حياته فضلا منه وكرما.

وبناء على ذلك : يكون ما استشهد به أوجست كونت من مراحل العقل حجة عليه لا له.

---

١) سورة النحل الآية رقم ٧٨.

ثالثا: الرد على نظرية«التحليل اللغوى»عند الوضعية المعاصرة:

لقد أغرقت الوضعية المنطقية المعاصرة فى المادية إلى درجة تفوق الوصف، حينما جعلت اللغة هى المقياس للوجود والعدم، فإذا كان للفظ واقع حسى، كان قابلا للبحث، وقابلا للصواب أو الخطأ، وإذا لم يكن له واقع حسى كان خداعا وتضليلا.

١ - وفى الحقيقة: إن المصادرة على الوجود بهذا النحو نوع من العبث بل نوع من الجنون، فهل الأمر بهذه البساطة: تلغى الوضعية بجرة قلم، كل وجود لا يخضع للتجربة والمشاهدة وهل هذه الحفنة من البشر، أو هذه الحثالة من الشواذ يلغون بجرة قلم ذلك الصرح الضخم من الإيمان بالخالق وبالعالم الغيبى الذى نعمت به البشرية على الرغم من اختلاف أجناسها وبيئاتها ولغاتها، فقد توجد أمم بلا حضارات مادية، لكن لم توجد أمة بلا دين، ولم توجد أمة لم ترتبط بالغيب سواء أكان فى صورته الصحيحة أم فى صورته المحرّفة، وأكبر دليل على ذلك لفظ «الله» لقد وجد هذا اللفظ فى كل لغات الأمم، ووجد فى اللغات القديمة وفى اللهجات الحديثة وجد عند الهنود قديما، وعند الفرس، وعند اليونان، ووجد فى اللغة الانجليزية وفى اللغة الفرنسية، وفى الألمانية، وفى العربية، ولم تخل لغة من هذا الاسم وعلى هيئته لم يتغير «الله» جل جلاله أليس هذا دليلا على وجود الله وأنه حقيقة مغروسة فى حسّ الأفراد والشعوب فى القديم والحديث؟

٢ - ثم من قال بأن كل مالا يخضع للتجربة لا نؤمن به وننفى وجوده؟ ونسأل: هل يعترفون بالتفكير فى الإنسان؟ فكيف يحدث؟ إنهم يقولون بأنه وظيفة للمخ المحسوس الذى يوجد فى رأس الأنسان، فهو- أى العقل- صفة من صفات المادة، أو وظيفة من وظائفها، أو معلول لها، فالمخ مادة وكل مايصدر عنه يتصف بصفتها المادية.

نقول: إن هذه الادعاءات لاتنفى عقلية العقل، بل إن مقتضى كلامهم يلزم عليه: أن صفات الجسم هى نفسها صفات العقل تماما باعتبار أن كلا منهما مادة، وهل يسلم أحد من العقلاء بذلك؟ ثم لو كان العقل مادة: فلماذا اختلف

التفكير فى الإنسان عن الحيوان، مع أن كلا منهما مادة، فمقتضى كلامهم أن يكون التفكير واحدا لأنها عملية ميكانيكية بحتة، وهل يسلم أحد من العقلاء بذلك؟ وهل يرضى أحد أن يقول بأن تفكيره مثل تفكير الحيوان؟

إن عملية التفكير فى الإنسان ليست عملية مادية، وإنما إدراكات العقل هى أمر خارج عن المادة وهى نور من عند الله، أو نفخة من روح الله ولا تخضع للتجربة ولا للمادة، ولايستطيع أحد أن ينكر تميز الإنسان عن الحيوان: بتفكيره المنظم، ورؤيته المستقبلية، ومشاعره الراقية، ان الوضعيين المنطقيين عاجزون بمادتهم أن يفسروا لنا أبسط العمليات العقلية، أو أن يفسروا لنا كيف يصدر الإحساس عن الحركة، وكيف يصدر التفكير من المخ؟ وهل الظواهر الجسمية من حركة وخلافها، هى نفسها الظواهر النفسية من انفعالات ووجدانات ومشاعر؟ لايسلم بذلك إلا من فقد عقله حقا، فجعلهما سواء.

٣ - إن دعوى الوضعية المنطقية فى جعل اللغة هى مقياس الوجود والعدم من منظور مادى فقط، دعوى واهية، لاتنهض لمقاومة كيان البشرية منذ بدايتها حتى اليوم، حيث يعترف الناس بالموت والحياة، وبالخير والشر، وبالإله والغيب، فهل يستطيع أحد أن يحكم على هذه الألفاظ بالعدم لأنها لاتخضع للتجربة؟رغم أنها من صميم الفطرة الإنسانية التى لاينازع فيها إلا مكابر أو فاقد للعقل.

ألا ماأبعد هؤلاء عن العلم- رغم ادعائهم له- وصدق الله العظيم﴿فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾.

= بل إن العلم الطبيعى الآن: يعترف الباحثون فيه على اختلاف تخصصاتهم بأن ماخفى من أمور الكون أعظم وأكبر مما عرفوه، وأن هذا الكون مازالت فيه أمور مجهولة لدى الباحثين هى فوق طاقتهم، وأن الإيمان بها رغم عدم إدراكها هو من صحيح العلم، ويقولون بأن وراء هذا الكون المحسوس أسرارًا وموجودات غيبية تفوق الحصر ولايسعنا إلا الإيمان بها حتى ولو لم نرها.

وهكذا يتجه العلم الطبيعى إلى الإيمان بالغيبيات وبالاعتراف بها رغم أنف الوضعيين المنطقيين وخير شاهد على ذلك كتاب«**الله يتجلى فى عصر العلم**» وهو مجموعة مقالات لعلماء الكيمياء والطبيعة والفلك وغيرهم يقرون، فيها بأن وراء هذا الكون المحسوس إلهًا خالقًا عظيمًا وأن وراء العالم المادى عالما آخر من الأسرار والغيب لايستطيع أحد أن يدركه بعقله ولا أن يخضعه للمشاهدة والتجربة.

وقد وجه كثير من العلماء النقد إلى الوضعية أمثال«بارنز» و«برتراندرسل» مما جعل «**آير**» زعيمها فى انجلترا يتخلى عنها- خاصة بعد قراءته نقد«برتداندرسل» لها، وتحوّل «**آير**» إلى فيلسوف ميتافيزيقى.

وقد وُجد كثير من القضايا التى تتصل بالعالم الطبيعى نفسه تعجز التجربة عن إثباتها أو التحقيق منها بالخبرة الحسية، كما إذا قيل: إن فى إحدى المجرات الخارجية كوكبا يحتوى على جبل من ذهب، فهل فى إمكان الوضعية المنطقية أن تتحقّق من ذلك بالتجربة؟ وقد حاول الوضعيون تلافى هذا القصور فى نظريتهم بقولهم«**بالإمكان المنطقى**» فيما لا يتحقق بالإمكان الفعلى، فكل قضية كان بالإمكان الحصول على تجربة بشأنها فهى ذات معنى. وهى ذلك- أى الوضعية- قد استعانت بالعقل فى تبرير عجزها رغم إنكارها له، وعادت إلى التفلسف فى دفاعها عن نفسها رغم أنها تنكره. فهى تناقض نفسها بنفسها.

ورغم وضوح التهافت فى الوضعية، وتخلّى الكثير عنها من علماء أوروبا، فما يزال فريق من المفكرين العرب يجهدون أنفسهم لحمل أمتهم على السير فى ركابها، والانغماس فى المادية إلى أبعد مدى أمثال الدكتور زكى نجيب محمود وغيره ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

[الاتجاه المثالى فى تصور الوجود]

إن العقل البشرى بعيدا عن الوحى المعصوم، يتعثر فى خطاه نحو فهم الوجود فهما صحيحًا، ويقع فى التناقض، ويتعذّر عليه الوصول إلى الصواب، وقد رأينا كيف أن أصحاب الاتجاه المادى حصروا الوجود فى المادة وحدها، ويقولون: لاشىء فى الوجود غير المادة، ومانشاهده فى الإنسان من الحياة والحركة والمشاعر- مما يظنّ البعض أنها تشهد بوجود الروح أو العقل- ليست فى الواقع إلا وظيفة من وظائف المادة أو صفة من صفاتها، فإذا انحلّت المادة توقفت الحركة وانعدمت الحياة.

=وفى المقابل لهذا الاتجاه المادى، كان الاتجاه المثالى، والذى يرى أصحابه: أن الوجود روحىّ فى طبيعته، وليس فيه غير الروح أو العقل، وأن المادة فى كل صورها ليست إلا ظاهرة من ظواهر الروح.

وقد ظهرت صور عديدة لهذا الاتجاه المثالى فى الفكر البشرى كان من أبرزها مايلى:

١ - **عالم المُثُل**: الذى يقول به أفلاطون، حيث يرى: أن الوجود الحقيقى لايكون لغير المُثُل- نماذج الأشياء- وأن مانراه من أشياء فى هذا الكون المحسوس إنما هى ظلال وصور لتلك الحقائق القائمة فى عالم أعلا تتمثّل فى أرواح مجردة، فخالد، ومحمد، وعائشة... إنما هم صور لمثال الإنسان كما تنعكس للجسم صور كثيرة متنوعة أمام المرآةبحسب طبيعتها ووضعيتها، وقد فصل أفلاطون عالمه هذا فى نظرية الكهف المعروفة فى فلسفته ويعتبر أفلاطون بذلك واضع نواة المذهب الروحى الحديث فى الاتجاه المثالى.

٢ - **المذهب الروحى الحديث**: وقد أنشأه «**ليبنتز**» [+١٧١٦م] وعارض المذهب الآلى الذى فسّر به«**ديمقريطس**» طبيعة الوجود، وقرر«ليبنتز»[أن الموجودات تتألف من ذرات روحية لا تقبل التجزئة بالفعل ولا فى الذهن، ولا تتعرّض للفناء وتنزع

دوما إلى العمل والحركة، وتتميز بأنها بسيطة لا شكل لها ولا مقدار، وبها تتكوّن الأشياء، يوجدها خالق فتصدر عنه كما يصدر النور عن الشمس وهى مدركة وإن كان إدراكها يتفاوت قوة وضعفا، فيقوى إدراكها طرديا مع الترقى من الجماد إلى الحيوان، فالإنسان، فالله«مناد المنادات»- فيما يسميه ليبنتز- ومن ثمّ لا يكون للعالم الخارجى أو المادة فى كل صورها وجود بذاتها. . . أما عن العلاقة بين الجسم والنفس، فقد ردها«ليبنتز»إلى قانون التناسق الأزلى، الذى قرّر فيه: أن الله بتدبير معقول قد أعدّ منذ الأزل لكل ذرة نظاما تسير بمقتضاه بحيث تنسجم مع غيرها من الذرات](١).

٣ - التصوف النظرى ومذاهبه: لابد أن نفرّق منذ البداية بين «**الزهد**» فى الإسلام- والذى ظهر فى سلوك النبى-ﷺ- وفى سلوك أصحابه والتابعين، وحث عليه القرآن الكريم والسنة النبوية، والذى هو مذهب أهل السنة والجماعة وهو مايمثل روح الإسلام فى وسطيته واعتداله وجمعه بين مطالب الجسد والروح معا من غير إفراط فى أحدهما أو تفريط- وبين التصوف الذى تأثر بالأفلاطونية الحديثة، والبوذية الهندية، والرهبانية المسيحية، والغنوصية، وأصبح مسلكا نظريا فلسفيا يتضمن الكلام فى المعرفة والأحوال والمواجد والأذواق، وصارت لأصحابه نظريات فى الاتحاد، وفى الحلول، وفى وحدة الوجود، وفى المعرفة الإشراقية وغيرها.

وقد أطلق العلمآء على هذا النوع من التصوف[التصوف النظرى]أو [التصوف الإشراقى]أو [التصوف الفلسفى] وقد ظهر هذا النوع فى القرن الثالث الهجرى، حيث كان التصوف قبل هذا القرن يسعى إلى غاية عملية وهى مجاهدة النفس وكبح جماحها من أجل رضوان الله والنجاة من عذابه، ولهذا كان يوصف بأنه تصوف عملى ، ولكن بدءًا من القرن الثالث الهجرى تقريبا تحول التصوف إلى تصوف نظرى يسعى لالتماس المعرفة ودراسة الأحوال والمواجد والأذواق وغير ذلك.

(١) أسس الفلسفة ص٩٢ مرجع سابق.

وكان أول من وضع تعريفات للوجد والسماع، وفسّر إشارات الصوفية هو «ذو النون المصرى» المتوفى سنة ٢٤٥هـ، وظهرت بعده عدة نظريات فى التصوف نشير إليها على سبيل الإيجاز حيث هى تدخل معنا كنماذج على الاتجاه المثالى فى تصور الوجود من واقع البيئة الإسلامية، وسنقوم بعد ذلك بدراسة نموذج آخر من إفرازات الحضارة الغربية الحديثة وهو «الروحية الحديثة» أما عن نظريات التصوف النظرى فنجد منها:-

أ - **نظرية الاتحاد:** حيث نشأت لأول مرة على يد أبى يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١هـ، والاتحاد يعنى: اتحاد الإنسان بالله أو الناسوت باللاهوت، فهى تقرر اتحاد الخالق بالمخلوق، وكان أبو يزيد أول من استخدم كلمة«الفناء»[١] وأراد بها محو النفس الإنسانية بآثارها وصفاتها وكانت له شطحات أخرجته عن حده حتى قال: «**سبحانى ما أعظم شأنى**»، «**إنى أنا الله لا إله أنا فاعبدونى**». .إلخ هذه الشطحات.

ب - **نظرية الحلول:** وقد نشأت على يد«الحلاج»[٢] والحلول يعنى: حلول الله فى مخلوقاته، وكان الحلاج فى تعبيراته يلتمس محو صفاته لأنها تمنعه من أن يتصل بالله وتحل فيه صفاته الإلهية، وقد كانت له شطحات هو الآخر أودت بحياته فكان يقول: «**أنا الحق**»، ويقول: «**إنى مازلت أبدا بالحق حقا**» ولعله هنا يقصد بالحق: الخالق جل وعلا، وكان يقول أيضا: «مافى الجبّة إلا الله»، ومن شعره

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

جـ- **نظرية وحدة الوجود:** وقد نشأت على يد ابن عربى الطائى المتوفى سنة ٦٣٨هـ، حيث يرى ابن عربى: أن الوجود حقيقة واحدة، وليس تعدّد الموجودات

---

(١) الفناء يعنى عندهم: الغيبة عن الاشياء وعدم الإحساس بالعالم المشهود «الفلك» والاستغراق فى عظمة البارى ومشاهدة الحق إنه الفناء فى الله عمّا سواه.

(٢) الحسين بن منصور الحلاّج فيلسوف متصوف أتهم بالتشيع وقُتِل سنه ٣٠٩هـ.

وكثرتها إلا وليد الحواس الظاهرة والعقل الإنسانى الذى يعجز عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء، أو يدرك المجموع كمجموع يقول ابن عربى: [فالحقيقة الوجودية واحدة فى جوهرها وذاتها، متكثّرة بصفاتها وأسمائها، لاتعدّد فيها إلا بالاعتبارات والنسب والإضافات، إذا نظرت إليها من حيث ذاتها قلت هى الحق، وإذا نظرت إليها من حيث صفاتها وأسمائها قلت هى الخلق]-أى العالم-.

وهكذا رأينا كيف تطور اتحاد البسطامى وحلول الحلاج إلى مذهب كامل فى وحدة الوجود على يد ابن عربى[1] وقد نفى الدكتور أبو العلا عفيفى عن البسطامى والجنيد والحلاج قولهم بوحدة الوجود وقال: [إنهم فنوا فى حب الله عن أنفسهم وعن كل ماسوى الله، فلم يشاهدوا غير الله، وهذه وحدة شهود لا وحدة وجود]. وسواء أكانت وحدة وجود أم وحدة شهود، فكلها مشارب ونوازع غير إسلامية لا يقرها الإسلام الذى نعرفه من مصدريه الكريمين القرآن والسنة.

د - نظرية المعرفة الإشراقية: والتى ظهرت على يد«السهروردى» المقتول سنة ٥٨٧هـ، حيث يرى: أن النفوس الناطقة فى جوهر الملكوت- أى عالم المعقولات والمجردات- يشغلها عن عالمها هذا تلك القوى البدنيّة ومشاغلها، فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر، تتخلّص أحيانا إلى عالم القُدس، وتتصل بأبيها المقدس وتتلقى منه المعارف، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها، وتتلقى منهم المغيبّات فى نومها ويقظتها. .إلخ، ويرى هؤلاء الإشراقيون: أن العلم الصحيح هو العلم اللَّدُنّى الذى يتأتى عن طريق الله رأسا من غير وساطة، ويجده العالم على سبيل الوجدان والكشف وليس عن طريق العقل أو الكسب، وكان أبو يزيد

(١) يتفق الاتحاد والحلول فى أن كليهما يعبر عن حقيقتين اندمجتا فكانتا حقيقة واحدة، ولكن الاتحاد يقرر اتحاد المخلوق بالخالق، بينما يقرر مذهب الحلول حلول الله فى مخلوقاته، ويختلف هذان المذهبان عن مذهب وحدة الوجود فى أن الأخير يعبّر عن حقيقة واحدة هى الله من ناحية والمخلوقات من ناحية أخرى[أسس الفلسفة صـ ٣١٠].

البسطامى يقول لعلماء عصره[أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت].

فالمعرفة الاشراقية لدى الصوفيه تعنى: نور داخلى تنكشف به الحقائق لدى قلب العارف والكشف هو هذه المعرفة التى تحصل فى القلب فجأة بدون وساطة وهذا بلاشك كلام لايقره الشرع، وإنما هو ترديد لكلام الفلاسفه البعيدين عن هدى الله ومنهجه القويم.

وخلاصة الكلام: أن الذين سلكوا طريق الرياضة والمجاهدة للنفس إن وافقوا فى رياضتهم أحكام الشرع ولم يخرجوا فى تعبيراتهم وأقوالهم عن حدود الشرع، كان ذلك أمر مقبولا، وإلا فهم الاشراقيون الذين خلطوا الفلسفة بالدين وابتعدوا عن منهج الله القويم.

ولهذا هاجمهم أهل السنة والسلف والفقهاء وقد ضاقوا ذراعا بهذا التصوف الذى تسللّت إليه النظرات الفلسفية فى المعرفة والوجود فابتعد عن قواعد العقيدة الصحيحة[1].

٤ - الروحية الحديثة

الروحية الحديثة دعوة هدّامة وحركة مغرضة مبنية على الشعوذة، تدّعى استحضار أرواح الموتى بأساليب علمية وتهدف إلى التشكيك فى الأديان والعقائد، ويرون أن المعرفة الصحيحة لاتكون إلا عن طريق الروح فهى لا تكذب أبدا، وعندها العلم الشامل والمعرفة بكل شئ، ولذلك فهم يستدعون الموتى ويستفتون أرواحهم فى مشكلات الغيب ومعضلاته، ويستعينون بها فى علاج مرضى الأبدان والنفوس، والإرشاد عن المجرمين والتنبؤ بالمستقبل، فالروح عندهم هى المصدر اليقينى للمعرفة.

= والحديث عن الروحية يتبلور فى :

١ - زمن ظهورها وأبرز مؤسسيها وأماكن انتشارها.

٢- ماتتضمنه من أفكار ومعتقدات.

٣ - جذورها الفكرية والرد عليها.

---

(١) راجع فى التصوف النظرى ومذاهبه كتاب أسس الفلسفة مبحث التصوف الاسلامى من ص٣٠١-٣١٤.

أولا: ظهورها ومؤسسوها وانتشارها

ظهرت الروحية الحديثة فى بداية هذا القرن [العشرين الميلادى] وكان أول ظهورها فى أمريكا ثم انتشرت فى دول أوروبا، ولاتكاد تخلو مدينة من فرع لهذه الدعوة، وفى أمريكا يوجد المركز العالمى للبحوث الروحية كما ظهرت عدة مؤسسات لها مثل: (المعهد الدولى للبحث الروحى) بأمريكا، و(جمعية مارلبورن الروحية بانجلترا) كما زحفت الدعوة الى العالم الإسلامى ويوجد فى مصر (الجمعية المصرية للبحوث الروحية) وتوجد كثير من الصحف والمجلات فى العالمين الغربى والعربى تروج لهذه الدعوة منها مجلة«عالم الروح» التى تصدر فى مصر.

ولم يعرف لهذه الدعوة مؤسس بعينه لكن وجد العديد من الأشخاص الذين نشطوا فى الدعوة إليها مثل: جان آرثر فندلاى، واليهودى المعروف: دافيد وجيد، وكذلك أحمد فهمى أبو الخير أمين عام الجمعية المصرية للبحوث الروحية، وغيرهم.

ثانيا: أبرز أفكارها ومعتقداتها

١ - يرفضون الوحى ويقولون: إنه ليس فى الأديان مايصح الاعتماد عليه ويسخرون من المتديّنين.

٢ - يعتقدون أن معجزات الأنبياء هى ظواهر روحية كالتى تجرى فى غرفة تحضير الأرواح، ويدّعون أن بإمكانهم إعادة معجزات الأنبياء، ولايثبتون للأنبياء والرسل سوى الوساطة بين الروح والبشر.

٣ - يهدمون عقيدة البعث والجزاء، ويدعون أن الأرواح تعيش فى هناء وسعادة حتى ولو كانت كافرة، ويقولون إن الجنة والنار حالة عقلية يجسّمها الفكر ويصنعها الخيال.

٤ - يزعمون أن الأرواح تساعدهم فى كشف الجرائم وتعاونهم فى علاج مرض الأبدان والنفوس، وأن الأرواح عندهم بمثابة الخدم تستجيب لأى إشارة منهم.

٥ - يضفون على الروح صفات مادية فيقولون بأن الروح يمكن إدراكها وأنها تتجسّد وتلمس وأنهم يستطيعون التقاط صور لهذه الأرواح فى الأشعة تحت الحمراء.

٦ - يقومون بالتحضير فى حجرات خاصة شبه مظلمة وفى ضوء أحمر خافت ويعتمدون فى عملية التحضير على«الوسيط» وهو أهم شخص فى العملية كلها، لأنه عندهم يرى غير المنظور، ويسمع غير المسموع، وله قدرة على التواصل عن بعد «التلباثى»[1].

ثالثًا: الجذور الفكرية والرد على الروحية الحديث

إن الروحية الحديثة دعوة يهودية خالصة، واليهود يمدون لهذه الدعوة يد المساعدة والدعم المالى ويروجون لأفكارها من خلال المؤسسات الصحفية والإعلامية التى يمتلكونها، والقائمون على أمر هذه الدعوة لهم اتصال وثيق بالماسونية، وشهود يهوه، ونوادى الروتارى، مما يدل على أن اليهود وراء هذه الدعوة لأنها توافق مخططاتهم فى هدم الأديان والعقائد والقضاء على القيم والفضائل.

ومن العجيب: أن القائمين على أمر هذه الدعوة يضفون عليها صفة العلمية، ويدّعون أن عمليات التحضير لأرواح الموتى تتم وفق ضوابط علمية ودارسات لأحوال النفس الإنسانية والواقع يكذبهم فى داعوهم هذه، وقد أعلنت مجلة«سينتفك أمريكان»عن جائزة مالية ضخمة لمن يقيم الحجة على صدق الظواهر الروحية، ولكنها مازالت تنتظر ولم يتقدم أحد ليثبت صحة الروحية الحديثة مما يدل على بطلانها وأنها لاتمتلك من الأساليب العلمية مايجعلها تقدم نفسها فى ميدان العلم الصحيح، وهى لاتخرج عن كونها شعوذة وخداعا وتأثيرا مغناطيسيًا على الحاضرين، واتصالا بالجن، وليس بمستبعد أن يكون الجن هو الذى يتحدث على لسان الوسيط. وصدق الله القائل فى محكم آياته﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوّا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك

(١) راجع الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة صفحة ٢٥١-٢٥٤ مرجع سابق.

مافعلوه فذرهم وما يفترون﴾[1] وفى اية أخرى يقول تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جمعيا يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله إن ربك حكيم عليم﴾[2].

إن هذه الدعوة تقوم على الإلحاد ونبذ كل الأديان، وتمجد الوثنيين والفراعنة والهنود الحمر بحجة أن أرواحهم أقوى الأرواح، فهى دعوة شيطانية تنشر الفوضى بين الناس، روّج لها أبالسة اليهود من أجل زعزعة العقائد الدينية والقيم الخلقية.

وقد أخبرنا الحق جل وعلا: أن الروح سر من أسرار الله، ولا يستطيع أحد أن يقف على حقيقتها، وقد سجل تاريخ الفكر الفلسفى محاولات عديدة لمعرفة كنه الروح، ولكنها كلها باءت بالفشل، ولم تخرج عن كونها تخرّصات وشطحات لا دليل عليها، وينـاقض بعضها بعضا حتى«تعريف الروح»: لم نجد له فى الفكر الإنسانى كله تعريفا محددًا، وإنما هى رؤى مختلفة ينقض بعضها بعضًا، وصدق الله القائل: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[3].

كما بين الحق جل وعلا أن الروح فى قبضة الله وحده إن شاء أمسكها وإن شاء أرسلها وليس لأحد من البشر سلطان عليها فيأتى بها أنّى شاء ويصرفها أنّى شاء، ويقول تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[4] ففى هذه الآية يقرّر الله عز وجل أمرا واضحا وهو: أن الروح التى مات جسدها هى فى قبضة الله يمسكها عنده لاتعود إلى الجسد مرة ثانية فى هذه الدنيا، فكيف يدّعون أنهم يحضرون أرواح الموتى؟ وأنّى لهم قدرة على ذلك؟ إن

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١١٢

(٢) سورة الأنعام الآية رقم ١٢٨.

(٣) سورة الإسراء الآية رقم ٨٥.

(٤) سورة الزمر الآية رقم ٤٢.

الروح فى قبضة الله ومن أمر الله ولا يعلم أحد عنها شيئا، ومن يدّعى غير ذلك فليأت بالدليل، وكما قلت سابقا: لعل مايسمعون من الوسيط هو كلام الجن على لسانه، وهذه من مهام الجن فى إفساد البشر وإضلالهم كما قال تعالى: ﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾.

[نظرة تحليلية للاتجاه المثالى فى تفسير الوجود]

إن التفسير المثالى للوجود على أى وجه من وجوهه- التى ذكرنا بعضها- وسواء لبس ثوب النظريات العلمية أو المذاهب الفلسفية، أو لبس ثوب الشعوذة والدجل والشطحات الصوفية، إنه على كل الوجوه مخالف لتعاليم الدين، ويعارض الواقع المشاهد الذى تقر به العقول الصحيحة فهو حينما ينكر الواقع المادى أو يلغيه من الاعتبار، أو يدعو إلى اعتزاله، ويتخرّص فى أمر الغيب بلا منهج قويم، إنه بذلك يتجاوز حدوده من ناحية، ويكابر فى إنكار الواقع من ناحية ثانية، فإن الوجود الغيبى أمر مطويّ عن البشر لا يمكن إدراكه إلا بالوحى المعصوم، وإن الروح من أمر الله لا يعلم حقيقتها أحد، فالتخرّص فى أمر الغيب أو أمر الروح هو نوع من العبث وإثارة الفوضى ولن يصل الإنسان فيه إلى ثمرة صحيحة، وستكون إفرازاته فى هذا المجال أوهامًا وضلالات، وجدير بالإنسان أن يقف عند حدود مابيّن الله لنا من أمره على لسانه أنبيائه ورسله يقول تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا. إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا. ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عدداً[1]﴾ وعلى ذلك:

فالتفسير المثالى للوجود يحصر الوجود فى جانبه الروحى أو الغيبى، وهو بذلك يفتقد مصداقيته فى التفسير الصحيح للوجود، وهو مرفوض من وجهة النظر الإسلامية.

(١) سورة الجنّ الآيات من ٢٦-٢٨.

[التعقيب العام على الاتجاهات البشرية فى تفسير الوجود]

إن الاتجاهات البشرية فى تفسيرها للوجود كانت على طرفى نقيض، فقد وجدنا من حصر الوجود فى المادة وحدها، ووجدنا من حصره فى الروح وحدها، ومشكلة الوجود لاتُحل بردّه إلى المادة وحدها أو الروح وحدها، وإنما تُحل بنظرة أوسع وهى رد الوجود إلى المادة والروح معًا.

وإذا وجدنا من الفلاسفة من فعل ذلك- وهم أصحاب المذهب الثنائى- حينما ذهبوا إلى عدم الفصل بين الروح والجسد فى تفسير الوجود إلا إنهم قد أخفقوا فى تفسير العلاقة الصحيحة بينهما، وهذا شأن العقل البشرى حينما يقطع مسيرة الفكر بعيدا عن الوحى.

ولن نجد التفسير الصحيح للوجود إلا فى ظل الإسلام الذى جاء بنظرية متكاملة فى تفسير الوجود حيث أثبت للأشياء وجودًا خارجيا مستقلا عن الذات المدركة- فوجودها قائم سواء وجدت هذه الذات ام لا، أدركتها أم لم تدركها- وأن هذه الموجودات الخارجية بالنسبة للإنسان تنقسم إلى قسمين:-

أ- **موجودات عالم الشهادة:** وهى الأشياء التى تحيط بالإنسان فى عالم الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وإنسان، وأن طريقة إدراكها هى الحواس.

ب - **موجودات عالم الغيب:** وهى العالم الذى يعجز الإنسان عن إدراكه بحواسه فى هذه الدنيا كاللوح المحفوظ، والجنة، والنار... نحوها، ولها وجودها الحقيقى فى الخارج.

وأنه لكل واحد منهما- أى عالم الشهادة وعالم الغيب- خصائصه المميّزة له والتى أوضحناها فى دراسة المنظور الإسلامى للوجود، كما أوضحنا أطر العلاقة بينهما كذلك، وبيّنا أن المعرفة البشرية هى ثمرة الالتقاء بين ذهن الإنسان وبين الموجودات الخارجية، .وإنْ كان هذا لايعنى التلازم التام بين الموجودات وذهن الإنسان[فليس كل موجود تمكن معرفته بالضرورة، وليس كل تصور فى الذهن أو تصديق يكون له واقع خارجى بالضرورة]، فهناك من الموجودات مالا قدرة لوسائل

المعرفة الإنسانية على إدراكها مثل: كنه الذات العلية وكنه صفاتها، فالإنسان يقر وجودها ولكنه لا يستطيع معرفتها. وفى المقابل: قد ترد على العقل البشرى صور وخيالات لاوجود لها فى الخارج، مثل خيال الشعراء، وسيطرة بعض الخواطر على الشخص والتى لايكون لها وجود فى الخارج، ولعل مثل هذه الخواطر هى التى أودت بالمتصوفة الإشراقيين إلى هذا المنزلق الخطير الذى وقعوا فيه حينما نقلوا تخيلاتهم الذهنية والتصورات التى تستولى عليهم حال«الفناء»[1] إلى عالم الواقع واعتبروها حقائق عينية مثل دعواهم الجلوس بين يدى الله، والاندماج الكامل بينهم وبينه، واتحاد الخالق بالمخلوقات وغير ذلك مما ذكرناه فى نظريات الاتحاد والحلول ووحدة الوجود، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. وقد بين لنا القرآن الكريم طبيعة الموجودات وكيفية العلم بها وحدود هذه المعرفة وضوابطها مما فصلناه فى التفسير الإسلامى للوجود. والله أعلم.

(١) انظر تفاصيل هذه النظرية فى كتاب مصادر المعرفة للدكتور عبد الرحمن الزنيدى من ص٨٦-٩٣ مرجع سابق.

القضية الثانية

قضية العالمية وتشمل:

أ ـ عالمية الدعوة الإسلامية وأدلتها من النص والعقل والتطبيق

ب ـ دعوى عالمية الحضارة الغربية والرد عليها

جـ ـ دعوى عالمية النصرانية والرد عليها

العالمية تعنى: وجود رابطة أو عدة روابط تجمع الجنس البشرى كله وتصهره فى بوتقة واحدة رغم اختلاف الأجناس واللغات والبيئات وتباعد المسافات.

إنها فى الحقيقة: روابط الفطرة التى توجد فى كل إنسان، مهما اختلفت ثقافته واختلفت نشأته، وصدق الله القائل «فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم»، وصدق النبي الكريم ﷺ فى قوله: « ما من مولود يولد إلا على الفطرة»، وقوله أيضا: «لقد خلق الله الناس حنفاء»، فالإنسان هو الإنسان بفطرته وبغرائزه، بجسده المرتبط بطينة الأرض، والتى تشده إليها دوما، وبروحه التي هى نفحة من روح الله والتي تشده إلى السمو والعلو دائما، والإنسان منذ أن خلق وحتى تقوم الساعة هو الإنسان مهما اختلفت ظروفه، أو تغير مكانه على ظهر الأرض.

ولعلنا فى هذه القضية نبحث عن أصدق الروابط التى فى إمكانها أن تجمع الجنس البشرى كله في بوتقة واحدة، وننظر كذلك فى بعض الدعاوي التي تضفى على نفسها صفة العالمية وهل لديها من مقومات العالمية، ومن روابط الفطرة الإنسانية ما يجعلها فعلا جديرة بهذا الادعاء أم لا؟

من هذا المنطلق سندرس ثلاث دعوات: الأولى: عالمية الدعوة الإسلامية، والثانية: دعوي عالمية الحضارة الغربية المعاصرة، والثالثة: دعوي عالمية النصرانية باعتبارها الأساس الذي تنطلق منه حملات التنصير المسعورة فى العالم كله.

وستكون الموضوعية - الحيدة والنزاهة - هى منهجنا فى دراسة هذه الدعوات، ونترك كل دعوة تنافح عن نفسها من خلال ما تحويه من مقومات العالمية، أو تتخلى عن الساحة في حالة كذبها وخلوها من هذه المقومات العالمية، وتترك المجال أمام دعوة الحق لتسود ولتجمع هذا الشتات من البشر تحت راية الحب والسلام والحق والعدل ، وصدق الله القائل: **﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾** (١).

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٧

أولا: عالمية الدعوة الإسلامية

إن الدعوة التى انطلقت من مكة المكرمة، وقامت دولتها الأولى فى المدينة المنورة، وأعلنها النبي الكريم محمد ﷺ دعوة للعالمين، هى ذلكم الدين الذى ارتضاه الله للبشرية جميعا، هى «الإسلام» الذي جاء به النبي محمد ﷺ، على فترة وانقطاع من الرسل، لينذر من كان حيا، وينقذهم من ذلك الواقع المتردى الذى عم البشرية كلها. ولننظر بشيء من الإيجاز على أحوال العالم قبل البعثة، وننظر فى أوضاعه المتردية الآن، لنرى هل هو فعلا فى حاجة إلى دين عالمى يجمع شتاته، ويخرجه من تعاسته وشقائه؟

وستكون دراستنا لعالمية الدعوة الإسلامية متضمنة عدة نقاط هى:

١- أحوال العالم قبل البعثة، وأحواله الآن، ومدى حاجته إلى هذا الدين العالمى.

٢- دلائل العالمية في الدعوة الإسلامية من خلال النص والعقل والتطبيق.

٣- موقف المسلمين الأول من هذه العالمية وجهادهم من أجلها، وموقف مسلمى اليوم وتقاعسهم عن نشر دينهم، والعلاج المقترح فى ذلك.

١- أحوال العالم ومدى حاجته إلى دين عالمى:

لقد كانت الفترة التى واكبت مجيء الدعوة الإسلامية من أحلك الفترات التاريخية فى حياة الأمم والشعوب، ولم يكن الأمر قاصرا على تلك الأوضاع المتردية فى الجزيرة العربية ولكن الفساد والانهيار كان عاما فى كل بقاع الأرض، وفشلت الحضارات الموجودة آنذاك أن تحقق للإنسان سعادته واستقراره، وبدل أن تحقق للإنسان ذاته، جعلته أتونا للحروب المتوالية بين الفرس والروم، وخلت الأرض من العقيدة الصحيحة التى تلائم الفطرة الإنسانية، وأصبح أهل الأرض بين دين محرف، أو دين صنعته الأهواء كالوثنية وعبادة النار والشمس والكواكب، وغير ذلك من ألوان الانحراف العقدى.

كما سيطرت على شعوب الأرض أنظمة فاسدة يسود فيها الظلم والطغيان، ويحتقر فيها الإنسان، وتداس فيها كرامة المرأة، وتنتشر فيها الفواحش والموبقات،

وتقطعت فيها العلاقات الإنسانية بين القبائل والمجتمعات، وأصبح العالم محكوما بشريعة الغاب، القوى يأكل الضعيف والغنى يستغل الفقير، والحاكم يستبد برعيته، ولا وازع من دين أو ضمير، اللهم إلا بصيصًا من نور كانت تلوح ومضاته بين الحين والحين فى أخلاق العرب الخلّص من رحمة وشهامة ونجدة، ونصرة للمظلوم وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

فى هذا الوقت العصيب: جاءت الدعوة الخاتمة، الدعوة العامة لكل البشر، الدعوة العالمية لسكان هذا الكوكب الأرضى من الإنس والجن، جاءت الدعوة لتصحح مسيرة الإنسانية، وتجمعها على عقيدة التوحيد الخالصة، وتخلصها من كل عبادة إلا لله وحده، خالقها وفاطرها، جاءت لتصحح علاقة الإنسان بأخيه الإنسان على أساس من الأخوة والمحبة والتعاون على البر والتقوى، جاءت لتصحح نظرة الرجل إلى المرأة، وتضعها فى المكان اللائق بها أما وزوجة وبنتا ورحما، وتخلصها من النظرات الشاذة إليها على مر التاريخ، فليست هى من سقط المتاع، وليست هى شرا يجتنب وإنما هى جزء الإنسان ورفيقة دربه، وأم أولاده، ولها الرحمة والعطف والتكريم، جاءت لتصحح علاقة الحاكم بالرعية علي أساس من العدل والمساواة والرحمة ورعاية الحقوق، ولتصحح علاقةالرعية بالحاكم على أساس من السمع والطاعة فيما أحل الله وأباح وليس فيما حرم ونهى؛ جاءت لتضع من التنظيمات والتشريعات ما يحفظ للإنسان دينه وماله وعرضه ودمه وعقله، ويجعله آمنا فى حياته يرعى حرمات الناس ويرعى الناس حرماته.

جاءت لتضع إطارا من الأخلاق والفضائل لم يعرف له العالم مثيلا من قبل، يجعل الناس فى أسمى معانى الإنسانية الفاضلة، ويسعون دائما إلى تحقيق المثل الأعلى الذي رسمه لهم هذا الدين.

جاءت لتلبى نداء الفطرة، فتعطى للجسد حقه من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وتناسل وذرية ولم تصادر ولا للحظة واحدة على غرائزه وطموحاته في هذه الحياة، وإنما دفعته ليعمرها ويحقق لنفسه ما يصبو إليه من متع فى هذه الدنيا

بلا إفراط أو نسيان للآخرة، وإذا كان للجسد حقه فللروح حقها، من أجل سعادة الإنسان واستقراره، فلابد للروح من غذاء، وغذاؤها عند باريها ونافخها فى الإنسان، إن غذاءها هو فى منهج الله الذى ارتضاه للبشرية دينا ومنهجا قويما.

إنها باختصار جاءت ملبية لفطرة الإنسان فى اعتدال وانسجام، ومحققة لأحلامه وآماله بلا إفراط ولا تفريط، وبلا ضرر ولا ضرار، جاءت بالوسطية، وبالشمولية لكل ما يحتاجه الناس، وبالصلاحية لكل عصر وبيئة، ولكل جنس وقوم على ظهر الأرض، إذ هى منهج الله رب العالمين لكل العالمين وصدق القائل جل ذكره: «**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**».

وإذا كانت أحوال العالم قبل البعثة داعية إلى مجئ دين عالمى يجمع شتاته ويخلصه من شقائه فما أحوج العالم اليوم إلى هذا الدين العالمي الخاتم، ما أحوج العالم اليوم الذى تردى فى جاهلية أشد من الجاهلية الأولى، وظهرت فيه أنواع من المفاسد بمالم يسبق له نظير فى حياة الجاهلية الأولى.

فمن إباحية مطلقة للجنس باسم الوجودية أو نظرية التحليل النفسى أو غيرها من المسميات، ومن ظلم واغتصاب لخيرات الأمم باسم الكشف عن الثروات واستخراجها، ومن نقض للعهود والمواثيق باسم الغاية تبرر الوسيلة، وسياسة ميكافلى وغيره؛ ومن احتكار وتحكم فى الأسواق باسم مصلحة السوق ودعوى العرض والطلب، حتى ولو جاع الآخرون فى شتى بقاع الأرض.

ومن محاربة للدين والقيم باسم التقدم والتحضر، ودعوى أن الدين تخلف ورجعية، وهو أفيون الشعوب ومخدرها عن نهضتها وتقدمها، تحت مسميات الشيوعية والوضعية والتطورية والعقلانية وغيرها من الفلسفات الإلحادية.

ومن إشعال للحروب بين الدول النامية حتى تأكل الحرب كل ثرواتها، وتتعطل مسيرة الانتاج فيها وتبقى ذليلة تابعة لغيرها، وليس الأمر قاصرا على التخلف، وإنما يجعلونها ميدانا لتجريب الأسلحة واختبار فاعليتها وقوتها.

ومن تلوث للبيئة، ودفنٍ للنفايات الذرية فى سواحل الدول الفقيرة وفى أراضيها.

ومن نظام ربوى يثقل كاهل الدولة الفقيرة بالقروض ذات الفوائد المركبة حتى تصبح رهينة أصحاب الأموال، وتملى عليها قرارات المنظمات الدولية باسم صندوق النقد الدولى وضمان البنوك العالمية وغير ذلك من صور التبعية الذليلة.

ومن عنصرية بغيضة تقسم العالم إلى أجناس تجعل الجنس السامى هو أفضل الأجناس وأعلاها وتنظر إلى الآخرين نظرة احتقار وازدراء، وتقسم العالم إلى قسمين: عالم الشمال بماله من سيادة، وعالم الجنوب بما لديه من فقر وتخلف.

ومن .... ومن... حتى أضحت حياة البشر فى هذا القرن فى اضطراب وقلق وفقدت البشرية الأمان والاستقرار وحرمت من الفطرة السوية والعيشة الهنية.

وأصبح العالم الآن فى أمس الحاجة إلى دين عالمى يجمع شتاته، ويلبى لديه نوازع الفطرة السوية، وتتحقق فيه مقومات العالمية وكرامة الإنسانية جمعاء فى كل زمان ومكان، ولن يكون ذلك إلا فى دين الإسلام الذى ارتضاه الله لنفسه وارتضاه لجميع خلقه: ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾ (١) ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾(٢).

٢- دلائل عالمية الإسلام

أولا: الأدلة النصية

أ: من القرآن الكريم:

لقد جاءت فى القرآن العظيم آيات كثيرة تنص على عالمية الدعوة الإسلامية، وأنها الدعوة الخاتمة، وأن الرسول ﷺ مرسل إلى الناس جميعا لا فرق بين عربى ولاأعجمى ولا أحمر ولا أسود ولا أصفر، فأهل الأرض جميعا هم أهل دعوته

---

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ٩٢.

(٢) سورة المائدة م الآية رقم ٣

يقول تعالى: ﴿ تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا﴾ [3] ويقول تعالى: ﴿ إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين. وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[4] ويقول تعالى: ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [5]. ويقول تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [6] ويقول تعالى: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾[7] ويقول تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما﴾ [8] ويقول تعالى: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ [9].

ب- من السنة النبوية:

لقد جاءت أيضا أحاديث كثيرة تدل على عالمية الدعوة الإسلامية، وأن النبى محمد ﷺ هو الرسول المتمم والخاتم لبعثة الأنبياء وأنه لا نبي بعده، ولا دين يقبل عند الله غير الذي جاء به، وأنه بعث إلى الناس كافة ومن ذلك:

ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى

---

(١) أول سورة الفرقان

(٢) سبأ - ٢٨

(٣) الأعراف آية ١٥٨

(٤) الأنبياء آية ١٠٦، ١٠٧

(٥) الأنبياء أية رقم ٩٢

(٦) النساء آية رقم ١٤

(٧) الأنعام آية رقم ٩٢

(٨) الأحزاب الآية رقم ٤٠

(٩) آل عمران الآية رقم ٨٥

الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيين».

ما أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة».

ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن تميم الدارى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولايترك الله بيت مدر ولاوبر إلا أدخله هذا الدين، يعزّ عزيزا، ويذل ذليلا، عزّا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل به الكفر».

جـ- من التوراة والإنجيل:

من المعروف أن التحريف الذى أصاب التوراة والإنجيل هو تحريف لبعض الكلم وليس لكل الكلم وقد بقى فى الكتابين السابقين على القرآن وهما «التوراة والإنجيل» بعض الحق، والذى نتميزه بالعرض على القرآن يقول تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ أى أن الميزان لما فى الكتب السابقة هو القرآن، فما خالف القرآن رفضنا، وما وافق القرآن علمنا أنه مما ترك آل موسى وآل هارون وحوارى عيسى عليهم السلام.

صحيح أننا فى غنية عنهما، وأن الحق الذي جاءنا يكفى ولا داعى لأن نسأل أهل الكتابين، لكن ما الذى يمنع أن نستشهد بما يصدق به الخصم على صحة ما لدينا؟ .

أليس ذلك من الحجة اللازمة عليهم بصحة ديننا؟ وأليس ذلك من ضمن المبشرات التى حملتها التوراة والإنجيل، وجعلها الله علامة على إعجاز القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿**الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل**﴾، وقد توجهت هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة المنبثقة عن رابطة العالم الإسلامى بالبحث فى المخطوطات القديمة للتوراة

والإنجيل لتثبت صحة هذه البشارة كدليل من دلائل الإعجاز العلمى للقرآن، وهى بصدد عقد مؤتمر للبشارات، تعلن فيه هذا الأمر قريبا على العالم كله، وتثبت أن الحجة قائمة على أهل الكتابين من واقع نصوصهم التى يؤمنون بها، وأن بعثة نبينا محمد حق، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكن فريقا منهم يكتمون الحق وهم يعلمون، ومن هذه الدلائل:-

جاء فى التوراة [سفر الثنية ٣٣/ ٢]: «أقبل الله من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتجلى من جبل فاران، وأتى من ربى القدس وعن يمينه قبس شريعة لهم»[١] وفى بعض النسخ: «... عن يمينه نور وعن شماله نور عليه تجتمع الشعوب».

فهذا النص يتناول مسيرة الدعوات السماوية الثلاث [اليهودية والنصرانية والإسلام]، فطور سيناء هو ذلك الجبل المعروف فى سيناء، وهو الذى كلم الله موسى عنده وأرسله إلى بنى إسرائيل، و«ساعير» هى جبال بيت المقدس حيث كانت دعوة عيسى، و«جبال فاران» هى جبال الحجاز حيث كان رسول الله وكانت دعوة محمد ﷺ وهى الإسلام، وبقية النص يبين سمة هذه الدعوة الخاتمة حيث إنها تبلغ من الانتشار والسعة ما يعم الأرض جميعا وتجتمع عليها شعوب العالم كله، فهى دعوة عالمية وليست دعوة محلية.

وجاء فى صحف «أشعيا» من كلام طويل يعاتب فيه بنى اسرائيل، وفيه: «فإنى أبعث إليكم وإلى الأمم نبيا أميا ليس بفظ ولا غليظ القلب، ولا صخّاب فى الأسواق، أصدّره لكل جميل، وأحبّب إليه كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى فى ضميره، والحكمة مقولته، والوفاء طبيعته، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى ملته، والإسلام دينه، والقرآن كتابه، أحمدٌ اسمه، أهدى به من الضلالة، وأرفع به الخمالة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين القلوب المختلفة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، قرابينهم دماؤهم، وأناجيلهم فى صدورهم، رهباناً بالليل، ليوثا بالنهار، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

---

(١) الكتاب المقدس النسخة الكاثوليكية باللغة العربية.

وجاء فى إنجيل «يوحنا» [1]: «إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى، وأنا أسأل الأب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق» (الفصل ١٤/ ١٥- ١٧) وهذا النص يشير إلى بعثة نبينا محمد ﷺ وإلى خلود رسالته إلى يوم الساعة وإن صح هذا النص، فهو عين ما أخبر به القرآن فى سورة الصف فى قول الله تعالى: ﴿**وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين**﴾ [2].

ثانيا: الأدلة العقلية

إذا كنا نبحث عن أدلة عالمية فى ضوء المعايير العقلية للبشر، فأول شئ نبدأ به هو طرح هذا التساؤل: ما هى مقومات العالمية؟ وفى أي دين سماوي أو نظام تشريعى توجد الآن؟ إن مقومات العالمية - كما أراها - تتلخص فى الركائز الأتية:-

١ - إلغاء العنصرية والنظرة الاستعلائية بين شتى الأجناس البشرية بحيث يشعر الجميع بأنهم سواسية كأسنان المشط، وأنهم سواء لا فضل لجنس على جنس ولا لشعب على شعب مهما اختلفت حضارته ولغته وبيئته.

وهل نجد ذلك فى غير الإسلام، ذلك الدين العالمى الذى حملت لنا نصوصه هذه التعاليم: «**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**»، «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**» وقول النبى ﷺ «أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»، ويقول أيضا: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية».

---

(١) وجاء أيضا فى أنجيل يوحنا الفصل ١٦/ ٧ - ١٣ ما نصه: ألا إنى أقول لكم الحق، إن في انطلاقي خيرا لكم لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم المعزى، ولكن إذا مضيت أرسلته إليكم. . . ولكن متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما يأتى

(٢) سورة الصف : الآية رقم ٦

٢ - تلبية الفطرةالإنسانية، فالإنسان هو الإنسان مهما اختلفت لغته وبيئته وحضارته، خلقه الله من الطين وسواه ونفخ فيه من روحه، فللجسد مطالبه وللروح مطالبها، للجسد غرائزه وشهواته، وللروح سموها وإشراقاتها، ولابد من تحقيق الأمرين معا، فلا مصادرة على الغرائز ولا إهمال للروح، وأي إهمال في أحدهما يجعل الإنسان قلقا مضطربا لايشعر باستقرار ولاسكن، ولابد من التوازن فى حياة الإنسان فلا يُهمل الجسد لحساب الروح، ولا تُهمل الروح لحساب الجسد.

وهل نجد ذلك جليا إلا فى الإسلام ذلك الدين العالمى، الذى جاء ملبيا لنداء الفطرة السوية فى الإنسان يقول تعالى: «**فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم**» وقد حملت لنا نصوصه هذه التعاليم السامية:

يقول تعالى لأبينا آدم: ﴿**إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى**﴾ (١) ويقول تعالي: ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ (٢) أى طلب منكم عمارتها والسعى فى الأرض من أجل تحقيق مطالب الجسد، ويقول أيضا: ﴿**فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾(٣) ويقول تعالى: ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلايضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا**﴾ (٤).

٣ - نظام تشريعى يتحقق فيه الشمول لكل مناحى الحياة، وتتحقق فيه الصلاحية لكل العصور ولسائر الأمم بما يرتكز عليه من اعتدال، ومن عدل، ومن رحمة، ومن حق، بحيث يصبح الكل أمامه سواء، تراعى فيه الحقوق، وتصان فيه المحارم، وفيه من الزواجر والروادع والحدود، ما يكفل حماية الحقوق ويضرب علي أيدى العابثين بأمن الناس فى أى وقت. وهل نجد ذلك إلا فى الإسلام، ذلك الدين العالمى الذى جاء بأعظم وأكمل وأعدل نظام تشريعى عرفته الدنيا كلها.

---

(١) طه: الآيتان رقم : ١١٨، ١١٩

(٢) هود: الآية رقم ٦١

(٣) البقرة: الآية رقم ٣٨

(٤) طه: الآيتان رقم ١٢٣، ١٢٤

فكان نظامه الاقتصادي أساسه العدل والرحمة فلا غش ولا احتكار ولا ظلم ولا اعتداء ولا ربا.

وكان نظامه السياسى أساسه الحماية والرعاية فلا استبداد ولا قهر، وإنما رحمة وعدل، وكان نظامه الاجتماعى أساسه التكافل والتراحم والتواصل، فالمجتمع كله لحمة واحدة..

وكان نظامه الجهادى أساسه الحماية للآمنين المسالمين وتوصيل الخير إلى الناس أجمعين، وكانت الحدود هى صمام الأمن لكل من يعبث بشىء من هذه الحقوق بحيث يأمن الناس على أعراضهم وعلى أموالهم وعلى عقولهم وعلى دمائهم وعلى دينهم.

٤ - نظام أخلاقى يحفظ للإنسانية سلوكها فى شكل مهذب يتلاءم مع تكريم الإنسان ويرتفع به إلى المثل الأعلى فى ظل مجتمع فاضل كريم، فلا غش، ولا خداع، ولا كذب ولا ظلم، وإنما حب وتراحم، وسلام وتعاون، وبر ونجدة وتكافل، وصدق النبي القائل: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

٥ - وينتظم ذلك كله عقيدة التوحيد الصافية التي تجمع كل البشر على ربهم الواحد، وتخلصهم من كل الشوائب وتجعلهم يتركون تلك الآلهة المصنوعة ويتخلون عن تلك المعبودات الزائفة من عبادة المال أو الهوى أو النظام أو المادة أو العلم، إنهم باختصار يتركون عبادة الطاغوت إلى عبادة الله الواحد، الذى خلقهم ورزقهم ومنه كان مبتدؤهم وإليه مرجعهم، وقد شرع لهم من ألوان العبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك من ألوان الطاعات ما تصفو به نفوسهم وتطهر به أرواحهم، ويحقق لهم السكينة والأمن، تلك السكينة التى هم فى أشد الحاجة إليها فى هذا العصر، وإنها لأعظم عطية يتفضل الله بها على عباده يقول تعالى: **﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾** [2].

(١) أخرجه البخارى من رواية النعمان بن بشير فى صحيحه باب الأدب باب رحمة الناس والبهائم

(٢) سورة الفتح: الأية رقم ١٨

ثالثا: الأدلة التطبيقية

١ - لقد أمر الله رسوله من أول لحظة فقال له «يا أيها المدثر قم فأنذر»، ثم قال له «فاصدع بما تؤمر» ثم قال له «لتنذر أم القرى ومن حولها»، وما توانى الرسول لحظة فى تبليغ رسالة ربه، وما نسي لحظة أنه مرسل إلى العالمين، وما أن عقدت قريش مع النبى صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة، حتى سارع الرسول ﷺ بإرسال الكتب إلى ملوك العرب والعجم يدعوهم إلى الإسلام، فبعث إلى هرقل ملك الروم برسالة مع دحية بن خليفة الكلبى، وبعث برسالته إلى المقوس ملك مصر والأسكندرية مع حاطب بن أبى بلتعة وبعث برسالته إلى كسرى ملك الفرس مع عبد الله بن حذامة السهمى، وبعث برسالته إلى النجاشى ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، وبعث برسالته إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين مع العلاء بن الحضرمى، وبعث برسالته إلى هوذة بن على صاحب اليمامة مع سليط بن عمرو العامرى، وبعث برسالته إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى صاحبى عمان مع عمرو بن العاص، وبعث برسالته إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى مع شجاع بن وهب من بنى أسد، وكان من هؤلاء من أسلم ومنهم من رد رداً جميلا، ومنهم من تكبر وتغطرس، ولكن الغاية قد تحققت من هذه الرسائل حيث قد بلغ الرسول دعوة ربه، ودعاهم جميعا إلى الإسلام، وبين لهم أنه رسول رب العالمين إلى كل العالمين وليس إلى العرب وحدهم، وأنهم مسئولون عن أممهم وشعوبهم ولم يكتف الرسول ﷺ بالإنذار بل أعد فى حياته جيشا وأرسله إلى مؤتة على مشارف الجزيرة العربية من ناحية الشمال، وكذلك قاد بنفسه غزوة تبوك، وأعد أيضا جيش أسامة بن زيد ولكنه قبض قبل سفر الجيش فأرسله أبو بكر وأنفذه حيث كان الرسول ﷺ يريده على مشارف الجزيرة العربية، وكانت هذه الجيوش بمثابة الخطوات العملية فى تبليغ دعوة الإسلام خارج نطاق الجزيرة العربية، ولم يكن الهدف هو الحرب وإراقة الدماء، وإنما كان الهدف هو إفساح الطريق أمام دعوة الإسلام والتعريف بها، ومجاهدة الحكام والأمراء الذين يصدون عن سبيل الله ويحولون دون وصول الدعوة إلى علم أقوامهم وشعوبهم المغلوبة على أمرها.

وقد واصل الخلفاء الراشدون المسيرة بعد النبيﷺ وكانت الفتوحات الإسلامية لبلاد العراق وفارس والشام، وبلاد الأفغان وشمال إفريقية وانتشر الإسلام فى ربوع الأرض بلا إكراه، ودخلت فيه الأمم عن رضا وحب، لأنهم وجدوا فيه غايتهم وأنه يتلاءم مع الفطرة السليمة والخلق الكريم وامتدت دولة الإسلام من تركيا شمالا إلى اليمن جنوبا ومن الأندلس غربا إلى الصين شرقا، وانصهرت الأجناس والشعوب رغم اختلاف لغاتها وعاداتها وتقاليدها فى الإسلام، وتمسكت به وعضت عليه بالنواجذ، بل وساهمت فى صرحه العلمى؛ ورغم انحسار الدولة الإسلامية عن هذه المناطق الإسلامية إلا إنها بقيت على إسلامها مما يدل على أن الإسلام دين الفطرة، وأن من عرفه لا يمكن أن يرضى بغيره بديلا، وبقاء هذه الدول على الإسلام رغم محاولات المسخ والتعذيب والاضطهاد: لهو أكبر دليل على أن الإسلام لم ينتشر بينهم بالقوة أو فرض عليهم بالعنف وإنما دخلوه غير كارهين، وسعدوا به وتمسكوا به رغم كل المحاولات المبذولة لتخليهم عنه.

٢ - أيضا يعتبر قيام الدولة الإسلامية واستمرارها قرابة عشرة قرون أو يزيد، وهى تضم تحت سلطانها العديد من الأجناس من الفرس والرومان والبربر والأحباش والأفغان والعرب، والكل يعيش فى أمن واستقرار وسعادة بتعاليم الإسلام إن ذلك يعد أكبر دليل على طبيعة الإسلام العالمية، وأن تعاليمه ليست تعاليم نظرية أو فلسفية مجردة لا تصلح للتطبيق، كلا وإنما انطوى تحت لوائه شتى الأجناس وشتى الشعوب رغم اختلاف البيئات واللغات والعادات، وقد وجد الجميع فى الإسلام غايتهم، ووجدوا فيه ما يلائم فطرتهم وما يحقق أحلامهم من عدل ورحمة ومساواة وتعاون وتكافل جعل الأمة الإسلامية كلها على قلب رجل واحد، وذابت العنصرية، وانصهرت الشعوب كلها فى بوتقة التوحيد وصدق النبى القائل: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه [1].

٣ - ومن دلائل العالمية أيضا ما أعلنه النبيﷺ من عالمية هذا الدين دون غيره من الرسل السابقين، ولم يقم دليل صحيح على عالمية دين غير الإسلام، كما لم

(١) الحديث متفق عليه ورواه البخارى فى صحيحه فى كتاب الصلاة باب تشبيك الأصابع فى المسجد.

يقم دليل صحيح ينقض عالمية الإسلام حتى الآن، ولعل زوال المعجزات التى جاءت بها الأنبياء السابقون وبقاء معجزة نبينا محمد ﷺ معجزة خالدة حتى يوم القيامة لهو أكبر دليل على عالمية الدعوة الإسلامية، فقد جاء القرآن معجزة الإسلام وهو يحتوى على دلائل الإعجاز التى لاتنتهى، ويحتوى منها على ما يبهر كل العقول، ويجد فيه كل عصر ما يناسبهم فى هذا القرآن، وصدق الله القائل: ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾، وكل باحث فى جانب من جوانب المعرفة الإنسانية أو الطبيعية يجد فى القرآن مايبهره، فهو لاتنقضى عجائبه ولاتفنى غرائبه ولايخلق على كثرة الرد، يجد فيه الباحثون غايتهم من علماء التاريخ وعلماء الفلك وعلماء الطبيعة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الأديان وسائر التخصصات إنهم جميعا يقفون أمام إخبار القرآن وإعجازه فى كل هذه الجوانب، يقفون مبهورين بهذا القرآن العظيم، وقد أشار النبى ﷺ إلى تلك الحقيقة في قوله «ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(١).

٣- موقف المسلمين الأول من عالمية الدعوة وموقف مسلمى اليوم

إن مابذله السلف الأول من جهود فى نشر الإسلام لايخفى على أحد، فقد جاهدوا بأنفسهم وجاهدوا بأموالهم، وجاهدوا بألسنتهم، وجاهدوا بسلوكهم، فكانوا قدوة ومثلاً يحتذى فى أعين الآخرين، لقد طبقوا الإسلام فى أنفسهم وتمسكوا به وكانوا نماذج حية له قبل أن يدعوا غيرهم للدخول فيه، فكان لهم أبلغ الأثر فى نشر الإسلام فى ربوع الأرض، وليس أدل على ذلك من وصول دولة الإسلام فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى جبال طوروس شمالاً [حدود تركيا] وإلى اليمن جنوبا، ومن طرابلس الغرب [فى ليبيا] غربا إلى «كابل» فى أفغانستان شرقا.

---

(١) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن باب ١ حديث رقم ٤٩٧٨.

ولم يأل هؤلاء جهدا فى سبيل الدعوة، وتركوا ديارهم وأوطانهم وانضموا إلى كتائب الجهاد متمثلين حديث رسول الله ﷺ «لئن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم» فجزاهم الله عن الإسلام وعن المسلمين وعنا أفضل ماجازى به عباده الصالحين.

ولكن الذى يندى له الجبين، وتدمع له الأعين هو حال المسلمين اليوم، فرغم احتياج العالم أجمع إلى مابين أيديهم من دين، وتعطش الأمم والشعوب إلى ما يروى ظمأها من هذه المثل الكريمة التى فى الإسلام، وتطلعهم إلى ما يسدّ هذا الخواء الروحى وإلى ما يصلح هذا الخلل فى مسلكهم ونظام حياتهم من عقيدة الإسلام الصافية وتشريعاته المحكمة المتوازنة، رغم هذا كله، ووضوحه لكل ذوى بصيرة، إلا أننا نجد المسلمين متقاعسين متخاذلين عن نشر دينهم، رغم هذه الفرصة السانحة فى أحوال العالم الآن شرقه وغربه، واحتياجه إلى دين عالمى يجمع شمله ويحقق توازنه ويلبى نداء الفطرة، إلا أننا- نحن المسلمين- فى غفلة ساهون، ففى أيدينا الدّر، ولكن لانُلقى له بالاً.

وما أحسنها كلمة سمعتها من الشيخ أحمد ديدات بعد أن عرض لما فى التوراة والإنجيل من انحرافات، وساق من نصوص التوراة ما تتقزز النفوس من ذكره لما فيه من فحش فى القول. قال: لماذا ينتشر كتابهم ولاينتشر كتابنا وهو الصدق والحق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ وكانت الإجابة لأنهم يتكلمون عن دينهم ويسعون فى نشره ونحن صم بكم عمى، فلا نتكلم ولاندعو ولانتحرك لنشر ديننا.

إن الناظر فى أحوال المسلمين اليوم يجد العجاب، فقد أصاب الأمة الإسلامية الوهن، وتخاذلت فى تطبيق تعاليم هذا الدين، وأحلت العقل محل الشرع فى قوانينها ونظم حياتها، إنها باختصار تخلّت عن الإسلام فى حياتها فكيف تدعو إليه غيرها؟.

ولكن- كما أخبر الصادق المصدوق- لايزال الخير فى الأمة إلى يوم القيامة، وأنه يوجد فى كل عصر عدول يحملون هذا الدين ويحمونه، ومانراه اليوم فى شباب الصحوة لهو أكبر دليل على بقاء الخيرية فى هذه الأمة.

ونشر الإسلام وتحقيق عالميته فى هذا العصر يحتاج إلى جهاد ضخم، وإلى خطط محكمة، وتضافر لجهود الأمة كلها من علماء وحكام وأصحاب الأموال والنفوذ وغيرهم. وسأسوق بعض المقترحات فى هذا الصدد. عسى أن تسهم فى تحقيق هذا الأمل:-

أولاً: لابد من تطبيق الإسلام فى نفوسنا أولا، وليبدأ كل إنسان بنفسه، فلن يستقيم الظل والعود أعوج.

ثانيا: لابد من تطبيق الإسلام فى سياسة الدول الإسلامية والتحاكم إلى شريعة الله حتى يتكون المجتمع القدوة والنموذج الأمثل لدولة الإسلام فى دنيا الواقع ويتحول الإسلام من كلام إلى تطبيق، فالإسلام ليس فلسفة نظرية وإنما هو أيدولوجية مطبقة فى الواقع.

ثالثا: لابد من إحياء وتطبيق مافعله الرسول ﷺ فى دعوة الملوك والأمراء وعلينا أن نرسل الرسل والكتب إلى حكام الأرض ندعوهم إلى الإسلام.

رابعا: على الدول الغنية وأصحاب رؤوس الأموال استغلال الوسائل المتاحة فى الدول غير الإسلامية من تلفزيون وإذاعة وصحافة وإعداد الكوادر الجيدة للدعوة إلى الإسلام من خلال هذه الوسائل حتى يسمع العالم صوت الإسلام نقيّا من الشوائب التى علقت به على أيدى المستشرقين، والمنصرين من رجال الكنيسة، ولابد من تصحيح صورة الإسلام التى شوهّها أهل الحقد والضلال على مر التاريخ؛ فكثير من أبناء الغرب لايعرفون عن الإسلام سوى أنه انتشر بالسيف، وأن العرب مصاصوا دماء، وأن النبى محمداً ﷺ كان مزواجا ومغرماً بالنساء إلى غير ذلك من صور التشويه للإسلام.

خامسا: لابد من الاهتمام بالقرآن الكريم من زاويتين هما:-

أ - إذاعته مرتلاً بصوت خاشع فى جميع بلاد العالم ولو بشراء إذاعات ومحطات إرسال، وقد أصبح ذلك أمرا ميسوراً الآن فى دول العالم، حيث إن سماع

القرآن الكريم يشدّ الفطرة ويوقظها من سباتها، ونحن نعلم كيف أن مشركى مكة تخوفوا على أولادهم ونسائهم من سماع القرآن من أبى بكر الصديق.

ب - إبراز الجوانب العلمية فى القرآن- خاصة- ونحن فى عصر العلم، ويوجد فى القرآن الكريم أكثر من ثماني مائة آية تتناول الكون والنفس والحياة، وقد وضعت هيئة الإعجاز العلمى قدمها على هذا الطريق ولكنها تمشى مشية السلحفاء فى هذا الميدان والأمر يحتاج إلى تضافر الجهود وتدفق الأموال حتى نستطيع أن نجتذب عباقرة العالم والعلماء فى شتى التخصصات ليبحثوا لنا عن الإعجاز العلمى فى الآيات الكونية والنفسية، وإذا كانت سياسات الدول الآن تقوم باجتذاب العلماء من كل مكان للاستفادة منهم فى تطوير السلاح وتطور العلوم، فلماذا لانفعل ذلك ونبرز من خلالهم عظمة هذا القرآن ويعلم كل أهل الأرض- من خلال تجلية آياته- أنه كلام رب العالمين وأنه الكتاب الحق والخاتم والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وساعتها قد تستيقظ الفطر النائمة وتتحرك العقول المفتوحة بالعلم فتؤمن بالحق وتدخل فى الإسلام وتتحقق الدعوة العالمية لهذا الدين فى هذا العصر.

سادسا: لابد من إعداد كوادر خاصة من الدعاة يحملون عبء نشر الإسلام بين دول العالم، وهذا يحتاج إلى إنشاء معهد عالمى للدعوة، يختار له نخبة من طلاب العلم النابهين المخلصين، ويدرسون بجوار العلوم الشرعية والعربية علوم البيئة والسياسة والاقتصاد والاجتماع، ويمكن تقسيم الفصول الدراسية فى هذا المعهد على حسب مناطق العالم، وتقسم مجموعات الطلاب على حسب البيئات فكل مجموعة تدرس اللغة التى يتحدث بها أبناء المنطقة التى يتوجهون إليها ويتعرفون على جغرافيتها وطبيعة السكان، والنظام السياسى، والتركيبة الاجتماعية للسكان وغير ذلك مما يمكنهم من الانصهار مع البيئة والتفاعل معها من أجل الوصول إلى الهدف وهو نشر الإسلام ودعوة الناس إليه، وكما تحرص بعض

الدول على إعداد الطيارين الحربيين وضباط الشرطة والأمن، وتكفل لهم الرعاية المستمرة فى دور التعليم ليلا ونهاراً حتى يجمعون بين النظر والتطبيق ويتعودون على الضبط والالتزام، فما أشد الحاجة إلى إعداد كوادر الدعاة الذين يجمعون بين النظر والتطبيق، بحيث تذهب هذه المجموعات فى دورات تدريبية إلى هذه البيئات التى سيتوجهون إليها بعد تخرّجهم ولن نقول: ينبغى أن نفعل كما تفعل مؤسسات التنصير الآن، فإن ديننا وسلفنا قد سبق هؤلاء فى أمر الدعوة بين شتى الأمم بالقدوة والعرض المنظم الواعى للإسلام مما جعل هؤلاء يقبلون على اعتناقه بعد وقت قصير من الدعوة.

وأملنا كبير فى الصحوة الإسلامية المعاصرة، ورجاؤنا فى الله عز وجل أكبر فهو ناصر دينه وحافظه : **﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾**. (1)

(1) سورة الصف: الآيتان ٨, ٩.

[ثانيا: دعوى عالمية الحضارة الغربية]

إن شعار العالمية الـذى ترفعه الحضارة الغربية شعار براق، ونزعـة الإنسانية التى تظهر بين الحين والحين نزعة جذابة تستهوى الأنفس.

لكن لابـد أن نتساءل عن حقـيقة العالمـية أو الإنسانيـة التى تنادى بهـا الحضارة الغربيـة، وأن نتعرف على حـقيقة تلك الشـعارات التى ترفعهـا بين الفينة والـفينة وهى:

يا أخى: كن إنسانّـى النزعة، لاتجعل الدين يـشكّل مشاعر الولاء والـبراء نحو الآخرين، إنس كل شئ إلا شـيئا واحدا فقط وهو أننا شركاء فى الإنـسانية، تعال نصنع الخيـر للإنسانية كلهـا غير ناظرين إلى جنـس أو لون أو وطن أو دين، ضع يدك فى أيـدينا من أجـل الإنسانيـة المعذبة فـى الأرض لنخرجـها إلى عالـم الحب والوفاء والسلام.

فى الواقع: ما أجـمل هذه العـبارات، وما أعذبـه من لحن يسـتهوى الحمـقى والجاهلين الـذين يجهلون حقـيقة هذه الشعارات، إنـها شعارات مغرضة لـيس لها أدنى رصيد فى واقـع الحياة، إنها فقط للـضحك على الذقون من أجـل استحمار الأمميين، إنها موجهة إلى المسلمين من أجل سـلب دينهم، وانخلاعهم من هويتهم وذاتيتهم الإسلامية.

إنها لاتختلف عن شعار «**الماسونية**» الحاقدة الذي يقول: [من أراد أن يعمل معنا من أجل الإنـسانية فـليخلـع دينه علـى الباب كمـا يخلع حـذاءه أو نعليـه]، لقد افصحـت الماسونية عن مـقصدها دون مواربة، ولـكن الحضارة الغـربية الصليـبية الحاقدة تناور وتحاور من أجـل تحقيق نفس الهدف، وهو خلع المسـلمين من دينهم والقضاء على روح الجهاد فى نفوسهـم، وإسقاط عقيدة الولاء والبراء فى الإسلام التى تتحـدد فى إطارها هوّية المسلم الحقـيقى. وتجميد «عالمية الـدعوة الإسلامية» وخلع فـريضة الجهاد الـتى تقوم علـى نشرها وتـوصيلها إلـى العالم أجمـع، إنها باختصار تريد من المسلم أن يقبع فى مكـانه ولا يفكر لحظة فى نشر دينه، بل تريد

أن تسلبه تميزه واستعلاءه بدينه، وتجعله يشعر بالإحباط والذل والهوان، ولم يعد أمامه إلا الانضواء تحت الحضارة الغربية العالمية، وينسى كل شئ عن دينه وتاريخه ولغته وتراثه، ويذوب فى الحضارة والثقافة الغربية الجديدة.

وما أبلغها كلمة قالها الأستاذ محمد قطب فى هذا الصدد عن دعوى الإنسانية التي ترفعها الحضارة الغربية فيقول: «إن دعوى «الإنسانية» من أسلحة الحرب الموجهة ضد روح الجهاد عند المسلمين- حيث يقولون- يا أخى : لقد تغيرت الدنيا، لاتتكلم عن الجهاد، أو إن كنت لابد فاعلاً فتكلم عن الجهاد الدفاعى فحسب، ولاتتكلم عنه إلا فى أضيق الحدود، فهذا الذى يتناسب اليوم مع «الإنسانية المتحضرة» لقد كانت للجهاد ظروف تاريخية وانقضت، أما اليوم فقد أصبحت الإنسانية أسرة واحدة، وهناك قانون دولى وهيئات دولية تنظر في حقك وتحل قضاياك بالطرق الدبلوماسية» فإذا فشلت تلك الهيئات فى رد حقك المغتصب فعندئذ لك أن تقاتل دون حقك ولكن لاتسمّه «جهاداً» فالجهاد قد مضى وقته، وإنما سمّه دفاعا عن حقوقك المشروعة.

أما نشر الدعوة فإياك أن تتحدث فيه عن الجهاد، هناك اليوم وسائل «إنسانية» لنشر الدعوة فاسلكها إن شئت، هناك الكتاب والمذياع والتلفاز والمحاضرات والدرس . . إياك إياك أن تتحدث عن الجهاد فتكون مضغة فى أفواه المتحضرين.

ولا نقول : أين هى الهيئات الدولية فى قضية فلسطين؟ وفى قضية الفلبين؟ وفى قضية كشمير؟ وفى قضية الحبشة وإرتيريا؟ وفى قضية البوسنة والهرسك؟. . . وفى كل قضية كان المسلمون طرفا فيها؟ اين هى الحقوق التى ترد بالطرق الدولية أو العدوان الذى يصد؟.

ولا نقول لهم: ماقيمة هذه الهيئات الدولية والقانون الدولى وكل الإجراءات الدولية؟ إذا كان هذا القانون يعترف رسميا بأن هناك جبابرة خمسة فى الأرض لهم الحق- الشرعى- أن يوقفوا أى إجراء لا يوافق أهواءهم ومطامعهم العدوانية- مهما يكن عادلاً فى ذاته- عن طريق «**الفيتو**» لانقول لهم ذلك لانه لا فائدة من جدالهم إنما نقول لهم: إن إسرائيل تضرب بقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن

عرض الحائط وتعلن فى تبجح- وهى المعتدية دائما- أنها لن تخضع لهذه القرارات ولن تلتزم بـها ولايتحرك «**الإنسانيون**» لتأديـبها، إنما يُشـهر سلاح «**الإنسانية**» فى وجه المسلمين فقط حين يطالبون بحقهم المشروع»[1].

- **وإن الناظـر في الحضارة الغـربية يجدهـا تقوم على ركـيزتين**: لاتتفـقان مع العالمية فى شئ وهما : العنصرية والمادية.

أما عن العنصرية في الحضارة الغربية: فحدث عنها ولاحرج، حيث تتحرك الأمم الغربية في علاقاتها مع الأمم الأخرى بدافع الاستعلاء والغطرسة والكبرياء، وينظرون إليـهم بعين الازدراء والاحتقار، وأنهم غـير جديرين بالتقـدم والتحضر، إنهم يعتبرون أنفسهم الجنس الجدير بالحياة والتقدم، وأنهم المؤهلون بالعمل والعقل للقيام بـأعباء الحضارة العالميـة، وأما بقية الشعوب فـهى متخلّفة لاتملـك من أمرها شيئا. وليست جديرة بأية حضارة، إنهم أشبه بالبقرة الحلوب، فهم مصدر للثروات والمعادن، وهـم سوق لتصـريف المنتـوجات، وهم أعجـز من أن يتخـذوا قرارهم بأنفـسهم، ولهـذا تُملى علـيهم القـرارات، وهم كقطع الـشطرنج تحركـهم الدول المتقدمة كما يريدون، فهل تصلح هذه النظرة فى مقومات العالمية؟.

إن نعرة الجنس السامى، والجنس الجرمـانى والجنس الآرى... إنها دعوة منتنة كما قال الـنبى- ﷺ - فى شأن العصـبية: [دعوها فإنها مـنتنة] إنها دعوة بـغيضة لاتتقبلهـا الفطر السليمة، وهل الحضارة الـغربية التى تجتاحها القـوميات من جانب والعصبيات العرقية والدينية والسيـاسية والاجتماعية من كل جانب، هل تصلح أن تكون عالمية لنأخذ مثالاً واحدا فقط، يكون بمثابة الشاهد الحىّ الآن وهى «**البوسنة والهرسك**» فما هو رصـيد الإنسانية فى أرض مسـلمى البوسنة والـهرسك؟ وأين الشـرعية الدولـية؟ وهل هـذا السكوت مـن المجتمـع الدولى عـلى تلك المـذابح للمسلمين العزل من السلاح وتشـريدهم، وبقر بطون الحوامل، واغتصاب أعراض الفتيات المسلمات، وتدمير المساجد، وتخريب المدن و... و... هل يعد ذلك من الإنسانيـة؟ وهل هذه هى أخلاق العـالمية عند الحضـارة الغربية وهل تَـرْك الصرْب

(١) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب ص ٥٩٨, ٥٩٩ طبعة سنة ١٩٨٣ دار الشروق.

النصارى يعبثون في الأرض فساداً وتواطؤ القوى الدولية معهم وإمدادهم بالسلاح من أجل تصفية المسلمين هناك، هل يعد ذلك من العالمية الدولية فى شئ؟ فما بال «**الإنسانيين**» لايتحركون؟ وما بالهم لايصرخون فى وجه الظلم ووجه الحقد الصليبى الذى لاقلب له ولاضمير؟ أم أنهم فقط لايصرخون إلا فى وجه الإسلام، وفى وجه الصحوة الإسلامية، فيبذلون الأموال ويضعون الخطط ويستأجرون الحكام من أجل إبادتها وإسكات صوتها؟ إنه حقا زمن العجائب!.

إن العنصرية أو القومية أو الوطنية كلها انتماءات لاتتلاءم مع الفطرة الإنسانية ولايمكن أن تؤسس عليها «**عالمية**» فالولاء للوطن والتعصب له، والولاء للجنس والتعصب له، إنما هو انغلاق فى دائرة الإنسانية الرحبة، ولايجرّ وراءه إلا الشر والدماء والحروب، وكلنا يعرف ذلك الصراع المرير الذي عاشته أوروبا بسبب القوميات الناشئة وهو مايعرف فى التاريخ الأوروبى بالحروب الإيطالية فى الفترة مابين [١٤٩٤-١٥٥٩م] حيث تنافست فرنسا وإسبانيا على السيطرة والنفوذ في أوروبا، وكانت شبه الجزيرة الإيطالية ميدانا لتصارع الجيوش الفرنسية والإسبانية.

وقد ارتبطت القوميات فى أوروبا بالاستعمار بكل بشاعته، فقد حركت الكنيسة روح القومية والعصبية ضد المسلمين فى الأندلس، وكانت الإبادة الوحشية التى لم يشهد لها التاريخ مثالاً، ثم كانت الحروب الصليبية حيث زحفت أوروبا إلى بلاد المسلمين، بل كانت القومية والعنصرية وراء الحرب العالمية الأولى والثانية، وأثر العنصرية واضح فى هذه الحرب بين هتلر وخصومه، بل كانت القومية التى خطط اليهود لانتشارها فى البيئة الإسلامية هى التى أسقطت الخلافة الإسلامية، ومزقت شمل الأمة الإسلامية حيث كانت القومية الطورانية فى تركيا- والتى نادى بها حزب الاتحاد والترقى هناك- كانت وراء إسقاط السلطان عبدالحميد، وإسقاط الخلافة الإسلامية، وكانت القومية العربية التى نشأت على أيدى نصارى لبنان وسوريا ونادت بانفصال العرب عن تركيا، وظهر شعار العروبة والقومية العربية ثم جامعة الدول العربية، وحزب البعث العربى وسادت النزعات الإقليمية والوطنية وتفتت وحدة الأمة الإسلامية، وقامت بين دولها الحروب، وانعزل المسلمون

العرب عن بقية المسلمين فى جنوب شرق آسيا وفى وسط وجنوب أفريقيا وفى بلاد ماوراء النهرين، وأصاب المسلمين الوهن والضعف بسبب هذه النزعات العنصرية والقومية وتحول الولاء إلى الوطن وإلى الجنس وإلى اللغة، وضاعت وحدة الأمة الإسلامية التى صهرها الإسلام فى بوتقة واحدة ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

إن القومية أو الوطنية أو الإقليمية كلها دعوات عنصرية تفرق شمل العالم ولا تجمعه، إن الذى فقط يجمع العالم كله هو شعار الأمة الواحدة، أمة العقيدة، التى تنصهر فيها القوميات والأجناس واللغات، إنها أمة الإسلام التى جعلت بلالاً الحبشى، وصهيباً الرومى، وسلماناً الفارسى، فى القمة مع السادة من قريش وكان الرسول ﷺ يقول «سلمان منا أهل البيت» وكان عمر يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» يقصد بلالاً، إنها حقا قمة لم تصل إليها أية أمة في العالم إلا الأمة الإسلامية التى ذابت فيها كل الفوارق وكل الأجناس وكل القوميات والعنصريات، وأصبح الناس فيها سواسية كأسنان المشط، أمة واحدة وصدق الله القائل «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون».

- أما الركيزة الثانية للحضارة الغربية فهى «المادية»:

فالحضارة الغربية المعاصرة الآن هى حضارة مادية بل هى غارقة فى المادية حتى شحمة أذنيها، هى مادية فى فكرها، ومادية فى سلوكها ومادية فى قوانينها وعلاقاتها الدولية، إن الحضارة التى تقوم على انشطار الإنسان إلى نصفين جسم وروح، فتعطى للجسم كل متعة وتطلق له الغرائز وتهتم بكل ألوان الترفيه والتدليل لهذا الجسد الفاني ولاتقيم وزنا للروح بل وتعتبر التدين أفيون الشعوب، وإذا أبقت على شئ فيه فإنما هو رمز فقط، وهو علاقة خاصة، وليس له أدنى رصيد فى الواقع أو النظام أو القانون أو السلوك الخاص والعام للأفراد والحكومات.

إن الحضارة التي توجهها «الوضعية» و«الوجودية» و«الماركسية» و«العلمانية» و«الدارونية» و«البرجماتية» و«الميكافيلية» و«الضرويدية» و«الدوركايمية» و. . .

و. . . إلى آخر هذه الإفرازات الفكرية المادية والتى انعكست على سلوك الأفراد والمجتمعات، وأضحى الإنسان يعيش كالآلة أو إن شئت قلت كالحيوان لاهم له إلا بطنه وفرجه، لاهم له إلا متعته ومصلحته، والغاية تبرر الوسيلة، وأنا وبعدى الطوفان، هل هذه الحضارة الأنانية تصلح أن تكون عالمية؟ وهل الحضارة التى ترعى فى الإنسانية جانبها المادى وتهمل جانبها الروحى تصلح أن تتلاءم مع الفطرة الإنسانية؟ وهل بالجسد وحده يحيا الإنسان؟ إن هذه الانشطارية فى الحضارة الغربية تجعل الناس تعيش فى قلق واضطراب ولاتشعر براحة واستقرار، وكيف يشعر إنسان بسعادة وهو يعيش بشق واحدة يعيش بجسده ويفصل الروح عن خالقها وفاطرها ومبعث سرورها وسعادتها؟.

إن من أهم مقومات العالمية مبدأ «**رعاية الفطرة**» وهو المبدأ الذى تخلو منه الحضارة الغربية فى فكرها وفى توجهاتها وفى واقعها وفى علاقاتها، ولذلك فهى غير جديرة بالعالمية.

وقد حان لنا أن نسأل: ماذا فى الحضارة الغربية لتقدمه للإنسانية؟ ماذا فى أنظمتها وتشريعاتها لتقدمه للعالمية؟ وما الذى تريده الحضارة الغربية أن يكون مسلكا إنسانيا عاماً؟ ماذا تقدم؟ وما هو مضمونه؟ وماهو محتواه؟ وهل يصلح شئ من ذلك للعالمية؟.

- هل تقدم عقيدة التثليث التى يمجّها العقل وتمجها الفطرة؟ وهل ستقدمها للعالم تحت شعار اطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى؟ كما فعلت الكنيسة فى العصور الوسطى!.
- هل تقدم اعوجاج الفطرة والشذوذ الجنسى وشيوعية الجنس والإباحية المطلقة؟

* هل تقدم العنصرية الفجة والتعصب البغيض والحقد الدفين ضد المسلمين والحضارات الأخرى.
* هل تقدم نظامها الاقتصادى الذى يقوم على الأنانية والاحتكار والربا والمتاجرة في أقوات الشعوب وتجويعها والإقراض بالفوائد المركبة التى تثقل كاهل الشعوب فتركع ذليلة أمامها؟.

* هل تقدم ذلك الخلل الاجتماعى والفساد الأسرى وانحلال الروابط وتقطع العلاقات والأرحام؟ وصدق الله القائل ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾(١).

* وهل تقدم نظامها السياسى القائم على الاستبداد وعلى أن الغاية تبرر الوسيلة، وعلى التحكم فى مصائر الآخرين وإحكام القبضة السياسية على دول العالم بحيث ترسم سياستها ويعين حكامها، وتُصاغ قراراتها وفق أهواء ومصالح القوى الغربية؟.

- هل تقدم ذلك الأدب العارى أو المكشوف الذى يقوم على التبجح بالرذيلة وانتشارها ويخدش الحياء الفطرى لدى الناس، ذلك الأدب الذى ينطلق من قاعدة الهوى والشهوة والجنس ليس إلاّ، وليس له أدنى علاقة بالإنسانية.

- هل تقدم العلم الذى يجعل المادة إلها، وأن الطبيعة هي الخالقة لكل شئ؟ فيؤله الطبيعة ويؤله المادة، ويؤله العقل، ويؤله الإنسان، ويؤله النظام والحكام، إنه باختصار: يؤله كل شئ إلا شيئا واحد فقط وهو الله جل جلاله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

- إن الحضارة الغربية حضارة مفلسة ليس عندها شئ يصلح للإنسانية، وليس عندها شئ يتصف بالعالمية، وهل ماسبق بيانه يصلح أن يجمع الناس فى بوتقة واحدة ويجمع أواصر الإنسانية فى أمة واحدة ويكتب لها الأمن والاستقرار؟ كلا وألف كلا.

وكل يدعى وصلا بليلى وليلى لاتقر لهم بذاكا

وهكذا تتبدى لنا الحضارة الغربية فى إفلاسها رغم الجهود الجبارة التى تبذلها لنشر لغاتها فى العالم كله، ولمحو الثقافات الذاتية للأمم- خاصة أمة الإسلام- وإحلال الثقافة الغربية محلها وهو مايعرف بالغزو الثقافى الشامل لمناهج التعليم

(١) سورة محمد الآية رقم ٣٢

وطرق التدريس ووسائل الإعلام، وتحييد الدين عن مسيرة الحياة، ومصادرة الشريعة الإسلامية وعدم تطبيقها، وإفساد الأخلاق الإسلامية والفطر النقية، وإفساد الإنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى حياة المسلمين.

أقول رغم هذا كله ورغم تلك الجهود الجبارة المدعومة بجيش كبير من العملاء والمدعومة ماديا على أعلا مستوى، رغم هذا كله فلن تكون الحضارة الغربية حضارة عالمية ولن تصبح أبداً فى يوم من الأيام هي حضارة العالم عن رضا واقتناع، لأنها حضارة مفلسة وآيلة للأفول بشهادة مفكريها وعقلائها، وما طار طير وارتفع الا كما ارتفع وقع، وحضارة تتجرد من الأخلاق والقيم الفاضلة وتقوم على العنصرية والمادية هى بلا شك حضارة آسنة ولاتصلح أبدا للعالمية.

[ثالثا: دعوى عالمية النصرانية]

إن حملات التنصير المسعورة- خاصة- فى العالم الإسلامى، والتى تدعمها الهيئات الرسمية المسيحية فى أوروبا وأمريكا، فضلا عن تبرعات الأفراد من أجل التبشير بالمسيحية فى العالم كله، إن هذه الحملات التنصيرية ليست أمرا عارضا أو مؤقتا أو مستحدثا، وإنما له جذوره وله مخططاته المرسومة وأهدافه المدعومة، ويعد «لويس التاسع» ملك فرنسا والذى أسر فى المنصورة بعد هزيمته فى حملته الصليبية -سابعة الحملات- يعد هذا الملك فى مقدمة كبار الساسة الغربيين الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسية للسياسة التنصيرية فى العالم الإسلامى، وكان ما انتهى إليه بعد تفكير عميق أثناء اعتقاله فى سجن المنصورة: أنه لم يعد فى وسع الكنيسة أو فرنسا مواجهة الإسلام، وإن هذا العبء لابد أن تقوم به أوروبا كلها لتضيّق الخناق على الإسلام ثم تقضى عليه، ويتم لها التخلص من الحائل الذى يحول دون تملكها لآسيا وأفريقيا، ولابد أن تتحول الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه، لافرق بين النوعين إلا من حيث نوع السلاح المستخدم فى المعركة، وتجنيد المبشرين الغربيين فى هذه المعركة السلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويا، واعتبار هؤلاء المبشرين فى تلك المعارك جنوداً للغرب.

إن التنصير أو «التبشير» كما يحلو لهم أن يسموه، له أهدافه الواضحة وله أحقاده الدفينة على الإسلام والمسلمين، وليس هدفه دينيا- كما يدعون- وإنما له أهداف استعمارية وتجارية وعنصرية، وسنتناولها بشئ من التفصيل فى نهاية هذه الدعوى، وإنما الذى نناقشه الآن هو: دعواهم أن التبشير واجب دينى مقدس وأنهم مأمورون من قبل الرب بالبشارة بالإنجيل فى الخليقة كلها.

وقد شهد عام ١٩٦٧م قمة التوتر فى علاقة المسلمين بالمسيحيين فى أندونسيا وذلك بسبب قيام المسيحيين بمحاولات مكثفة وإغراءات كثيرة لتنصير المسلمين، ومع ازدياد العنف ضد التبشير ومؤسسات فى أندونسيا دعت الحكومة إلى عقد اجتماع عام بين ممثلى الطوائف الدينية لبحث المشكلات واقتراح الحلول، وعقد مؤتمر الأديان فى نوفمبر ١٩٦٧م بأندونسيا وحضره «سوهارتو» رئيس الجمهورية بالنيابة آنذاك، وألقى كلمة الافتتاح واقترح فيها ما يلى:-

١- الامتناع عن ممارسة التبشير تجاه أحد الاديان المعترف بها فى أندونسيا- خاصة- إذا كانت هذه الممارسة تتم بالإكراه وباستخدام وسائل الإغراء والإغواء أمام العوز والفقر.

٢- إذا كان ولابد من التبشير فليوجه إلى المجتمعات البدائية فى كاليمنتان وإيريان وغيرهما.

وقد رفض النصارى- بروتستانت وكاثوليك- ذلك الاقتراح وكانت حجتهم ماذكره أحدهم وهو الدكتور «**تامبوتان**» :[إننا معشر المسيحيين مقيدون بأوامر الله التى أذكر منها: اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقه كلها- مرقس١٦ : ١٥- ونحن لانستطيع أن نحل أنفسنا من تبعة الأمر الإلهى الذى يأمرنا بأن ننشر الإنجيل فى كافة أنحاء المعمورة[١].

وفشل مؤتمر الأديان فى إقرار السلام بين طوائف الشعب الأندونيسى بسبب هذا الأمر الربانى الذى تعصبوا له دون أن يبحثوا عن حقيقة مصدره: وهذا مايجعلنا نبدأ بدراسة هذا الأمر الإلهى أولا، وسنسير فى مناقشة دعوى عالمية النصرانية وفق الخطوات التالية:-

أولا: الأساس الذى ينطلق منه التبشير فى الكتاب المقدس وتقويمه من ناحية النص والمضمون.

ثانيا: المفاهيم الأساسية أو العقدية التى تبشر بها المسيحية في العالم كله ونقدها.

ثالثا: الأهداف الحقيقية للتبشير من خلال شهادات المبشرين أنفسهم وتصريحات المؤسسات العاملة فى حقل التبشير.

---

(١) انظر حقيقة التبشير مهندس أحمد عبدالوهاب ص ١١٤ الطبعة الأولى سنة ١٩٨١ مكتبة وهبة بمصر.

أولا: أساس التبشير بالمسيحية ودائرته فى عهد عيسى وبعده

إن الذى يدرس مسيرة الدعوة فى عهد عيسى عليه السلام من خلال النصوص المذكورة في الأناجيل [-خاصة- ما أجمع عليه علماء الديانة المسيحية واعتبروه أصلا فى كتابة الأناجيل] سيجد أن عيسى عليه السلام قد حدّد لنفسه ولتلاميذه المجال الذى ينبغى أن يدعوا فيه: فقد بين بوضوح أن رسالته خاصة بالشعب الإسرائيلى فقط فقال:[لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة- متى ١٥ : ٢٤-][1].

وقد أوصى تلاميذه الإثنى عشر قائلا: [إلى طريق أمم لاتمضوا، وإلى مدينة للسامريّن لاتدخلوا، بل اذهبوا بالحرىّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة- متى ١٠ : ٥-٦-]. وكانت بشارة الملاك لمريم العذراء بأنها ستحمل وتلد ابنا يكون رسولا إلى بنى إسرائيل فقط فقال لها: [ستحبلين وتلدين ابناً. . يعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه. ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولايكون لملكه نهاية- لوقا ١ : ٣-٣٣-] ومُلْك عيسى يعنى رسالته.

هذه هى دائرة التبشير فى المسيحية والتى دلت عليها النصوص الصريحة فى الأناجيل.

وعلى ذلك: فالمسيحية ديانة خاصة ببنى إسرائيل وليست ديانة عامة لكل الخليقة. ورغم هذا الوضوح في تحديد دائرة التبشير المسيحى الحقيقى فقد وُجد نص فى آخر إنجيل «مرقس» وهو أقدم الأناجيل ، كما وجد أيضا في خاتمة إنجيل «متى» وكذلك إنجيل «لوقا» وهذا النص ينسبونه للمسيح حيث يقول لتلامذته: [اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها- مرقس١٦ : ١٥-] ومثل ذلك النص ذكره متى فى خاتمة إنجيله-٢٨ : ١٩- وذكره لوقا- ٢٤ : ٤٧-.

ولابد من دراسة هذا النص وهل هو من عمل المؤلف الأصلى؟ أم أنه أضيف إلى الأناجيل وأدخل فيها فيما بعد؟ إن هذا النص كما ذكرنا فى التوطئة هو الأساس الدينى الذى يرتكز عليه المبشرون فى عملهم، وبيان حقيقته أمره فى غاية الأهمية بحيث لو سقط هذا النص لسقطت حجج المبشرين فى دعواهم بعالمية النصرانية.

(١) يقصد بالرقم الأول رقم الإصحاح وبالرقم الثانى رقم الفقرة.

ومعروف أن «إنجيل مرقس» هو أقدم الأناجيل وكان- بحق- هو المصدر الرئيسى الذى نقل عنه كل من «متى» و«لوقا»، ولسنا فى مجال نقد الأناجيل من ناحية السند والمتن وغيرهما، ولكننا فقط نبحث عن صحة هذا النص، هل هو فعلا من كلام عيسى؟ وهل كتبه «مرقس» أم أنه أقحم فى إنجيله فيما بعد لنترك الإجابة لعلماء الديانة المسيحية أنفسهم.

- **يرى أدولف هرنك**: أن الخاتمة التى انتهى بها إنجيل مرقس يحيط بها الغموض، وأن نقل دائرة التبشير من بنى إسرائيل إلى أمم العالم الأخرى لايتفق والحقيقة، فكل تلك الأقوال وما شابهها لاتعدوا أن تكون إضافات ألحقت بالأناجيل، وحدثت فى القرن الثانى من الميلاد بعد أن انقطع الأمل فى عودة المسيح سريعاً إلى الأرض، فيما يعرف بالمجئ الثانى الذى بشرت به الأناجيل.

- **لقد قرر إنجيل متى**: أن عودة المسيح إلى الأرض ثانية تحدث قبل أن يفنى ذلك الجيل الذى عاصره فى القرن الأول من الميلاد، وأكد (متى) فى إنجيله على عودة المسيح ثانية قبل أن يكمل تلاميذه التبشير فى مدن إسرائيل.

فهو يقول على لسان المسيح: [الحق أقول لكم أنّ من القيام ههنا قوم لايذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا فى ملكوته- متّى ١٦ :٢٨-].

ويقول أيضا على لسانه: [إنى الحق أقول لكم لا تكلمون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان- متى ١٠ :٥-٢٣-].

السؤال البديهى هنا: إذا كانت عودة المسيح إلى الأرض تتم بتلك السرعة وقبل أن يكمل تلاميذه التبشير فى مدن إسرائيل المتجاورة المحدودة، فكيف يمكن الحديث بعد ذلك عن التبشير بين أمم العالم والتكريز بالإنجيل للخليقة كلها؟ ألا يعى القائمون على التبشير تلك المفارقات؟.

وحين نتتبع النشاط التبشيرى لتلاميذ المسيح: وأتباعهم بعد رفع المسيح نجده قد انحصر، أو وجّه اساسا للعمل بين اليهود والدعوة فى مجامعهم، ومن المعلوم أن

اليهود كانوا منتشرين فى أرجاء العالم الرومانى فى اليونان وفى قبرص وفى أنطاكية وفى فينيقية وكان التبشير المسيحى للتلاميذ منحصرا فى اليهود فقط، جاء فى سفر أعمال الرسل: [أما الذين تشتتوا من جراء الضيق الذى حصل بسب استفانوس فاجتازوا إلى فينيقية وقبرس وأنطاكية وهم لا يكلمون أحداً بالكلمة إلا اليهود فقط- أعمال الرسل ١١ :١٩-٣١-].

- **إذا كان إنجيل «مرقس»** كتب في الفترة مابين ٦٥-٧٥ ميلادية فإن الفقرة الأخيرة فيه والتى تشير إلى عالمية التبشير يرى المحققون من علماء الديانة المسيحية أنها غير شرعية وأن هذه الفقرة لا يمكن تحديد تاريخها الزمنى بالضبط، ولكنها قبلت كجزء من إنجيل مرقس حوال عام ١٨٠ ميلادية، وأن مؤلفها غير معروف البتة.

- **ولهذا فقد وضعت «النسخة القياسية «المراجعة»** [1] للكتاب المقدس- وهى الترجمة الإنجليزية الحديثة والتى نشرت لأول مرة فى عام ١٩٥٢م- الأعداد الأخيرة من الإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقس وهى من ٩ - ٢٠، وضعتها فى الهامش وعاملتها على أنها غير شرعية فنزعتها من الأصل ووضعتها فى الهامش. وكذلك الترجمة الفرنسية الحديثة للكتاب المقدس والتى تقول: «طبقا لأفضل النسخ فإن إنجيل مرقس ينتهى هنا» أى عند العدد ٨. فاستبعدت هى الأخرى نص العالمية. فإذا كان الإصحاح السادس عشر والأخير من إنجيل «مرقس» يحتوى فى أغلب النسخ على عشرين عدداً، فإن الأعداد من ٩-٢٠ والتى تحتوى على فقرة التكريز بالمسيحية في الخليقة كلها، تعتبر غير أصلية فى الإنجيل، وقد أدخلت فيه بطريقة غير شرعية ومن هنا يسقط الاستدلال بها فى إنجيل مرقس، كما يسقط بها الاستدلال ايضا فى إنجيل متى ولوقا لأنهما قد نقلاها عن إنجيل مرقس- وإذا سقط الأصل فقد سقط بالضرورة الفرع.

---

(١) لقد اجتمع اثنان وثلاثون عالما نصرانيا من مختلف الطوائف لمراجعة نسخة «الملك جيمس» وهى الترجمة الانجليزية المعتمدة للكتاب المقدس والتى نشرت لأول مرة سنة ١٦١١م وقد راجعوها على أقدم المخطوطات فوجدوا بها نقائض وزيادات.

- **ولعل سؤالا يطرح نفسه هنا وهو**: من أدخل فكرة عالمية التبشير إذن فى المسيحية؟ إذا كان المسيح نفسه وتلاميذه من بعده لم يقولوا بها ولم يبشروا إلا فى بنى إسرائيل، فمن أدخل هذه الفكرة؟.

يرى الباحثون المنصفون من علماء الديانة المسيحية أن «بولس» هو الذى أدخل هذه الفكرة وأنه كان وراء نقل المسيحية من ديانة خاصة ببنى إسرائيل إلى ديانة عالمية- وإذا كان بولس قد دخل المسيحية برؤيا نهارية- كما ادعى- فإنه قد نقلها إلى خارج بنى إسرائيل برؤيا ليلية.

- **جاء فى أعمال الرسل** ظهرت لبولس رؤيا فى الليل: رجل مكدونى قائم يطلب إليه ويقول : اعبر إلى مكدونية وأعنّا، فلما رأى الرؤيا للوقت طلبنا أن نخرج إلى مكدونية محققين أن الرب قد دعانا لنبشرهم- أعمال الرسل ١٦: ٩-١٠-].

- **وفى كورنثوس** :يئس بولس من اليهود فانتقل للتبشير بين الأممين [إذ كانوا يقاومون ويجدفون نفض ثيابه وقال لهم: دمكم على رؤوسكم. . . من الآن أذهب إلى الأمم. . . فقال الرب لبولس برؤيا فى الليل لا تخف بل تكلم ولاتسكت لأنى معك ولا يقع بك أحد ليؤذيك- أعمال الرسل ١٨: ٦-١٠].

[وفى الليلة التالية وقف به الرب وقال: ثق يابولس لأنك كما شهدت بمالى فى أورشليم هكذا ينبغى أن تشهد فى رومية أيضا- أعمال الرسل ٢٣: ١١].

وهكذا حول بولس المسيحية من دائرة بنى إسرائيل إلى جميع الأمم وبدأ يبشر بمسيحية جديدة صنعها بنفسه تقوم على مبادئ جديدة من التثليث والعالمية، وإسقاط الشريعة اليهودية وغير ذلك مما سنبينه في النقطة التالية.

ثانياً : المفاهيم الأساسية أو المرتكزات العقدية التى تبشر بها المسيحية ونقدها

- **إن أول تلك المفاهيم**: هو فرضية التبشير على المسيحيين بموجب الأمر الإلهى، وأنهم مكلفون بالتبشير بالإنجيل فى الخليقة كلها.

وقد سبق مناقشة هذا المفهوم، والنص الذى ارتكزوا عليه فى القول بالفرضية، وأشرنا إلى التحريف الذى أصاب الأناجيل، وإلى خطأ نسخة «الملك جيمس» فى إثبات هذا النص وغيره. وأن الترجمة الانجليزية الحديثة للكتاب المقدس والتى تعرف «بالنسخة القياسية المراجعة» وكذلك الترجمة الفرنسية الحديثة للكتاب المقدس قد استبعدا نص الفرضية بالتبشير للعالم كلّه وحكموا عليه بأنه نص مقحم فى الأناجيل وأنه نص غير شرعى، وأن إنجيل مرقس ينتهى فى إصحاحه الأخير عند العدد ٨ فقط.

المفهوم الثانى: هو عقيدة التثليث: حيث يقوم المبشرون بحملاتهم المسعورة من أجل إدْخال الناس فى المسيحية وتعميدهم باسم الآب والابن والروح القدس، وهم يرتكزون فى دعوتهم إلى التثليث على هذه النصوص:

١- خاتمة انجيل متى القائلة[اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدّوهم باسم الأب والابن والروح القدس- متى ٢٨ : ٢٩-].

٢- ماجاء فى رسالة يوحنا الأولى [فإن الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة الأب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد-٥ : ٧-].

وسندع تقويم هذه النصوص أو تلك المرتكزات للتثليث لرجال الدين المسيحى أنفسهم.

أ- يقول «أدولف هرنك»: إن صيغة التثليث التى تتكلم عن الآب والابن والروح القدس غريب ذكرها على لسان المسيح، ولم يكن لها نفوذ فى عهد الرسل.

ب - يقول مارتن لوثر: إن التثليث تعبير يفتقد القوة، وهو تعبير لم يوجد في الأسفار.

جـ - جاء فى كتاب «هل الكتاب المقدس حقا كلمة الله» الذى طبع فى أمريكا سنة ١٩٦٩م: «بمقارنة أعداد كبيرة من المخطوطات القديمة باعتناء، يتمكن العلماء من اقتلاع أية أخطاء ربما تسلّلت إليها مثالا على ذلك: الإدخال الزائف فى يوحنا الأولى الإصحاح الخامس، فالجزء الأخير من العدد٧، والجزء الأول من العدد ٨ يقول: فى السماء... الأب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد والذين يشهدون فى الأرض هم ثلاثة»، لكن طول القرون الثلاثة عشر الأولى للميلاد، لم تشتمل أية مخطوطة يونانية على هذه الكلمات، وترجمة «حريصا» العربية تحذف هذه الكلمات كلياً من المتن، والترجمة البروتستنتية العربية ذات الشواهد تضعها بين هلالين موضحة فى المقدمة أنه «ليس لها وجود فى أقدم النسخ وأصحها»، وهكذا تساعدنا الترجمات العصرية للكتاب المقدس على الوصول إلى المعنى الصحيح لما نقرأه»(١).

د - جاءت الترجمة الانجليزية الحديثة والمعروفة باسم «النسخة القياسية المراجعة» بتصويب النص الذى جاء فى الترجمة الانجليزية المعتمدة للكتاب المقدس والمعروفة باسم نسخة الملك جيمس والتى نشرت أول مرة فى عام ١٦١١م. حيث ذكرت نسخة الملك جيمس في العدد ٧ من الإصحاح الخامس فى رسالة يوحنا الأولى مانصه [فإن الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة الأب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد]، ثم جاءت «النسخة القياسة المراجعة» بتصحيح النص فأوردته على هذا النحو [٧- والروح هو الشاهد لأن الروح هو الحق].

ومن هذا يتبين: بوضوح أن نص العدد ٧ فى نسخة الملك جيمس الذى يتكلم عن شهود السماء «الأب والكلمة والروح القدس» ويقرر أن «الثلاثة واحد» إنما هو نص مزور، أدخل ظلما بين النصوص الأصلية للأعداد-٦, ٧, ٨-، واستمريعطى الأساس الوحيد لعقيدة التثليث عبر القرون إلى أن استيقظت الضمائر أخيرا فتم

(١) حقيقة التبشير ص١١٦.

حذفه فى محاولة متأخرة لإصلاح مافات بعد أن هلكت ملايين وملايين من البشر وهى تؤمن به نصا مقدسا فى كتابها المقدس.

إننا فى الواقع أمام واحد من أخطر عمليات التزوير فى تاريخ العقائد على الإطلاق، وإن خطورتها تكمن فى تزوير عقائد الناس التى تحدّد مصائرهم الأبدية(١).

ومن هنا نسأل هؤلاء المبشرين: ماذا عندكم لتبشروا به فى أمم العالم؟ هل ستقدمون عقيدة التثليث المزورة بشهادة علمائكم المحققين لكتابكم المقدس؟ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى: كيف تقنعون بها الناس- على فرض صحتها- هل تقولون لهم- كما قالت الكنيسة فى العصور الوسطى-: اطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى؟ أم كيف تقنعوهم وأنتم أنفسكم تشكّون فى عقيدتكم؟ إنه لا مجال البتة لنشر هذا الغث فهو يفتقد الأصالة وهو يفتقد قبول الفطرة له وإقناع العقل به، وليس أمامكم لنشر هذا الثالوث إلا طريقا واحداً وهو «الضحك على الذقون» عن طريق بيع العقيدة بالدولارات وبالملاجئ والمستشفيات، وباستغلال حاجة الفقراء والمعوزين، وقد يكون أيضا بالضغط والتخويف والإرهاب فالتبشير الآن يملك كل الوسائل ما كان منها على سبيل الإغراء، وما كان على سبيل الاستغلال، وما كان على سبيل التخويف والإرهاب، إنكم أيها المبشرون لاتنشرون عقيدة، وإنما تبيعون للناس وهما وخرافة، وكذباً وخداعاً، وصدق الله القائل: فى محكم آياته:

﴿يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾(٣).

---

(١) حقيقة التبشيرص١١٨, ١١٩.

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٧٧.

(٣) سورة البقرة الآية رقم٧٩.

أيها المبشرون: ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم وتعودوا للحق الذى تبينّ لكم، وتنقذوا أنفسكم وشعوبكم من عذاب الله؟ ألم يأن لكم أن تتركوا هذا الهراء وتعودوا إلى الإسلام دين الحق وتصدّقوا بنبيه وبكتابه، كما قال لكم المسيح فى كتابكم «الحق أقول لكم لابد أن أنطلق حتى يأتيكم معزيا آخر روح الحق الذى يمكث معكم إلا الأبد» وصدق الله العظيم: ﴿**ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾[1].

المفهوم الثالث: **أن المسيحية دين المحبة الأوحد**: يتشدق المبشرون ويتباهوْن بأن دينهم دين المحبة والسلام، وهو دين البذل والعطاء، ودين الصفح عن الإساءة ومقابلتها بالإحسان، ، ، إلى آخر هذه الشعارات التى يترنمون بها فى كل قداس وفى كل محْفل أو دعوة وموعظة.

وقد جمعت موعظة الجبل- كما جاءت فى إنجيل متى- هذه الشعارات، حيث جاء على لسان المسيح: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لاتقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا، ومن سخرك ميلا واحداً فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده، سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أن فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. . لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم، أليس العشّارون أيضا يفعلون ذلك، وإن سلمتم على إخوتكم فقط، فأى فضل تصنعون أليس العشّارون أيضا يفعلون هكذا، فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى في السموات هو كامل- متى ٥: ٣٨-٤٨].

---

(١) سورة المائدة الآيتان رقم ١٥, ١٦.

لاينكر أحد مدى روعة هذه التعاليم، وليت العالم الغربى يأخذ بها، ويعمل بمقتضاها حتى يتحقق الحب والسلام على الأرض. ولكن هذه التعاليم التى يتشدّق بها المبشرون ويجعلونها مفهوما من مفاهيم التبشير يضحكون بها على الناس، تحتاج إلى وقفات:-

أولاً: هل يوجد مجتمع بلا أشرار؟ وماذا يحدث لو وجد الأشرار هل نضرب على أيديهم أو نترك الشر يستأسد ويسود؟ إن هذه التعاليم مثالية إلى أبعد مدى، ولابد للشر من ضوابط عقابية وإلا انقلبت الحياة إلى فوضى، حيث لاتخلو حياة الناس؛ من أخيار وأشرار.

ثانيا: مامدى رصيد المسيحيين فى أوروبا وأمريكا وفى كل مكان من هذه المحبة الأوحدية فى المسيحية؟ إن الواقع يشهد بالمرارة لما وصل إليه حال النصارى قديما وحديثا، حيث يأكل الحقد قلوبهم، وينضح سلوكهم بتلك العصبية البغيضة على أمم العالم- خاصة- المسلمين[وما الحروب الصليبية، والاستعمار العسكرى، والاقتصادى، والغزو الثقافى، ومعاملة الأقليات المسلمة فى كل مكان، بل وموقف الصّرب النصاري ومِنْ خَلْفِهِم دول أوروبا النصرانية فى معاملتهم لمسلمى البوسنة والهرسك] إلاخير شاهد على أن رصيد المسيحيين من هذه التعاليم صفر.

ثالثا: إن هذه التعاليم التى تقول بالمحبة المطلقة تتعارض مع الحساب الأخروى، فلو تحّول كل العالم إلى كمال وانتفى الشر من الأرض فلماذا أوجد الله النار؟ ومن سيعذب بها وقد تحول العالم كله- فى ضوء المحبة- إلى أبرار وأخيار؟.

رابعاً: كيف يوفق النصارى بين التعاليم السابقة وبين ماجاء فى نفس إنجيل متى على لسان المسيح [لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض، ماجئت لألقى سلاما بل سيفا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكُنّة ضد حماتها وأعداء الإنسان أهل بيته- متى ١٠: ٣٤-٣٦-]. وجاء فى إنجيل لوقا ١٢: ٤٩- ٥٣-] أن المسيح قال: جئت لألقي ناراً على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت، اتظنون أنى جئت لأعطى سلاما على الأرض؟ كلا. . . . أقول لكم: بل انقساماً. . . الخ النص.

خامسا: هل المسيحية هى التى انفردت بتلك التعاليم وحدها؟ لقد جاء في تعاليم بعض حكماء الصين وهو «ماوتسى» مايفوق هذه التعاليم عند المسيحية، مما جعل المبشرين يصابون بالفزع بدل الشعور بالثقة، فقد وجدوا أن عقائد: حب الله، والحب العالمى، قد سبقهم فيها الصينيون، فأصبح مثلهم كمثل من غامر ليصل إلى القطب الجنوبى فإذا به حين يصل يجد شخصا ما قد سبقه إلى هناك، وعلى ذلك فما يتشدّق به المبشرون عن المحبة، ويعتبرونه شيئا فريدا افتقده الأولون والآخرون، لم يعد له قبول حيث سبقهم الصينيون فى ذلك، ويمكن مراجعة تعاليم موشى فى كتاب «حقيقة التبشير من صفحة ١٢٤-١٢٦ فى طبعته الأولى سنة ١٩٨١م نشر مكتبة وهبة بالقاهرة».

ثم أى التعاليم أولى بالاتباع، وأيها أكثر ملاءمة للفطرة، وأيها أكثر توازنا وتحقيقا للعدل: أنظر إلى قول الله تعالى: ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لايحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم. ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾(١).

فقد راعت هذه التعاليم الطبيعة الإنسانية ولم تصادر رد الظلم وتحقيق العدل، وفى الوقت ذاته لم تحكر على النفوس الكريمة التى تقبل الصفح والعفو عن المسئ فمن قدر على ذلك فهو خير، ومن لم يقدر على الفضل فلا حرج عليه من تحقيق العدل، إنها تعاليم الفطرة السليمة، والتوازن العجيب فى حياة الإنسان إذ هى تشريع العليم الخبير بخلقه سبحانه جل شأنه.

وبعد: فهل يبقى للمبشرين مايباهون به ويفاخرون به من تعاليم المحبة المطلقة؟ أليس فى العودة إلى الفطرة ماهو أصوب وأحكم وأعدل؟ ولكن ماذا نقول إننا نردد ماقاله الحق جلا وعلا ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**﴾.

المفهوم الرابع: مفهوم البنوة والصلب تكفيراً عن خطايا البشر: إن الباحثين المنصفين فى الديانة المسيحية يقولون بأن المسيحية ليست واحدة بل هى مسيحيتان:

---

(١)سورة الشورى الآيات ٤٠-٤٣

مسيحية عيسى التى تقوم على التوحيد الصحيح وعدم الخلط بين الله والمسيح، ومسيحية بولس التى تقوم على الألوهية الأزلية للمسيح، وقد بقى فى الأناجيل مايشير على لسان المسيح إلى التوحيد الصحيح مثل: وهذه هى الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته- يوحنا ١٧ :٣-].

ومن هنا تعتبر المسيحية الموجودة الآن والتى تقوم على فكرة البنوة وفكرة الصلب والفداء، والخطيئة المتوارثة، ونبذ تشريعات التوراة وغير ذلك، إنما هى مسيحية بولس وليست مسيحية عيسى التي بشر بها أيضا تلاميذه من بعده.

إن«بولس» الذى دخل المسيحية برؤيا ادعاها، وأخبر بأن المسيح ظهر له وعاتبه في اضطهاده النصارى ثم عفا عنه واختاره رسولا في النصرانية، جاء فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر أعمال الرسل على لسان بولس: [حدث لى وأنا ذاهب ومتقرب إلى دمشق أنه نحو نصف النهار بغتة أبرق حولى من السماء نور عظيم فسقطت على الأرض وسمعت صوتا قائلا لى : شاول شاول لماذا تضطهدنى، فأجبت من أنت ياسيد فقال لى أنا يسوع الناصرى الذى تضطهده، والذين كانوا معى نظروا النور وارتعبوا ولكنهم لم يسمعوا صوت الذى كلمنى، فقلت ماذا أفعل يارب، فقال لى الرب قم واذهب إلى دمشق وهناك يقال لك عن جميع ما ترتب لك أن تفعل وإذا كنت لا أبصر من أجل بهاء النور اقتادنى بيدى الذى كانوا معى فجئت إلى دمشق. [-سفر أعمال الرسل ٢٢: ٦-١١-].

وقد محص علماء الأديان هذه الرؤيا باعتبارها الأساس الوحيد الذى بنى عليه بولس إعلانه قبول المسيحية ثم اختياره رسولاً من المسيح للتبشير بها، فوجدوها تحمل من الاضطراب والاختلاف فى طرق ورودها مايجعلها ساقطة عند الاستدلال، وأنها قصة ملفقة وغير صحيحة[١].

لكن الذى نريد أن نركز عليه هو: أن«بولس» لم يكتف بإعلانه عن دخوله المسيحية من خلال هذه التمثيلية أو الرؤيا التي حاكها، وإنما بدأ يضع مفهوما

(١) انظر المقارنة بين ورود هذه الرؤيا فى إنجيل لوقا وسفر أعمال الرسل ومابينها من اختلافات فى كتاب حقيقة التبشير ص٣٠.

جديدا للمسيحية أعلن فيه أنه تلقاه من المسيح مباشرة، يقول بولس: [أعرفكم أيها الأخوة الإنجيل الذى بشرت به أنه ليس بحسب إنسان، لأنى لم أقبله من عند إنسان ولا عُلمته، بل بإعلان يسوع المسيح. . . غلاطية١ : ١١-].

وقد حملت تعاليم هذا الإنجيل الذى بشر به بولس مبادئ الهدم للمسيحية الصحيحة، فقد أعلن بولس: أن يسوع لم يكن فقط نبيا بشرا، بل كان إلها حقا، وأنه مات من أجل التكفير عن خطايا البشر، وأعلن بولس أنه لاداعى للتمسك بتعاليم التوراة، وقد رفض الكثير من الشعائر اليهودية التى أمر المسيح بالأخذ بها مثل «الختان» وعدم الأكل مما ذبح للأوثان وغير ذلك مدعيا أن تطبيق أحكام التوراة ليس كافيا لخلاص الإنسان.

ويالهول هذا التزوير فى مسيحية عيسى فقد ثبت أن المسيح لم يبشر بشئ من هذا الذى قاله بولس وادعاه على لسان المسيح، وإن شخصا مثل بولس لم ير المسيح ولم يسمع منه ولم يستشر أحدا من تلامذته، وحتى رفض أن يسمع منهم مدّعيا أنه تلّقى إنجيله مباشرة على لسان عيسى، هل مثل هذا الشخص يصدّق؟ وهل تُقبل تعاليمه؟ يقول العالم الأمريكى «مايكل هارت» فى كتابه [المائة: قائمة بأعظم الناس أثرا فى التاريخ]: «إن عدداً من الباحثين يرون أن مؤسس الديانة المسيحية الحالية هو بولس وليس المسيح، وليس من المنطق فى شئ أن يكون المسيح نفسه مسئولاً عما أضافته الكنيسة أو رجالها إلى الديانة المسيحية، فكثير مما أضافوه يتنافى مع تعاليم المسيح نفسه»(١).

* لقد كان هناك مدرستان: الأولى هى المدرسة الفلسطينية التى قامت على التلاميذ الأول للمسيح، وأسست الكنيسة الأم فى أورشليم، وكانت صارمة في عقيدة التوحيد وعدم الخلط بين الله والمسيح.

أما الثانية: فكانت المدرسة الهللينية التى ازدهرت فى أنطاكية وطرسوس- موطن بولس- والتى تمثل فكر الإغريق وأساطيرهم التى تتحدث عن تجسد الآلهة

(١) حقيقة التبشير ص٤٢ نقلا عن مجلة أكتوبر العدد بين ١٠٤, ١٠٦.

ونزولها من السماء واختلاطها بالبشر- وقد كان بولس ينتمى إلى المدرسة الهللينية بفلسفاتها وأساطيرها، فجاءت تعاليمه تحمل هذه الأساطير، ولنطالع بعض أقواله:- يقول: [الله إذ أرسل ابنه فى شبه جسد الخطية.. الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا- رومية٨: ٣, ٣٢-].

ويقول: [... سلام من الله الأب والرب يسوع المسيح مخلصنا - تيطس١ :٣-٤).

ويقول: [ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه- رومية٥: ١٠-].

ويقول: [يسوع المسيح الذى قدّمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة- رومية ٣: ٢٥-].

وهكذا يلّح بولس على فكرة الصلب والخطيئة الموروثة نتيجة أكل آدم عليه السلام من الشجرة المحرمة، وأن الخطيئة ظلت تلاحق البشر حتى جاء ابن الله الوحيد فجاد بدمه على الصليب تكفيرا عن خطايا البشر، وهكذا كانت مسيحية بولس لاتعرف إلا اسم المسيح مقتولا على الصليب ولا شئ غير هذا.

مع أن فكرة الخطيئة الموروثة تكذبها التوراة والأناجيل.

فقد جاء فى سفر التثنية: [لا يُقتل الآباء عن الأولاد، ولايُقتل الأولاد عن الآباء وكل إنسان بخطيته يقتل- ٢٤: ١٦-].

جاء فى يوحنا: [أجابهم يسوع لماذا تطلبون أن تقتلونى.. وأنا إنسان قد حدثكم بالحق الذى سمعه من الله - يوحنا ٧: ١٩, ٨: ٤٠-].

وهكذا تنكر التوراة فكرة الخطيئة الموروثة، كما تشهد الأناجيل بأن فكرة قتل المسيح فدْية، كانت غريبة، وقد استنكرها المسيح نفسه وفزع منها حين أحسّ بالخطر يتهدده.

إن فكرة الصلب فداء عن خطيئة البشر فكرة يرفضها العقل والفطرة فضلا عن النصوص التى ذكرناها لأن مقتضى الصلب والفداء ألا يكون هناك صالحون من البشر قبل مجئ عيسى وهذا خلاف الصحيح حيث جاء أنبياء وصالحون قبل مجئ

عيسى، ومقتضى الصلب أيضا أنه بموت عيسى- على زعم بولس- فإن الأرض قد تطهرت من الخطايا ولم يعد هناك أشرار وهذا لايقوله إلا أعمى البصر والبصيرة.

إن فكرة الصلب والفداء ليست من المسيحية الصحيحة فى شئ وإنما هى تعبير عن تأثر بولس بالهللينية الإغريقية وأسطورة تجسد الإله وتضحيته بدمه من أجل البشر، وإن ما يبشر به المنصرون فى العالم من كون المسيح جاد بنفسه ليكفر عن البشر خطيئاتهم الموروثة قول لا يسنده نص ولا يصدقه عقل، ولايقول به إلا أحمق.

المفهوم الخامس: نبذ تعاليم التوراة، وبقاء المسيحية بلا تشريعات: لقد صرح عيسى بأنه لم يأت بدين مستقل، بل جاء مصدقا بالتوراة وعاملا بها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿**إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين. قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم**﴾. (١).

وجاء فى انجيل متى: [لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ماجئت لانقض بل لأكمل، فإن الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لايزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعي أصغر في ملكوت السموات، وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات- متى ٥: ١٧-١٩].

---

(١) آل عمران الآيات: ٤٥-٥١

رغم هذا الوضوح فى تعاليم عيسى عليه السلام إلا أن بولس قد تهجم على التوراة وسخر منها ودعا إلى إبطالها، وحصر الخلاص فى الإيمان بالمسيح المصلوب ويكفى الرجوع إلى رسائله-خاصة- رسالته إلى أهل غلاطية ومنها قوله: [قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكى نتبرر بالإيمان، ولكن بعد ماجاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب- غلاطية ٣: ١٠-٢٥-].

- **والذى نريد أن نوضحه هنا هو**: إذا كانت المسيحية قد تخلّت عن تشريعات التوراة فماذا بقي فى محتواها؟ إن الأناجيل كما نعلم لا تحمل تشريعات بقدر ماهى سيرة تأريخية لولادة المسيح وحياته ومواعظة وحكمه، ومن هنا فإذا تخلت المسيحية عن تعاليم موسى عليه السلام. فإنه لن يبقى فى محتواها ماتقدمه للناس من تنظيمات للحياة، ومن تشريعات للسلوك، وتصبح المسيحية ديانة روحية بحتة ليس لها علاقة بشئون الحياة وتنظيماتها، وعلى ذلك فهى لا تصلح أن تكون ديانة عالمية، لأنه ليس عندها ما تقدمه للناس- حتى الجانب الروحى فيها قد حرفوه وبنوه على الأساطير، وصادروا فيه الجسد وكبتوا غرائزه عن طريق الرهبنة والانعزال فى الأديرة.

وقديما تركت الكنيسة الجانب التشريعى للقانون- الوثنى- الرومانى، وعلل رجال الكنيسة ذلك بقول المسيح: [أعطوا مالقيصر لقيصر ومالله لله- مرقس ١٢: ١٣-١٧].

فقد أوّل رجال الكنيسة كلام عيسى على هواهم واكتفوا بالجانب الروحي وتركوا الجوانب التشريعية للرومان، ومن هنا تصبح المسيحية فى مسيرتها- بعد عيسى- ومن عصر قسطنطين ملك الرومان بالذات ليس لها صلة أو علاقة بالتشريعات وتنظيمات الحياة، وقد أفقدها بولس هذه الخاصة التشريعية حينما رفض توراة موسى وخرج على تعاليمها، وبدأ يضع تشريعات جديدة خالف فيها التوراة وليس لها أدنى مستند من الأناجيل مثل ترك الختان وترك تعدد الزوجات وغيرهما من شئون الطهارة وتنظيمات السلوك الإنسانى فى الحياة، وبذلك تصبح المسيحية مفلسة ليس عندها ماتقدمه للناس سوى الوهم والخداع والأباطيل.

ثالثا: الأهداف الحقيقية للتبشير

انتشرت المسيحية الثانية- مسيحية بولس- وأسدل الستار على المسيحية الأولى- مسيحية عيسى الصحيحة-، وراجت مسيحية بولس فى أرجاء الامبراطورية الرومانية وقد ساعدها على هذا الرواج عدة أمور منها:

أ- توافق أصولها العقدية والتشريعية مع المعتقدات والتشريعات الوثنية والأسطورية التى كانت موجودة وشائعة فى الدولة الرومانية.

ب- التنظيم الجيد فى أرجاء الامبراطورية وتعبيد الطرق التى كانت تربط بين الأقاليم برا وبحرا مما سهل انتقال المبشرين بتعاليم بولس إلى جميع أرجاء الامبراطورية.

جـ- اعتناق ملك الرومان«قسطنطين» للمسيحية، وحسمه الخلاف بين الطوائف المسيحية فى مؤتمر «نيقية» سنة ٣٢٥ ميلادية لصالح التأليه والتثليث، وقد فعل ذلك لاستغلال المسيحية فى توحيد أرجاء الامبراطورية وتوسعة أطرافها، وقد كان لجعل قسطنطين «المسيحية» هى الدين الرسمى للدولة أثر كبير لانتشارها ورواجها.

ومع نهاية القرن الخامس الميلادى انهارت القوى الرومانية القديمة وبدأ عهد جديد لدخول المسيحية إلى أوروبا، فرغم أن المسيحية نشأت فى الشرق، إلا أن التبشير بها في أوروبا قد حوّل أوربا إلى المسيحية، ومع مرور الوقت أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية لأوروبا، وقام الغرب بحمل لوائها عبر القرون محاولا نشرها فى كل مكان.

والذى نريد أن نوضحه هنا هو: كيف انتشرت المسيحية فى أوروبا؟ لقد سجل المؤرخون الغربيون أمثال المبشر الإنجليزى «ستيفن نيل» فى كتابه الهام وهو «تاريخ إرساليات التبشير المسيحية» وكذلك «هربرت فيشر» وغيرهم.

يرى هؤلاء أن المسيحية دخلت إلى أوروبا بالسيف، وفرضت على الشعوب بالقوة، ولم تقبل أوروبا المسيحية عن اقتناع وإنما أمليت عليها بفعل الظروف السياسية وضغط الحكام.

يقول «هربرت فيشر» : إن المؤرخ سوف يلاحظ أن تحول أوروبا إلى المسيحية كان مرجعه بالدرجة الأولى إلى الحساب المادى أو الضغط السياسى إن القوط، والفرنجة، والسكسون، والإسكندانافيين، لم يقبلوا المسيحية دينا بصفتهم أفراداً قادهم إليها نور داخلي، لكنهم قبلوها كشعوب تعرضت لإيعاز على نطاق واسع وتحت توجيه الزعماء السياسيين»(١).

ويكفى التذكرة بما فعله «شارلمان» ملك الفرنجة حينما قتل فى يوم واحد [٤٥٠٠] شخصا رفضوا التنصير من السكسون، ثم مافعلته البابوية حين فوّضت فرسانها بغزو شعوب البلطيق والاستيلاء على أراضيها ثمنا لتقديم المسيحية إليها.

يقول «ستيفن نيل»: إن شارلمان يعتبر بلا جدال واحدا من أعظم الشخصيات فى تاريخ كل من الكنيسة والعالم.. وما يهمنا فى المقام الأول هنا هو امتداد الدائرة المسيحية عن طريق غزوات شارلمان ضد السكسون، فقد كانوا مصدر خطر عليه، ولذلك قرر أن يخضعهم لسلطانه باستخدام مزيج من القوة المسلحة والعقيدة الدينية. فمنذ عام ٧٧٢ حتى عام ٧٩٨م ونحن نقرأ عن استمرار غزوات متعاقبة وتحول إلى المسيحية، ومؤامرات وأعمال قمع.. وبمجرد إخضاع إحدى القبائل الألمانية فإن تحولها إلى المسيحية كان يندرج فى بنود السلام» (٢).

وقصة دخول المسيحية إلى النرويج والسويد وفنلندا وبروسيا وروسيا وبولندا والمجر وغيرها هى قصص متماثلة تقوم عناصرها الرئيسية على تسخير الدين لخدمة السياسة وتثبيت الحكم بمختلف الوسائل وفى مقدمتها إكراه الشعب على اعتناق دين الحاكم، وهى قصة متكررة اصطبغت دائما بالعنف والدموية وأحابيل السياسة.

ونستطيع القول بأن السيف كان هو الوسيلة الرئيسية فى نشر المسيحية فى أوروبا، كما كان كذلك هو الوسيلة الرئيسية لتعامل المسيحيين مع العالم غير المسيحى، كما حدث فى الحروب الصليبية مع العالم الإسلامى، وأخطر من ذلك

(١) حقيقة التبشير ص١٠١.

(٢) حقيقة التبشير ص٩٢.

كان السيف هو الوسيلة الوحيدة لتعامل المسيحية مع نفسها كما حدث في الحروب الصليبية المحلية بين مختلف القوى المسيحية الأوروبية قوي البابوات خلفاء المسيح فى الأرض.

وبما إن المقام ليس مجال تأريخ لانتشار المسيحية فى أوروبا فهذا له مجال آخر فى البحث، وإنما فقط أردنا أن نمهد بهذا البيان العام عن انتشار المسيحية بالسيف، لنصل إلى موضوعنا وهو دوافع التبشير فى العالم الإسلامى والتى لاتختلف فى مجملها عن الخط العام الذي انتشرت به المسيحية فى دول أوروبا قديما، فهى في مجملها دوافع سياسية واقتصادية وتجارية واستعمارية، تستغل البعد الدينى كستار تتخفى وراءه- خاصة- وأن المرتكزات الدينية لعالمية التبشير قد سقطت وليس لها أساس فى المسيحية الصحيحة التى جاء بها عيسى- كما سبق أن بينا.

وتتلخص دوافع التبشير المسيحى فى العالم- خاصة العالم الإسلامى- فيما يأتى:-

أولا: الاستعمار:

يقول المبشر الأمريكى «جاك مندلسون»: [لقد تمت محاولات نشيطة لاستعمال المبشرين، لا لمصلحة المسيحية، وإنما لخدمة الاستعمار والعبودية].

وقال «نابليون الأول» فى جلسة مجلس الدولة فى ٢٢ مايو سنة ١٨٠٤م : [إن فى نيتى إنشاء مؤسسة الإرساليات الأجنبية، فهؤلاء الرجال المتدينون سيكونون عونا كبيرا لى فى أسيا وإفريقيا وأمريكا، سأرسلهم لجمع المعلومات عن الأقطار، إن ملابسهم تحميهم وتخفى أية نوايا اقتصادية أو سياسية].

ويقول المبشر «ستيفن نيل»: [لقد أكد مرسوم البابا نيقولا الخامس الذى صدر عام ١٤٥٤م حق البرتغاليين فى الاحتلال السلمى لكل أراضى الكفرة (غير المسيحين) التى قد تكتشف على طول الساحل الغربى لأفريقيا].

وكتب «برنا ردشو» فى كتابه «رجل القدر» يقول: [حينما يريد رجل انجليزى سوقا جديدة لبضائعه الفاسدة التي صنعها في مانشستر، فإنه يرسل مبشرا لتعليم

الأهالى بشارة السلام، ويقتل الأهالى المبشر، فيهب الإنجليزى إلى حمل السلاح دفاعاً عن المسيحية، ويحارب من أجلها ثم يستولى على السوق كمكافأة من السماء]. ويقول«جاك مندلسون» : [حينما تكون حالة الشباب الأفريقيين سعيدة فإنهم لا يتعبون من ترديد القصة القديمة: إن المبشرين جاءوا إلينا وقالوا إننا نريد أن نعلمكم العبادة وقلنا حسنا إننا نريد أن نتعلم العبادة، وطلب المبشرون منا أن نغلق أعيننا، وفعلنا ذلك وتعلمنا التعبد، وحينما فتحنا أعيننا وجدنا الأنجيل فى يدنا، ووجدنا أراضينا قد اغتصبت][1].

حقا: إن التبشير هو بمثابة مخلب قط شرس للاستعمار

وبما أن التبشير كان وسيلة من وسائل الاستعمار، فقد حمل التبشير طابع الاستعمار الأوروبى وأصابته نزعة الاستعلاء والتفرقة العنصرية، وما ذلك إلا لأن المسيحية التى يقدمونها تعتبر فى قرارة أنفس المبشرين دين الرجل الأبيض المتحضر الذى يجب أن تكون له السيادة حيثما كان.

وقد ارتبطت حركة التبشير بالتفرقة العنصرية، مدعية أن الكتاب المقدس قرر هذه التفرقة بين الأجناس، فلو كان الرب يريد المساواة بين الأجناس لقال ذلك فى الإنجيل.

واتخذ المبشرون من الكتاب المقدس سندا قويا للتفرقة العنصرية يحتجون به، وقامت حكومة البيض فى جنوب إفريقيا على أساس من تعاليم التوراة فقد جاء فى سفر التكوين أن نوحا قال: [ملعون كنعان، عبدالعبيد يكون لإخوته، وقال: مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً لهم - تكوين ٩ :٢٥-٢٧]. وقد اتخذ البيض من هذا النص تبريرا لسيطرتهم على السود وإذلالهم. ووثائق التبشير ناضحة بأقصى أنواع التفرقة العنصرية في كل المجالات.

ولست أدري: كيف غفل هؤلاء المبشرون عن تعاليم الأناجيل التى وصفوها بأنها دين المحبة الأوحد؟ وكيف أستسلم هؤلاء لتحريف اليهود بشأن قصة نوح

(١) انظر فى هذا القول كتاب حقيقة التبشير ص ١٢٨- ١٣٣.

مع ولديه فى سفر التكوين؟ مع أنها مخالفة لتعاليم التوراة وأن علامات الوضع بادية عليها إرضاء لنزعة اليهود العنصرية، وأنهم الجنس السامى الذى يجب أن تخدمه سائر الأجناس الأخرى.

فى الحقيقة: إن التبشير فى مسيرته القديمة والحديثة يحمل من المتناقضات والمفارقات ما يجعل أي باحث أو مؤرخ يحكم عليه بأنه كان هدفا استعماريا خالصا، له كل خصائص الاستعمار من الاستعلاء والتكبر والتفرقة العنصرية والاستيلاء على أملاك الآخرين.

ثانيا: الربح والتجارة:

لقد كان من أهداف التبشير منذ بدايته- ولايزال- الكسب التجاري وتحقيق الثروة، واعتبر التبشير تجارة يدّر على القائمين به من مؤسسات وأفراد أرباحاً طائلة، وكانت الجاليات التبشيرية تنشئ الشركات التجارية فى أى مكان وصلت إليه، وأكبر شاهد على ذلك: شركة الهند الشرقية الهولندية، التى أسسها المبشرون لاستغلال خيرات أندونسيا وسيلان وغيرها، وفى أمريكا الجنوبية: كانت بعثة «الجيزويت» التبشيرية فى براجواى من أكبر المشاريع شهرة، حيث تملكت الكنيسة هناك الجزء الأكبر من الأراضى المزروعة، وفرضت على الأهالى العمل التطوعى فى الأرض لصالح الكنيسة عددا معينا من الساعات فى كل أسبوع، وقد شهد تاريخ الكنيسة فى أوروبا صراعا بين المبشرين، ومنافسة شديدة بين الجماعات التبشيرية لم يكن أساسه الدين، وإنما كان تنافسا وصراعاً على الربح والتجارة فى المستعمرات، وظهر من بين المبشرين إقطاعيون كبار يملكون الضياع والمزارع والمصانع والمتاجر، واستولوا على أراضى الفقراء واستخدموهم فى زراعتها، وجنوا الأرباح الطائلة من كل ذلك فبنوا القصور والكنائس والمدن.

ولايخفى على أحد تلك المنازعات التى كانت تحدث بين الملوك فى أوروبا وبابوات الكنيسة بسبب تلك الإقطاعيات الضخمة التى كانت تملكها الكنائس.

ونرى اليوم ما يحققه المبشرون فى أوروبا وأمريكا من أموال ضخمة تنهال عليهم وعلى كنائسهم من تبرعات الأفراد، حتى وصلت القدرة المالية لبعض

الكنائس من تـأجير قنوات تلفزيونية تـبث وتنشر تعاليمهم طـوال الأربع والعشرين ساعـة، وفضائـح التخـمة المالـية لبعـض المبشـرين فضـلا عن فضـائح السـلوك الأخلاقـى، تملأ صفـحات الجـرائد والمجلات وخـير مثـال علـى ذلك هو الـقس الأمريـكى «سيـجورات»، وأنشأ المـبشرون ورجـال الكنـيسة مشـروعات ضخـمة أصبحـت تدر من الأرباح والأموال ماجـعلهم فى مركـز الثقل الاقتصـادى المحلى والعالمى.

وهكذا كان عطاء التبشير لقيصر ولم يكـن لله، مهما كابروا، وكان التبشير عينا من عيـون الاستعمار، وجنـاحا من أجنحتـه، وكان الجناح الآخر هو الاسـتشراق ومسيرة التبشير حافلة بكل ألوان التعصب والعنصرية والاستغلال لخيرات الشعوب وثرواتها.

وعود علـى بدء: وبعد هـذا العرض والتحلـيل والنقد لدعـوى عالمية التنـصير: نخرج بأن القول بعالمية التبشير بالمسـيحية قول لايسنده نص صحيح، وأن ما اعتمد عليـه المبشرون من الأمـر المقدس فى إنجيـل مرقس وغيـره إنما هو أمر مقـحم فى الأناجيـل بشهادة المحـققين من عـلماء الديـانة المسيـحية أنفـسهم، وأنه لـيس فى المسيحـية الحالية التـى صنعها«بولس» شـئ حقيقى تبشـر به، وماتدعيه مـن عقيدة التثليث. وعقيـدة الصلب والفداء ، ونبذ تعاليم التوراة، إنمـا هى أمور ليست من المسيحـية الصحيحة فـى شئ، ولم يأت لها ذكر عـلى لسان عيسى ولا عـلى لسان تلامذته من بعـده، ولكنها من اختراع بولس الذى تـأثر بالهللينية الإغريـقية فصنع مسيـحية تقوم عـلى الأساطير والأوهـام، وقد أكملـت المجامع والمؤتمرات عـقيدة زائفة، ودينا محرفا كتبـوه بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لـهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون.

وهكذا تـتضح أهداف التبـشير التى تسـتتر برداء الديـن والدين منها بـراء فهى أهداف استعمارية وتجارية ودنيوية بحتة.

القضية الثالثة:

قضية العلم والدين وتشمل:

أ ـ موقف الإسلام من العلم مقارنا بموقف الكنيسة في أوروبا.

ب ـ العلاقة بين العقل والوحي.

جـ ـ الموضوعية ومنهج الشك.

لا يجهل أحد فضل العلم وأهميته في رقي الإنسان وعمارة الحياة. والعلم ليس قاصراً علي العلم الطبيعي الذي يـدرس قوانين المادة ويكشف عن أسرارها، ولكنه شامل لكل جوانب المعرفة الإنسانية، ما كـان منها اتصالاً بالعالم المشاهد، ومَا كان منها تلقيّا من العالم الغيبي، ولن تكتمل دائرة العلم في الإنسان إلا إذا استفاد من مصادر المعرفة جميعـها: ماكان منها متصلا بالعالم المادي، وما كـان متصلا بالعالم الغيبي، فـالفطرة والحدس والتجربة الحسـية والاستنباط العقلـي، والوحي الإلهي كلها مصـادر متآزرة للمعرفة الـبشرية، واستبعاد واحـدة منها في المعرفة هـو تقصير ونقص في مـدارك المعرفة، ومن ثم: نجد التـآزر بين العلم والدين، وبـين العقل والنقل، ولـيس ثمة صدام بين وحـي صحيح وعقل سـليم، ولا يجوز الاستـغناء بأحدهما عن الآخر، ومـانراه في مجال العلم الغربي من مـدارس واتجاهات فكرية تفصل بين هـذه المصادر الأساسية في العـلم والمعرفة، أو تحصر العـلم في واحدة منها هو نوع من التخبط الذي تعيشه الحضارة الغربية البعيدة عن هداية الله، وعلي ذلك: فستكون الدراسة في هذه القضية متضمنة تلك النقاط: -

أولا: موقف الإسلام من الـعلم مقارنا بموقف الـكنيسة في أوروبا من الـنهضة العلمية.

ثانيا: العلاقة بين العلم والدين أو بين العقل والنقل.

ثالثا: الموضوعية ومنهج الشك دراسة تقويمية للشك المطلق والشك المنهجي.

وسنحاول تـناول هذه الجزئيات فـي بساطة وسهولـة تتناسب مع قـدرة الطلاب متخـفّفين من المـصطلحـات والآراء الفلسـفية التـي تضرب بعـمق في تنـاول هذه الموضوعات، فإن هدفنا هـو تقديم الثقافة للطلاب وليس الإحاطة الـتخصصية في دراسة القضايا، فإن لذلك مناهج أخري في البحث.

أولا: موقف الإسلام من العلم

لقد جاء الإسلام محتضناً للعلم منذ اللحظة الأولي للوحي السماوي، وكان أول القرآن نزولا علي الإطلاق: آيات تتضمن العلم والقراءة والقلم، رابطة هذه الغاية ووسائلها باسم الرب الخالق جل وعلا يقول تعالي: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان مالم يعلم**﴾.

وقد حث الإسلام علي العلم وأثني علي العلماء وجعلهم في أعلا المراتب، وأمر بالتذكر، وبالتدبر، وبالتفقه، وبالتعقل، وبالسير في الأرض للنظر والتبصّر، ومعرفة السنن الإلهية في الخلق، وحث علي النظر في الملكوت علويه وسفليه، وفي السموات وفي الأرض، وفي الإنسان وفي الحيوان وفي النبات وفي الجماد وفي صنوف المخلوقات، وما أكثر الآيات والأحاديث التي جاءت شاهدة علي كل ذلك، وانظر علي سبيل المثال إلي قوله تعالي: ﴿**أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت. وإلي السماء كيف رفعت. وإلي الجبال كيف نصبت. وإلي الأرض كيف سطحت. فذكر إنما أنت مذكر**﴾[1]، بل إن من يتدبر هذه الآيات يجد أن النظر فيها موجه إلي كيفية الخلق، إنه النظر إلي كيف كان الخلق، فضلا عن النظر لعلّة الخلق، أو ما هي العلة أو الغاية من خلقه، وقوله تعالي: ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الأخرة إن الله علي كل شئ قدير**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾[3]، وقوله ﷺ «طلب علم فريضة علي كل مسلم» [أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب العلم]

بل إن أساس الدين قائم علي الحجة والبرهان، وما أكره الإسلام أحدا علي الدخول فيه يقول تعالى: ﴿**أمّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾[4]، ويقول تعالى:

---

(١) سورة الغاشية الآيات ١٧ ـ ٢١.

(٢) سورة العنكبوت الآية رقم ٢٠.

(٣) سورة المجادلة من الآية رقم ١١.

(٤) سورة النمل الآية رقم ٦٤.

﴿لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغـى﴾[1]، وحينما ادعي اليهود والنصاري أن الجنة حكر عليهم طالبهم القرآن بتقديم الدليل علي صحة مايدعون فقال تعالي: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصاري تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[2].

وقد اتجه الإسلام - في تأصيل المنحي العلمي - إلي ضرورة خلع الأفكار والمعتقدات الخاطئة حتي يخلّص الإنسان من شوائب الجهل والتعصب، فنجده عاب علي التقليد الأعمي لموروثات الآباء والأجداد، ونجده قد صحح النظرة إلي الجنّ، وبين أنهم لا يعلمون من أمر الغيب شيئاً وأنهم لا يملكون ضرا ولا نفعا، كما نجده حذّر من الذهاب إلي الكهنة والسحرة والعرافين وتوّعد من ذهب إليهم بالكفر وإحباط العمل، يقول ﷺ «من أتي عرّافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علي محمد» وفي رواية أخري «من أتي عرّافا فسأله عن شئ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»[3].

- كما نجده صحح النظرة إلي أحداث الكون الطبيعية: فحينما كسفت الشمس وصادف ذلك موت إبراهيم ولد النبي ﷺ وسمع النبي من يقول: كسفت الشمس لموت إبراهيم غضب النبي ثم قام فصلي بهم صلاة الكسوف وخطبهم فكان مما قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فكبروا وادعوا الله وصلوا وتصدقوا يا أمة محمد»[4]، فالشمس والقمر يجريان وفق سنن ربانية وقوانين إلهية لا تخضع لميول البشر وأهوائهم. كما حارب الإسلام جمود الإنسان وغفلته عن هذا الكون ونعي علي الذين يعطلون حواسهم عن النظر والتدبر فقال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[5]، كما بيّن تعالي أن الكون

(١) سورة البقرة من الآية رقم ٢٥٦.

(٢) سورة البقرة الآية رقم ١١١.

(٣) أخرج الرواية الأولي الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة وأخرج الثانية الإمام مسلم في صحيحه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الكسوف.

(٥) الأعراف الآية رقم ١٧٩.

ليس شبحا مخيفا وليس لغزاً لا يحـل، وإنما هو مسخر للإنسان، وما علي الإنسان إلا أن يبذل طاقته ويستغل مواهبه في البحث في هذا الكون ليفك رموزه ويكتشف سننه ونواميسه فيسخره وينتفع بما فيه وصدق الله القائل: ﴿**ألم تروا أن الله سخر لكم مافي السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير**﴾[1].

وهكذا: رأينا كيف حرص الإسلام علي العلم وطالب بالدليل والبرهان، وأغلق الباب أمام الظن والوهم والخرافة، وبين أن الظن لا يغني من الحقّ شيئا وأن طريق العرّافين والكهنة ليس فيه إلا الوهم والخرافة، وأن شيئا من ذلك لايصلح أن يكون طريقاً للعلم والمعرفة.

وإذا كان الإسلام قد حرص علي تنقية الشوائب من طريق العلم وعمل علي تخليص الإنسان من التعصب والتقليد الأعمي ومن الظن والوهم، فإنه قد أوضح للمسلم مناهج العلم الصحيحة وبينّ له سبلها النافعة، وقد جاءت إشارات القرآن إلي المناهج السليمة في البحث والتي تقوم علي الاستدلال والحجة والبرهان وتُوصّل إلي المعرفة الصحيحة وهي المنهج الاستقرائي، والمنهج الاستنباطي، والمنهج الاسترادادي، والمنهج الجدلي، وكان توجيه القرآن للمسلمين بالنظر والتأمل والتدبر في صفحات هذا الكون هو الأساس الذي انطلق منه المسلمون لوضع قواعد النظر الصحيح ورسم مناهج العلم والمعرفة، وكان للمسلمين الأول فضل الريادة في تقعيد هذه المناهج وتأصيلها قبل أن تعرفها الحضارة الغربية بعدة قرون، **ولا يجهل أحد جهود علماء أصول الفقه** في تقعيد منهج القياس وكان للإمام الشافعي في كتابه المبارك «الرسالة» الريادة في تنظيم وترتيب هذا المنهج العظيم **وكذلك المنهج الاستقرائي أو التجريبي:** قعّد له علماء الإسلام الأول وطبقوه في بحوثهم فأثمروا أعظم الثمار في مجال الطبيعة والكيمياء والطب والفلك، ويقف جابر بن حيان والحسن بن الهيثم والخوارزمي وابن سينا وابن النفيس وغيرهم شواهد شامخة علي ريادتهم في تطبيق المنهج التجريبي في

(١) سورة لقمان الآية رقم ٢٠.

بحوثهم، حتي كانت بحوثهم هي الزاد الأول للنهضة الغربية الحديثة، **ولا يفوتنا المنهج التاريخي أو الاستردادي** وجهود علماء السنة وريادتهم في العالم كافة حيث وضعوا القواعد العلمية لاختبار الروايات متناً وسندا، ودراسة الحديث رواية ودراية، ووضعوا علم الجرح والتعديل، وعلم طبقات الرجال، وعلم التاريخ للرواة ومعرفة أحوالهم، ودرسوا المتون وميزوا بين الصحيح والحسن والضعيف والموضوع وغير ذلك كثير مما تضمنه علم الحديث دراية ورواية. أما المنهج الجدلى، **وطريق الحوار والمناظرة** وطرق الجدال وآدابها، فكان القرآن في رده علي المشركين وعلي المنكرين للبعث وللوحي وللمجادلين في ذات الله، وفي شخص رسول الله ونبوته، كان القرآن في ذلك كله: له الريادة في وضع أسس المنهج الجدلى، وخير شاهد علي ذلك جداله مع أهل الكتاب ومحاورته لهم في إبطال دعاويهم الكاذبة في أن الله ثالث ثلاثة، أو أن المسيح ابن الله أو أن عزيراً ابن الله وغير ذلك.

ولم يكتف الإسلام بوضع المناهج السليمة في البحث وتحصيل العلم وإنما وضع ضوابط للبحث تحفظ له سلامته من الأخطاء وتحفظ له عواقبه من الإضرار والإفساد.

ومن ذلك: ماوضعه الإسلام من قواعد علمية للبحث تتمثل فى:-

أ ـ ضرورة أن يكون الموضوع المراد بحثه داخلا في نطاق العقل فما كان فوق طاقة العقل فالبحث فيه مضيعة للوقت وتبديد للطاقة، مثل البحث في كنه الذات العليّة وحقيقة الروح وعلم الساعة وغير ذلك من أمور الغيب التي استأثر الله بعلمها.

ب ـ ضرورة أن يتخلّي الإنسان عن العصبية في البحث وأن يدور مع الحق حيث دار، وأن يتخلي عن هوي النفس وعن التعصب للباطل.

جـ ـ ضرورة التثبت والتحقق في البحث فلا يسوق دعاوي مجردة عن أدلتها، ولا ينقل عن الغير بدون توثيق، ولهذا قال علماء البحث والمناظرة [إذا كنت ناقلا فالصحة وإذا كنت مدعيا فالدليل].

د ـ ضرورة التأني في إصدار الإحكام، فلا يتسرع الإنسان في إصدار حكم حتي يتثبت، ويحذر من إصدار الأحكام المطلقة، ولا يصادر علي الأشياء فإن عدم العلم بشئ لا يقتضي الحكم عليه بالعدم، فإذا بحث ولم يجد المسألة لا يحكم بعدم وجودها بإطلاق، وإنما يقول بحثت فلم أجد، أو لم أقف علي هذه المسألة، ولهذا قال علماء البحث والمناظرة: [إن عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود] فالإحاطة الشاملة والعلم الكامل والأحكام المطلقة هي لله وحده.

وقد وضع الإسلام ضوابط أخلاقية تحفظ عواقب البحث من الإضرار والإفساد ومن ذلك:

أ ـ ضرورة اقتران العلم بالعمل، فليس البحث لمجرد البحث وليس العلم لمجرد العلم، وإنما لابد من النية الصالحة الباعثة عليه ومن الغاية النافعة التي ينتهي إليها، حتي لانفصل بين العلوم ونتائجها، وكان الرسول ﷺ يتعوذ من علم لا ينفع، وحتي لا تتحول نتائج العلوم إلي إفساد وإضرار بالبشرية، وليس أمر النفايات الصناعية الضارة، وبحوث العلوم الذرية والنووية وصناعة القنابل البكتيرية والجرثومية عنّا ببعيد.

ب ـ ضرورة العفة في البحث والتنزه عن السباب والقدح، فعفة اللسان والقلم أمران مطلوبان في عرض الحق مقاومة الباطل وإفحام الخصم.

جـ ـ أن يعرف الباحث لأهل الفضل فضلهم وأن يثبت لهم حقهم في الريادة فأهل السبق في العلوم والمعارف هم مصابيح الهدي، فلا يجهل لهم فضلا، ولا يبخس لهم حقا، وصدق الله العظيم الذي وجهنا إلي هذا الخلق الكريم في قوله تعالى: **﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾**[1].

د ـ ضرورة التواضع لله والاعتراف بفضله فهو الذي منح العقل ووهب الحواس الخمس، وهدي الفطرة، وكل علم إنما هو موصول به، وممدود بمده، فلا يغترّ

(١) سورة الحشر الآية رقم ١٠.

الإنسان بعلم، ولا يختال بمعرفة، فإنه مهما أوتي من العلم فهو قليل، ولا يزال الإنسان جاهلا ماتعلم، ومن هنا يجب أن يربط الانسان علمه بالإيمان، وألاّ يفصل بين العلم والدين حتي لاينطبق عليه حال المشركين الذين قال الله فيهم: **﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾**[1].

فيجب أن يورّث العلم الخشية لله، والعلماء حقا، هم الذين يخشون الله ويعترفون بضعفهم وفقرهم وصدق الله القائل: **﴿ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوة منه ضعف الطالب والمطلوب. ماقدروا الله حق قدره إن الله قوي عزيز﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿إنما يخشي الله من عبادة العلماء إن الله عزيز غفور﴾**[3].

وبعد: فإذا كان ماسبق هو موقف الإسلام من العلم، حيث احتضن العلم منذ اللحظة الأولي للوحي، وشرع من السبل مايرتقي بهذا العلم، فأوصد الباب أمام الطرق غير السليمة في تحصيل المعرفة، وقعّد المناهج السديدة في البحث والوصول إلي العلم، وشرّع من الضوابط مايحفظ للعلم سلامته من الخطأ وما يحفظ عواقبه ونتائجه من الضرر والإفساد، إذا كان هذا هو موقف الإسلام من العلم والعلماء **فماذا عن موقف الكنيسة ورجالها من العلم ورجاله، أو من النهضة العلمية ورجال البحث العلمي؟**

لايجهل أحد كيف أقامت الكنيسة عقيدتها علي مجافاة العقل، ونشرت عقيدة التثليث تحت شعار [أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى] فضلا عن عقيدة الصلب والفداء وصكوك الغفران وشعيرة الاستحالة والعشاء الرباني وغير ذلك من طقوس المسيحية الضالة.

ولم تكتف الكنيسة بإبعاد العقل عن مجال الاعتقاد، وإنما حاربته في مجال البحوث العلمية فى الكون والطبيعة، ولا يجهل أحد وقفة الكنيسة من رجال

(١) سورة الروم الآية رقم ٧.

(٢) الحج الآية رقم ٧٣.

(٣) فاطر الآية رقم ٢٨.

البحث العلـمي إبّان عصر النهضة الأوروبيـة وكيف أنها قضت بالهرطـقة علي كل من يأتي ببـحث جديد يخالف فيه نـصوص التوراة والإنجيل، ومع احتـكاك علماء النهـضة بالحضارة الإسـلامية في الأندلس وصـقلية وغيـرهما من مواقـع الإشعاع الحضاري في المراكز الإسلامية في جنوب القارة خشي رجال الكنيسة من أن يجلب رجال البحث العلمي الإسلام معهم وينشروه بين ربوع القارة الأوروبية.

ومن هنا: كان مـوقف العداء الشديد للنهـضة العلمية ورجالهـا والذي تجمعت أسبابه في:

أمرين أساسيين: الأول خشية أن يزحف الإسلام إلي أوروبا علي يد العلماء.

والثاني: خشـية أن يضرب الـكتاب المقـدس وتزول هيـبته من الـنفوس بسـبب مخالفة نتـائج البحوث العملية لمـا جاء فيه من نصوص تتحدث عـن الكون والحياة وخلق الإنسان. وحـوادث التعذيب والتفتـيش والحرق والإعدام للعلمـاء وللكتب العلمية مشهورة في التاريخ الأوروبي، وجاليليو المولود سنة ١٦٤٢م وكوبرنيكوس المولود سنة ١٥٤٣م خير شاهدين علي ذلك.

وقد ولّد هـذا العداء وذلك الصـدام بين الدين والـعلم ـ أقصد الـدين المحرف الذين التزمته الكنـيسة ـ موقفا في غاية الخطورة، حيث تخلت النـهضة العلمية في أوروبا عن الدين وطرحته جانبا وأخذت أوروبا بسـياسة العلمانية وفصل الدين عن الدولة، كما ظهر الإلحاد والكفر بكل الأديان، وتجردت النهضة الأوربية عن القيم والأخلاق ورفعـت شعار العلـم للعلـم فجعلت المـادة معبودها، وفـتنت بالـعقل فاستغنت به عن الوحى، وأوجدت انفصاما بين العلم والدين أو إن شت قلت بين العقل والوحى، وهذا ماسنوضح حقيقته في النقطة التالية.

ثانيا: العلاقة بين العقل والوحى أو بين الدين والعلم

إن الوحي الـذي نخصّه بالمـقارنة هو الوحـي الصحيح، الـذي هو: وحي الله لأنبيائه ورسله برسالات يبلغونها للبشر، وهو الذي عرفه أهل الاصطلاح بقولهم: «الوحي هو إعلام الله لنبىّ من أنبيائه بشرعه ودينه».

وقد أشار القرآن الكريم إلي كيفـياته في قوله تعالي: ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجـاب. أو يرسل رسـولا فيوحي بـإذنه مايـشاء إنه عـلى حكيم**﴾(١).

كما أخبـر القرآن الكريم أيضا: بـأنه منذ وجد الإنسان عـلي هذه الأرض، فإن الوحي الإلهي لم ينقطع من خلال أنبياء ورسل يـصطفيهم الله تعالي ليبلغوا شرعه إلي خلقه وعباده، يقول تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلي نوح والنبيين من بعده وأوحينـا إلي إبراهيم وإسماعيـل وإسحق ويعقوب والأسباط وعـيسي وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً. ورسلاً قـد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسي تـكليما. رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾(٢).

* وإذا تتبعنّا مسيرة الإنسانية علي مر التاريخ وموقفها من الوحي الإلهي بالقبول والرفض، فإن ذلك يـحيد بالدراسة عن هدفـها المنشود، حيث إن المقـام هنا ليس مقام تـأريخ لمواقف الـبشر من الوحـي، وإنما يكفي أن نـبين درجات العـلاقة بين العقل والـوحي مستشهديـن ببعض المواقف من الحضـارة الغربية الحديثـة، ومثنّين بموقف الفكر الإسلامي من هذه القضية، وهل يوجد تنافر بين العقل والوحي؟ أم هما مصـدران متآذران للمعـرفة البشرية، بـحيث لايستغـني الإنسان بأحدهـما عن الآخر، فلا يستغني الوحي عن العقل ولا يسـتغني العقل عن الوحي، حيث توجد أمور كثيرة يعجز العقل عن إدراكها، فيكـمّل له الوحي دائرة المعرفة التي عجز عنها أو أخطأ فـي تصورها، كمـا أن الوحي لابد له مـن عقل يفهـم عنه وينفـعل له، ويقتنع بأنه الحق الأبلـج الذي ينبغي للعاقل أن يعض عليه بالـنواجذ ولا يحيد عنه لأن فيه نجاته من المهالك.

---

(١) الشوري الآية رقم ٥١

(٢) النساء الآيات رقم ١٦٣ ـ ١٦٥

* ويري مؤرخو الفلسفة اليونانية: أنه لم يكن للوحي السماوي مجال عند فلاسفة اليونان حيث بدأت فلسفتهم عقلية وحسّية وانتهت كذلك، ولم يُذكر أن رسالة سماوية ظهرت في بلاد اليونان ـ خاصة ـ في فترة النهضة الفلسفية فيها والتي يؤرخ لها بستة قرون قبل ميلاد المسيح تقريباً، ومن ثم: فإن فلاسفة اليونان لم يكونوا يعرفون وحيا منزلاً وعلي ذلك فهم لم يبحثوا فيه قبولا ورداً، ولم يبحثوا في العلاقة بينه وبين العقل كمصدر من مصادر المعرفة، وما ثبت عن اليونان من بحوث فلسفية عميقة في الجانب الإلهي فهي من عمل العقل المحض، ولذلك جاءت متأثرة بمحتويات البيئة الوثنية والأسطورية عندهم في جل نتائجها.

* وجاءت رسالة عيسي بن مريم عليه السلام وبشّر بالإنجيل وحيا سماويا صحيحا، أخبر الله عنه في قوله تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. ثم قفّينا علي آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتينه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون**﴾[1].

وانتشرت المسيحية وحوّلها «بولس» من ديانة محلية خاصة ببني إسرائيل إلي ديانة عامة وكان هو أول من أدخلها إلي أوروبا، واحتكّ «بولس» بعد دخوله «أثينا» بفلاسفة اليونان ـ خاصة ـ بالمدرستين: الأبيقورية والرواقية، وترك هذا الاحتكاك أثره علي المسيحية كديانة، فتحولت إلي مسيحية فلسفية، وتأثرت بأساطير اليونان ووثنيتهم وفلسفتهم[2].

[ولقد اتسعت الديانة النصرانية وتغيرت كثيرا من حيث أتباعها حينما اعتنقتها أوروبا، ومن حيث تعاليمها إذ كثرت كتبها المقدسّة أناجيل وأسفاراً، ومن حيث منهجها العقدي، بعد اختلاطها بالثقافة اليونانية والأفكار المختلفة الأخرى، وقد قدر لها بعد دخولها أوروبا أن تهيمن علي حياة كثير من الناس فترة من الزمن ـ منذ دخولها حتي عصر النهضة في البلاد الأوروبية ـ بصفتها ديناً سماويا قائما علي الوحى][3].

---

(١) سورة الحديد: ١٦، ٣٧

(٢) راجع هذه المسألة بالتفصيل في مبحث «دعوي عالمية النصرانية» الذي سبق ذكره.

(٣) انظر مصادر المعرفة صفحة ١١٠ ـ الدكتور عبد الرحمن الزنيدي.

وقد لخّص الدكتور الزنيدي نظرة فلاسفة المسيحية في العصور الوسطي إلي قضية الوحي والعلاقة بينه وبين الفلسفة أو بين العقل والنقل فقال: [ثارت قضية العلاقة بين الفلسفة والدين، وبين العقل والنقل لدي فلاسفة العصر الوسيط وانقسموا حيالها إلي قسمين:-

الأول: يري أن الفلسفة والدين شيئان متنافران، وأن باستطاعتنا قبول قضية ما بالعقل واعتناق نقيضها بالإيمان.

والثاني: وهم غالبية فلاسفة العصر الوسيط - يقيمون العلاقة بين العقل والنقل علي قاعدة: [أن الوحي والعقل من عند الله فمحال أن يتعارضا، وأن العقل يجد في الوحي هاديا ومعينا][1].

وهؤلاء وإن قالوا بمصدرية العقل والوحي للمعرفة إلا إنهم اختلفوا في تصور العلاقة بينهما **ففريق** يري أن للعقل مجاله الذي لا يتعدّاه، حيث توجد أمور هي فوق طاقة العقل، فيتكفلّ الوحي بتقديمها للإنسان، وبذلك يكون العقل تابعا للوحي، والوحي المقصود عند هؤلاء هو الوحي الصحيح الذي أنزل علي عيسي **وفريق** يري أن العقل أوثق من النقل، وأن العقل مقدم علي الوحي، فإذا اختلف الوحي والعقل في أمره فالتقديم للعقل لأن الحجة النقلية لا ترتقي إلي مستوي الحجة العقلية.

* ثم كان القرن الرابع عشر الميلادي - نهاية العصر الوسيط - واتجه الكثير من رجال الدين المسيحي إلي العلم التجريبي وفتنوا بمناهجه في البحث ونتائجه فجعلوها هي اليقين دون سواها، وأصبح الوحي في نظرهم مجرداً من الصفة العلمية ولا يصلح لتقديم الأدلة والبراهين اليقينية، ومن هنا كانت نزعة الفصل بين العلم والدين أو بين العقل واللاهوت والتي برزت وتقررت في عصر النهضة بعد ذلك، والوحي الذي يقصده هؤلاء ليس هو إنجيل عيسي الصحيح، وإنما الأناجيل التي كتبت بعده، وما ألحق بها من الرسائل والأسفار التعليمية، وقد

(١) مصادر المعرفة ص ١١٠، ١١١.

أقرت الكنيسة منذ القرن الرابع الميلادي من الأناجيل الكثيرة الموجودة أنذاك أربعة فقط هى: إنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل متى، وإنجيل يوحنا، وأعرضت عن بقية الأناجيل ولم تعترف بها ورغم ما أكده علماء الأديان والنقاد - من أصحاب الديانة النصرانية أنفسهم - بأن هذه الأناجيل الأربعة التي اعتمدتها الكنيسة وكذلك ما ألحق بها من رسائل بولس والأسفار التعليمية، فيها من التحريف والتبديل مالا يمت للوحي بصلة، إلا أن الغالبية من علماء المسيحية يتعاملون مع هذه الأناجيل علي أساس أن مافيها من تعاليم ترجع في أصلها إلي الوحي الذي جاء به عيسي ونقله كتبة الأناجيل بعد ذلك.

* ثم كان عصر النهضة الأوروبية - عصر النظريات العلمية القائمة علي العقل والتجربة والمستندة إلي الكشوف والحفريات والدراسات الاجتماعية - واتجه كثير من العلماء إلي نقد الكتاب المقدس وكشف حقيقته سنداً ومتنا في ضوء ماكشفت عنه العلوم التجريبية من حقائق تخالف ماعليه الكتاب المقدس، مما عرّضه إلي فقدان الثقة فيه وعدم الاعتداد به في أي شئ.

وتعدّدت مواقف العلماء من الوحي في عصر النهضة فوجدنا فريق «**المحافظين**» علي الدين، والوحى، ويرون أن الوحي أصدق وأوثق مما عداه، وأن حقائق الوحي فوق متناول العقل.

ووجدنا فريق «**المعتدلين**» الذين حاولوا الجمع بين الوحي والعقل فقالوا: نؤمن بالوحي مصدراً للمعرفة دون الالتزام بما في الكتاب المقدس من نصوص لاتليق بالوحى، وجعلوا العقل هو الحكم علي مافي الكتاب المقدس، فهم يرون أن الوحي وإن كان فوق العقل البشري إلا أنه يأتي منسجماً مع العقل، والوحي الصحيح هو الذي في مقدور العقل أن يفهمه وينسجم معه في تفكيره المعتدل، ومن ثم يكون ما استعصي علي العقل أن يفهمه أو أن ينسجم معه مما جاء في الكتاب المقدس يكون خارجا من دائرة الوحي، وبناء علي ذلك رفض البعض عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء وكثيراً من طقوس المسيحية الحالية.

ثم كان فريق «**المتطرفين**» أو العقليين: وهم الذين أنكروا الوحي وأرجعوا الدين والمعتقدات إلي اختراع الإنسان، وقال بعضهم بأن مصدرها هو العقل المجرد، وقال آخرون بأن مصدرها العاطفة والوجدان، وقال غيرهم بأن مصدرها المجتمع، وقالوا... وقالوا[1].

ولكنهم جميعاً ينكرون الوحي السماوي ويقولون بأن الدين نتاج بشري محض، ويقوّمون الأديان السماوية علي هذا الأساس مما حدا بالبعض كالماركسيين والوجوديين والوضعيين إلي رفض التدين والحكم علي الدين بأنه وهم وخداع وخرافة.

ولقد حمل هؤلاء علي الرفض للوحي وللدين أمران:

الأول: أنهم أصدروا حكمهم هذا بناء علي الدين أو الوحي الماثل أمامهم وهو الذي تتبناه الكنيسة وتفرضه علي الناس دون نقاش أو حوار مع العقل.

والذي انكشف زيفه بعد الدراسات النقدية التي تناولت الكتاب المقدس سنداً ومتنا، وانكشف أمرها، فحاقت الريبة حول صحة نسبتها إلي الله تعالى وحُكم عليها بالوضع البشرى.

الثانى: تناقض محتويات الكتاب المقدس مع معطيات العلم التجريبى، حيث وجد هؤلاء أن مايصلون إليه من حقائق حول الكون والإنسان والحياة تتعارض مع مايقرره الكتاب المقدس في شأنها، وقد ترتب علي ذلك اعتقاد الغرب بأن الوحي والعلم شيئان متنافران ولا يمكن أن يجتمعا أبدا، وبما أن العلم الطبيعي قد أثبت صدقه من خلال ما كشفت عنه التجارب والمشاهدات العلمية، وأن الوحي قد ثبت كذبه وصارت طرق الاستدلال فيه غير يقينية، إذن فوداعاً للدين وللوحي ومرحبا بالعلم والعقل، واتجهت الحضارة الغربية إلي العلم المادي وانصرفت عن علم الكنيسة.

وما يؤسف له: أنهم قاسوا الوحي في الإسلام علي الوحي في النصرانية، وامتدت نظرتهم الشكية إلي الوحي الإسلامي فحكموا عليه بالرفض والضلال كما

(١) مصادر المعرفة ص ١٢٤ ـ ١٣٢.

حكموا علي الدين المسيحي والوحي في الكتاب المقدس عندهم، بل تجاوز البعض حدّ الرفض إلي درجة محاربة الأديان السماوية عموماً - والإسلام خاصة - وإلي رفض الوحي مطلقا مهما كان مصدره.

وهذه النتيجة التي انتهت إليها الحضارة الغربية: من رفض الوحي، والانفصال التام بين العلم والوحي أو بين النقل والعقل، تحتاج منّا إلي وقفة نتبيّن فيها حقيقة الوحي في الإسلام، وأن الحكم الذي صدر عن فلاسفة الغرب وعلمائهم من قياس الوحي في الإسلام علي الوحي في المسيحية، إنما هو قياس خاطئ يفتقد الدليل والبرهان ويحكمه الهوي والعصبية، ولسنا ننكر أن من بين علماء أوروبا منصفين، قاموا بدراسة الوحي في الإسلام من منابعه الأصلية واستوثقوا من أن القرآن الكريم الذي جاء به رسول الله محمد ﷺ هو بحق كلمة الله، وأنه لا شئ من محتويات هذا الكتاب يتناقض مع حقائق العلوم، وأنه لا وجه للقياس بين وحي الكنيسة وبين الوحي في الإسلام، وقد قام بعضهم بدراسة مقارنة بين الوحي في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، وبين حقائق العلوم الحديثة، وخرج من هذه الدراسة بأنه لا توجد آية في القرآن تتعارض مع حقيقة علمية ثابتة بعكس نصوص التوراة والأناجيل، كما قام أيضا بدراسة الشق الثاني في الوحي وهو السنة النبوية في ضوء الحقائق العلمية[1].

إن الوحى فى الإسلام: بصفته جزءاً من علم الله المحيط - يتصف فيما يقدمه من علم باليقين المطلق في كل شئ، سواء فيما أخبر به مما مضي أو فيما يحصل وقت نزوله، أو فيما يأتي في المستقبل وسواء كان ما أخبر به مما يتعلق بالغيب، أو يتعلق بسنن الكون والحياة أو بطبائع البشر والمخلوقات أو غير ذلك وهو بذلك يتخطي حدود الزمان والمكان الحسيين والمقيّد بهما العلم البشري والذي ينشأ من ملكات الإنسان المحدودة.

* وليس ثمة تعارض بين العقل والوحي في الإسلام ولم يعرف الإسلام ولا للحظة واحدة الانفصام بين العقل والوحي، لأن العقل هو وسيلة التلقي للوحي

(١) ينظر في هذا كتاب «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم» لموريس بوكاى.

وفهمه، وإذا كان العقل يستند في أدلته علي المبادئ الفطرية التي أودعها الخالق جل وعلا فيه، فإن الوحي يأتي منسجما مع هذه الفطرة، ويجئ في إطار مفهومية الإنسان ومتطابقاً مع مبادئه الفطرية، لأن الذي أنزل الوحي هو الذي خلق الإنسان وأودع فيه مبادئ الفطرة التي تتلاءم مع ما أنزل من وحى.

بل إن الإسلام قد أعطي للعقل منهج التحقيق والاقتناع مما جاء به الوحي، ويخطئ الكثير حينما يظن أن الإسلام اقتصر في عرض مسائله علي الخبر المجرد واعتمد علي العاطفة بأسلوب مؤثر - وهو مايعرف بالأسلوب الخطابي أو الشعري في القرآن - كلا بل إن القرآن قد اعتمد في عرض مسائله علي شتي الأساليب بحيث يقتنع كل فرد بالأسلوب الذي يناسبه ويتلاءم مع طبيعته، وبجوار الأسلوب الخطابى في القرآن جاء الأسلوب البرهاني العقلي الذي يعتمد علي الدلائل العقلية المرتكزة علي المبادئ الفطرية في الإنسان، وطلب من الإنسان أن يعتمد علي عقله المجرد في الوصول إلي الحق من طريق البرهان، حتي يقتنع به ويتفاعل معه، فلا إكراه في الدين، وإنما اقتناع وقبول، وقد ساق القرآن من أساليب الاقتناع مايدعو الناس إلي الإيمان، وعرض دلائله بأسلوب فطرى، بعيدا عن مصطلحات الفلاسفة وغموض علم الكلام فكان دليل «الاختراع» الذي دلل به القرآن علي وجود الله وربوبيته، وكان دليل «التمانع» الذي دلل به القرآن علي وحدانية الله - عن طريق الاستدلال بانتظام الكون وسلامته من الاختلال والتصادم مما يدل علي أن خالقه واحد ومدبر أمره وشئونه واحد، وكانت أدلة إمكان البعث وأدلة العناية بأمر الخلق وغير ذلك من الأدلة القرآنية التي جاءت مختلفة عن أدلة الفلاسفة وعلماء الكلام في أسلوبها وفي منهجها.

ولكن تجب الإشارة هنا: إلي كيفية تعامل العقل مع النص الموحي به في ضوء الإسلام:

وحيث إن النص يختلف في دلالته فيوجد مايعرف بقطعي الدلالة وما يعرف بظني الدلالة، فإن تعامل العقل مع النص يختلف حسب طبيعة النص، فإذا كان النص قطعي الدلالة، فليس للعقل مجال في تحويره أو تأويله، بل إن تدخّل العقل

حينئذ في النص لتأويله يعدّ انحرافا عن الحقيقة ـ وهذا راجع إلي محدودية العقل في إدراكه ـ أما إذا كان النص ظنى الدلاله ـ ولم يتولّ الوحى تحديد المراد منه في مواضع أخري ـ فهنا يأتي دور العقل في تحديد المراد من النص وفق قواعد الاجتهاد وشروطه المقررة في كتب الأصول وأغلب هذا النوع يكون في الفروع، أما النصوص القطعية فتكون في الأمور الثابتة والأصول مثل: العقيدة وأركان الإيمان، وأصول الأخلاق، وأمهات الفضائل وغير ذلك.

وفى نهاية هذا البحث: نوجز العلاقة بين العقل والوحي في الإسلام فيما يأتى:

أولا: أنه لا يوجد تعارض البتة بين العلم والإيمان، بل إن العلم موصل إلي الإيمان وخير شاهد علي ذلك كتاب «**الله يتجلي في عصر العلم**» والذي ألفه نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض، وترجمه إلي العربية الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان وهو كتاب ممتاز أنصح الطلاب بقراءته.

ثانيا: أنه لايوجد تعارض البتة بين الوحي والعلم وأن نصوص الوحي التي جاءت تتحدث عن الأنفس والآفاق لاتتعارض مع حقائق العلوم الثابتة وخير شاهد علي ذلك كتاب «**القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم**» للعالم الفرنسي موريس بوكاي وهو كتاب ممتاز أنصح الطلاب أيضا بقراءته.

كما أحب أن أثبت هنا بشأن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة القواعد التي أثبتتها هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المنبثقة عن المجلس الأعلي العالمي للمساجد، وتتخلص هذه القواعد فيما يلى:-

١ ـ أن علم الله هو العلم الشامل المحيط الذي لا يعتريه خطأ ـ ولا يشوبه نقص، وعلم الإنسان محدود يقبل الازدياد ومعرض للخطأ.

٢ ـ توجد نصوص من الوحي قطعية الدلالة، كما توجد حقائق علمية كونية قطعية في ثبوتها.

٣ ـ في الوحي نصوص ظنية في دلالتها، وفي العلم نظريات ظنية في ثبوتها.

٤ ـ لا يمكن أن يقع صدام بين قطعي من الوحي وقطعي من العلم التجريبي، فإن وقع في الظاهر فلا بد أن هناك خللاً في اعتبار قطعية أحدهما ـ وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابا ضخما من أحد عشر مجلدا لبيان هذه القاعدة تحت عنوان «درء تعارض العقل والنقل».

٥ ـ عندما يُري الله عباده آية من آياته في الآفاق أو في الأنفس مصدّقة لآية في كتابه الكريم أو حديث من أحاديث رسوله ﷺ يتضح المعني ويكتمل التوافق، ويستقر التفسير وتتحّدد دلالات ألفاظ النصوص بما كشف من حقائق علمية وهذا هو الإعجاز.

٦ ـ أن نصوص الوحي قد نزلت بألفاظ جامعة تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضيعها التي قد تتابع في ظهورها جيلا بعد جيل.

٧ ـ إذا وقع تعارض بين دلالة قطعية للنص، وبين نظرية علمية رفضت هذه النظرية لأن النص وحي من الذي أحاط بكل شئ علما، وإذا وقع التوافق بينهما كان النص دليلا علي صحة النظرية، وإذا كان النص ظنياً والحقيقة العلمية قطعية يؤول النص بها.

٨ ـ إذا وقع التعارض بين حقيقة علمية قطعية، وبين حديث ظني في ثبوته فيؤول الظني من الحديث، ليتفق مع الحقيقة القطعية، وحيث لايوجد مجال للتوافق فيقدم القطعي[1].

ثالثا: إن رفض الدين أو الوحي باسم المنهج الاستدلالي العلمي خطأ كبير فدعوي هؤلاء بأن حقائق الدين لا يمكن إجراء التجارب عليها وإثباتها في العالم الخارجي ولهذا تبقي مجرد دعوي أو محض عقيدة داخلية لا دليل عليها.

أقول: إن هذه الدعوي مرفوضة وفق الدليل الذي اعتمدوا عليه في إثبات النتائج العلمية التجريبية، حيث إن المعيار الاستدلالي للعلوم التجريبية له درجات عندهم تمثل فيما يلى:-

(١) انظر كتاب تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة من منشورات هيئة الإعجاز العلمي وهو من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة المنعقد في إسلام أباد بباكستان سنة ١٩٨٧م.

أ ـ **الدرجة الأولي لهذا المعيار:** أن يكون الأمر المراد مشاهدته أو تجربته في متناول يدنا مباشرة.

ب ـ **الدرجة الثانية لهذا المعيار:** أن يكون الأمر المراد إثباته لايخضع كلياً للمشاهدة فيكتفي بمشاهدة بعض أجزائه مثل دعوي «كروية الأرض» فإنه لايمكن للإنسان أن يشاهدها في صورتها الكاملة إلا أنه يمكن مشاهدة أجزاء مختلفة تؤكد حقيقة كروية الأرض.

وهذا الاستدلال القياسي اعتمدت عليه العلوم التجريبية بشكل كبير في إثبات الكثير من الحقائق العلمية.

جـ ـ **الدرجة الثالثة لهذا المعيار:** أنه قد تُشاهد آثار شئ مّا وتثبت التجربة تلك الآثار، ولكننا نعجز عن رؤية المؤثر مثال ذلك «الإليكترون» فهو لا يخضع للمشاهدة نظرا لتناهي وجوده في الصغر بحيث لا يمكن لمنظار مّا مشاهدته ولا يمكن لميزان مّا وزنه ولكن بالرغم من ذلك يعتقد العلماء بأن الإلكترون حقيقة علمية رغم عدم رؤيته، وحكموا بذلك لأنهم شاهدوا آثاره في صورة تجارب قابلة للتكرار والإعادة كالتيار الكهربائي في سلك ما فنحن نلمس آثاره ولكن ما هو؟ وأين يكمن في السلك، ومالونه؟ ومامقداره ووزنه؟ . . .

د ـ **الدرجة الرابعة لهذا المعيار:** أن الحقائق التي يتوصل إليها بالمعايير السابقة لا تتعدي كونها حقائق تكنيكية «فنية» علي الرغم من أنه سعة الكون تتعدي هذه الحقائق التكنيكية، فكل الحقائق هي حقائق كشفية عن ماهو موجود فعلا، فدراسة حياة الإنسان وأعضاء جسمه تكشف لنا عن حقائق كثيرة لكنها ذات مغزي كشفى، أما المغزي الأكبر الذي يتعلق ببداية هذا الجسم ونهايته، وماذا بعد رحيل هذا الجسم من علي ظهر الأرض وغير ذلك من التساؤلات الكبري فإن علم الحياة والأعضاء لايسعفنا في ذلك، ومن هنا كان لابد من إضافة مقياس رابع أو معيار رابع للاستدلال ويتلخص هذا المعيار فى: أن المشاهدات والتجارب إذا لم تكن مرتبطة بالقضية المطروحة ـ بالمعني العلمي التكنيكي البحت ـ ووجدت قرينة تؤيد تلك القضية فإن ذلك الاستدلال بالقرينة الجائزة

علي القضية المطروحة سيكون مقبولا وسليما لدي العلماء التجريبيين، وأن أي ادعاء تتوافر فيه شروط هذا المقياس سيصبح نظرية علمية مقبولة.

ومن هنا نقول: إن الذين رفضوا «الوحي» أو الدين الصحيح باسم المنهج التجريبي فقد تناقضوا مع أنفسهم، لأنهم يقولون إن الوحي موضوع غير قابل للإثبات بالتجربة العلمية، ونحن نقول لهم: هل كل النتائج العلمية الثابتة قد توصلتم إليها بالتجربة والمشاهدة؟ كلا، بدليل استخدامهم للمعايير السابقة في الاستدلال العلمي [دلالة القرينة الجائزة، ودلالة المؤثر الذي لا يري ولكن تُلمس آثاره وتشاهد] ومن هنا: فإن رفض الدين بحجة أنه غير قابل للتجربة غير سليم، «فإذا كان المبدأ هو: أن الحقيقة ليست إلا نتائج المشاهدة والتجربة العلمية، فلن تستقيم قضية معارضي الدين، إلا إذا توصلوا بالمشاهدة والتجربة نفسها إلي أن الدين في حقيقته النهائية باطل، فيجب أن تصل مشاهداتهم ودراساتهم إلي الحد الذي يسمح لهم بالمجاهرة بأنهم قد شاهدوا وجربوا كل شئ داخل الكون وخارجه في أقصي مداه، وأنهم ـ بناء علي ذلك ـ يعلنون أنه ليس هناك إله ولا ملائكة ولا جنة ولا نار ـ بنفس الثقة التي يتمتع بها رجل بصير يدير عينيه في حجرة مقاسها ١٠ × ١٠ من الأمتار، ثم يعلن أنه لا يوجد في هذه الحجرة فيل ولا أسد[١].

من الواضح: أن معارضي الوحي والدين لا يتمتعون بهذا الموقف، وأنهم يتناقضون مع أنفسهم لأنهم حينما يرفضون الدين يتعللون بأنه لايخضع للتجربة، وحينما يقيمون الأدلة علي رفضه لايستخدمون التجربة رغم ادعائهم بأنه لايوجد شئ حقيقي ولا علم صحيح، إلا من خلال المشاهدة والتجربة.

وبناء على ذلك: تصبح قضية التعارض بين العقل والوحي أمرا لادليل عليه، وأن الحضارة الغربية حينما عارضت العقل بالوحي، لم يكن ذلك هو الوحي الصحيح، وإذا كان العلم الطبيعي قد قلب كثيرا من المفاهيم الثابتة في كتب الفلاسفة وفى الديانات المحرفة، فإن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي انفرد

---

(١) انظر كتاب: الدين في مواجهة العلم للعلامة وحيد الدين خان ص ٦ ـ ١٤ طبعة المختار الإسلامي الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٩٧٣م.

من بين ذلك التراث كله ـ علي الرغم من وفرة نصوصه التي تناولت العلم الطبيعي ـ بأنه لم يتعارض مع أي حقيقة علمية ثابتة، وصدق الله القائل: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي آنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه علي كل شئ شهيد**﴾.

* بل إن الذي ينظر بعين الإنصاف إلي الوحي في الإسلام، ويعلم أن الذي أنزل عليه الوحي كان نبيا أمياً، نشأ وسط بيئة لم يكن لها أدني اهتمام بالمعارف الطبيعية والعلوم، ثم ينظر في تلك النصوص التي جاءت تتحدث عن الكون والأنفس والآفاق، وتناولت كثيرا من المعارف الطبيعية أقول: إذا جمع الإنسان بين هاتين الحقيقتين العلمية والتاريخية بعين الإنصاف والحيدة، فإنه لايتواني لحظة في رد هذا الوحي إلي المصدر الأعلي الذي أحاط بكل شئ علما، والذي يتجاوز في علمه حدود الزمان والمكان وهو الله جل جلاله، ولا يمكن أبداً أن يكون مصدر هذا الوحي هو المعرفة البشرية، وما دام القائل للوحي والخالق للعقل واحداً ـ وهو الله جل جلاله فيستحيل إذن أن يتعارض العقل مع الوحي ـ أو العلم مع الإيمان أو العقل مع النقل، اللهم إلا إذا أصاب العمي البصائر والعقول[1]، وصدق الله القائل: ﴿**فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور**﴾.

(١) راجع في ذلك: المبحث الجيد الذي كتبه الدكتور الزنيدي عن الوحي في كتابه مصادر المعرفة من ص ٩٩ ـ ٢٢٥.

ثالثا: الموضوعية ومنهج الشك

هذا الموضـوع يدور حول إمكانـية المعرفة، وهـل في مقدور الإنسـان أن يعرف شيئـا؟ وإذا كان في مقدوره أن يـعرف فما هو المـنهج الموصّـل للمعرفـة؟ وما هي الأدوات المستخدمة في المعرفة؟.

وقد اختلفت أنظار الفلاسفة والباحثين حول الأمرين معاً، فمنهم من قال بعدم إمكان معرفة صحيحة أو عدم القدرة عـلي إدراك حقيقة، وهؤلاء هم أتباع مذهب الشك، ومـنهم من قال بـإمكان المعرفـة، وأن الإنسان عنـده القدرة علي تحـصيل المعرفة اليقينية والوصول إليها، وهؤلاء هم أتباع مذهب اليقين أو الاعتقاد. والذين قالوا بإمكان المعرفة اختلفوا حول المنهـج الواجب اتباعه في الوصول إليها: فمنهم من قال بأن الطريق إلي المـعرفة يكون عن طريق المنهج التجريـبي، ومنهم من قال بأن المعرفة تكون عن طريق المنهج الاستنـباطي، ومنهم من جعل الشك أساساً في الوصول إلي اليقين وجـعلوا الشك منهجاً ضروريا في البـحث، ومنهم من رفض الشك المنهجي كأسلوب في الوصـول إلي الحق.. إلي غير ذلك من الآراء الكثيرة والمتنوعـة حول نظرية المعـرفة ـ والتي هي من أهم وأول مـباحث علم الفـلسفة، ومن المباحث الضرورية بين يدي أي علم من العلوم.

سنـحاول أن نوجز ونـبسط المعـلومات ما أمـكن حول هذا المـوضوع مكتـفين بتوضيح تلك النقاط.

أ ـ الشك المطلق وحجج الشكّاك والرد عليها.

ب ـ الشك الإنكاري أو الإلحاد في الدين والرد عليه.

جـ ـ الشك المنهجي عند الغزالي وديكارت.

د ـ تقويم الشك كمنهج في البحث عن الحقيقة في ضوء الإسلام.

هـ ـ الرد علي المستشرقين في ادعائهم الموضـوعية من خلال اعتمادهم علي المنهج الشكي وكشف زيفهم.

النقطة الأولى: الشك المطلق [التعريف به وبيان حجج الشكاك والرد عليهم]

أ ـ التعريف به: إذا عرض العقل لدراسة مشكلة، ثم عجز عن فهمها أو تقديم حل لها أو عزّ عليه أن يتوصل إلي يقين بصددها، مال إلي التوقف عن إصدار حكم بشأنها وتعليق الحكم، وهو ما يعرف بالشك ـ كنظرية في المعرفة ـ فهو يراد به التوقف عن إصدار حكم ما، استناداً إلي أن كل قضية تقبل السلب والإيجاب بقوة متعادلة، وأن أدوات المعرفة من عقل أو حواس أو غير ذلك لا تكفل اليقين، وهو مايسمي بالشك الإيستمولوجي فصاحبه متردّد عاجز عن إدراك حقيقة ما، غير مطمئن إلي وجود أداة تمكنه من اكتساب علم صحيح(١).

هذا النوع: من الشك التام في إمكان المعرفة، وفقدان الثقة في أدوات المعرفة، كان أول ظهوره كمذهب فلسفي في اليونان علي يد(بيرون ت: ٢٧٥ق ـ م) والذي يقول: يجب أن لانثق في الحواس ولا في العقل، وأن نبقي من غير رأي، ويجب أن ننفي ونثبت معاً، أولا ننفي ولا نثبت(٢).

* **ثم جاء السوفسطائيون:** بعد ذلك فحكموا باستحالة المعرفة وقطعوا بإنكارها في حزم.. وردّوا المعرفة إلي الحس وحده، فانتهي بهم الأمر إلي القول بأن الفكر لا يقع علي شئ ثابت، ومن ثَمَّ امتنع إصدار الأحكام، وبطل القول بوجود حقيقة مطلقة، بل تعذر وجود الخطأ، وأنكروا إمكانية إصدار الأحكام العامة لأنها تستلزم أن تكون الفكرة حاضرة في جميع العقول مع أن الحقيقة عندهم وقف علي الفرد ـ وبهذا امتنع العلم.

وهم بذلك قد أنكروا الحقائق المطلقة، وأحلوا محلها الحقائق الجزئية المتعددة تبعا لتعدد الأفراد واختلاف الأحوال. وجاهروا بامتناع الخطأ لأن مايراه فرد خطأ يراه غيره صوابا، وكلاهما علي حق فيما رأيا لأن الفرد ـ عندهم ـ مقياس الحقائق.

---

(١) أسس الفلسفة ص ١١٩، ١٢٢.

(٢) مع الفيلسوف ص ١٤٤ تأليف محمد ثابت الغندي طبعة دار النهضة العربية بيروت.

* **ثم نحتَ الأكاديمية الجديدة:** منحي السوفسطائية في الهدم، وأساءت الظن بأدوات المعرفة من الحس والعقل، وأنكرت وجود مقياس للحقائق وقالت باستحالة المعرفة اليقينية الصادقة ولكنهم لم يقطعوا بإنكار المعرفة بل أخذوا بمبدأ الاحتمال أو الترجيح، فقالوا: إن قضية مّا يمكن أن تكون أكثر احتمالا أو أدني إلي الصواب من قضية أخرى.

* **ومن خلال هذا العرض التاريخى نخلص:** إلي أن الشك «الإيستمولوجى» أو المطلق، تدرج من تعليق الحكم والتوقف عن إصداره إثباتا أو نفيا ـ كما عند «بيرون» وهو شك اللا أدرية. إلي القطع بعدم إمكان المعرفة واستحالة وجود حقيقة مطلقة، كما عند «السوفسطائيين».

إلي الأخذ بمبدأ الاحتمال أو الترجيح ـ كما عند المدرسة الفلسفية الغربية التي يطلق عليها «الأكاديمية الجديدة» ولكن جميع هذه الطرق تشترك في القول بعدم وجود معرفة حقيقية أو يقينية.

ب ـ [بيان حجج الشكّاك والرد عليها]

لقد أورد الشكاك حجّجا تؤيد موقفهم من الحقيقة، بعضها يتعلق **بالذات** التي تحكم كقولهم: إن قوة الإدراك تتوقف علي بنية وتركيب الذات التي تصدر الحكم، فحاسة الشم مثلا تختلف من حيوان لآخر، وحواس الإنسان تختلف قوة وضعفا من إنسان لآخر وهكذا.

وبعض هذه الحجج تتعلق **بالموضوع** الذي يحكم عليه كقولهم: إن سحالة الفضة تبدو سوداء وهي مبعثرة، وتبدو للعين بيضاء وهي مجتمعة وهكذا...

والبعض الآخر يتعلّق **بالذات والموضوع معاً** كقولهم: إن السفينة تبدو في عرض البحر من بعيد صغيرة وساكنة، وتبدو من قريب كبيرة ومتحركة وهكذا...

بل لم يقتصر الشك التام علي الذات والموضوع، بل تطرّق إلي البرهان الرياضي، والقياس المنطقي، بل شك الشكاك في العقل نفسه حينما قالوا: إن البرهنة علي قيمة العقل لا تكون إلا بالعقل، فكيف نبرهن علي الشئ بنفسه.. إلخ[1].

(١) راجع كتاب مدخل جديد إلي الفلسفة ص ١١٤ ـ ١٢٣ للدكتور عبد الرحمن بدوى.

* ويعتبر الشك السوفسطائي أكثر أنواع الشك التام ذيوعا، وقد تردّد صداه عند من جاء بعدهم من الشكاك، وقد تصدى لهم «أرسطو» حينما وجدهم يطيحون بالحقائق المطلقة في مجال العلم، ويقضون علي المبادئ اليقينية في ميدان الأخلاق، معتمدين في ذلك علي اشتراك الألفاظ وغموض المعاني وإلباس الحقائق علي الناس.

وعرض «أرسطو» لدحض الحجج التي لاذ بها «بروتاجوراس + ٤١٠ ق.م» وأتباعه وهي تتلخص فى:

١ ـ يقولون: إن الأضداد يمكن أن تتفق لشئ واحد فيكون في آن واحد حاراً وبارداً، وخشناً وناعماً، مراً وحلواً... إلخ وزعموا أنها كانت فيه جميعا لأن الوجود يمتنع أن يخرج من لا وجود ورد عليهم «أرسطو» بقوله: إن الضدين قد يجتمعان لشئ واحد في آن واحد، ولكن بشرط ألا يكون اجتماعهما من جهة واحدة... فنقول: إن هذا الماء ساخن بالفعل بارد بالقوة في آن واحد.

٢- يقولون: إن اختلاف الإحساس عند الناس بل فى الفرد الواحد يترتب عليه تعدد الحقيقة الواحدة بتعدد الأفراد، وتغيّرها بتغير الحالات التى تطرأ على الفرد الواحد والإحساس الواحد، فقد يكون الشيء حلوا فى مذاق إنسان ومراً فى مذاق غيره، بل يبدو عند الفرد الواحد حلوا فى حين ومراً فى حين آخر.

ورد عليهم «أرسطو» بقوله: إن حقيقة الشئ ليست حالته التي يبدو عليها دون نظر إلي أي اعتبار فالمقادير والألوان هي كما تبدو للحس السليم لا المريض، وعن قرب لا عن بعد... ولا يحدث قط أن يقرّر حسّ أن شيئا كذا وليس كذا في آن واحد.

٣ ـ يقولون: إن الموجودات كلها محسوسات، ولما كانت المحسوسات في حركة متصلة فقد توهموا أن التعبير عن أي حقيقة بصددها مستحيل حيث لايبقي شئ علي حالة واحدة، ولا يوجد ثبات لشئ ـ لاحظ أن السوفسطائيين لا يؤمنون بما وراء الطبيعة ولا يعترفون بالوجود الغيبي ـ ورد عليهم «أرسطو» بقوله: إن

التغيّر يكون في العرض، وليس في الذات، فالذي يتغير هو الصفات، والعلم بالأشياء يكون بالذوات لا بالأعراض[1].

إلي آخر حججهم الشكية التي لم يعد لها وزن في إنكار قدرة الإنسان علي الوصول إلى المعرفة الصحيحة والتى فندها «أرسطو» حينما أثبت أن الضدين يمكن أن يجتمعا في الشئ الواحد في آن واحد ولكن من جهتين مختلفتين لا من جهة واحدة، وأن الحكم علي الشئ في ذاته ميسور إذا راعينا التغيّر الذي يطرأ علي أدوات الإدراك عند المدرك، وأن العلم بالشئ يكون بالذات لا بالعرض.

وهكذا أثبت «أرسطو» إمكان المعرفة، وأثبت للحواس إدراك النسبى، وأثبت للعقل إدراك الكلي أو المطلق.

واستطاع دعاة اليقين أن يقوّضوا الشك المطلق، ويعتبرونه أزمة في حياة العقل، ومرضاً نفسياً يملأ الصدر بالقلق والضيق، وأن الشكاك يتناقضون مع أنفسهم حينما يقولون: إن العقل لا يقوي علي التدليل علي صحة قضية ما، فكيف أمكنهم أن يبرهنوا علي صحة الشك وصدق اتجاهه؟ أليس العقل الذي أنكروه هو العقل الذي استخدموه في إثبات شكهم؟. إنه فعلا مذهب متهافت متناقض يهدم نفسه بنفسه.

النقطة الثانية: الشك الإنكارى أو الإلحاد فى الدين والرد عليه

الشك الإنكاري يُسمّي شكا تجاوزاً، لأنه حينما يشك الإنسان في المعتقد الذي يجمع عليه الناس لا يسمي حينئذ شاكا، وإنما يسمي منكراً أو ملحداً في الدين، فالإنكار بنفى الاعتقاد في أمر ما يتضمن الاعتقاد في أمر إيجابي يقابله، فكما أن الذي ينكر كروية الأرض وحركتها: يكون في الوقت ذاته معتقدا أو مثبتا لاستوائها وسكونها، كذلك الذي ينكر وجود الله ينطوى إنكاره علي إمكان الاعتقاد بوجود إله غيره، والمعروف، أن الاعتقاد في قضية يتضمن احتمال إنكار عكسها.

ومن هنا حكم الفلاسفة علي الشك الإنكاري أو الإلحاد في الدين بأنه لا يدخل ضمن الشك المطلق لأن الشك المطلق تعليق للحكم، ولكن الملحد في

(١) أنظر أسس الفلسفة ص ٨٥، ٨٦.

الدين يتضمن موقفه هذا حكما سليبا في قضية ما، فالذي يشك في كروية الأرض مثلا يمتنع ـ كشاك ـ عن إصدار حكم بكرويتها أو عدم كرويتها علي السواء لأنه غير قادر علي الإثبات أو النفي بشأنها، أمّا الذي ينكر كرويتها فإنه يكون قد أصدر حكما ضمنيا باعتقاده في استوائها.

وعلي هذا فالفرق واضح بين الشك «الإيستمولوجى» وبين الإنكار ـ أو عدم الإعتقاد ـ إذ شتان بين من يصدر حكما سلبيا ومن يتوقف عن إصدار الحكم مطلقا سلبيا كان أو إيجابيا. وإذا كان موضوع الشك هو المعرفة الصحيحة، فإن موضوع الإلحاد بمعناه الديني هو المعتقدات التي يسلم بها الناس، ولهذا جاز الجمع بين الشك في المعرفة وبين الإيمان بالله لأن الشك في المعرفة غير الشك في الله[1].

ومن هنا تكون مناقشة الملحد غير مناقشة الشاك. فالملحد يُناقش في مبررات الإنكار والدلائل التي ارتكز عليها، ولماذا قبل السلب دون الإيجاب في الإيمان بالله؟ وما هي مرجحات الكفر لديه؟ وما نوع الإله الذي ارتضاه ضمنا بعد إنكاره الإيمان بالله جل جلاله؟ هل العقل، أم المادة، أم النظام، أم ماذا؟ وهل يصلح شئ من هؤلاء أن يكون إلها له الكمال والخلق، ومنه البداية وإليه المرجع والمآب.. إلي غير ذلك من دلائل الربوبية وشواهد الوجدانية المثبته لربوبية الله لجميع المخلوقات وتفرده بالوحدانية والعبادة جل جلاله. وليس المقام هنا مقام استقصاء للرد علي الملحدين في الدين، وإنما هو بيان وصف لحالهم في مسألة الشك، وأنهم بإنكارهم الصريح للدين قد خرجوا من دائرة الشك وتعليق الحكم إلي دائرة القطع بالإنكار والإلحاد في الدين.

النقطة الثالثة: الشك المنهجي [التعريف به، أصله عند اليونان والغزالى وديكارت]

سبق أن بيّنا: أن الشك الحقيقي هو حالة ريب تسيطر علي الإنسان، وهو أشبه بالمرض العقلي المزمن، فصاحبه يعيش شاكاً ويموت شاكاً، وهو في نظر القائلين به: غاية في ذاته وليس وسيلة، وهذا النوع من الشك، مذهب هدام، ويتناقض مع نفسه.

---

(١) أنظر أسس الفلسفة ص ١١٩، ١٢٠.

ولكن الشك قد يصبح عند البعض وسيلة وليس غاية، يعبتره صاحبه منهجا للوصول إلي الحقيقة، فهو يشك من أجل أن يتحقق ويستقر، وليس يشك لذات الشك، وهذا النوع من الشك هو ما يعرف «بالشك العلمى» أو «الشك المنهجى» وهو مسلك يختاره صاحبه بإرادته رغبة منه في امتحان معلوماته، وبيان الحق من الباطل فيها، وقد يقع اضطراراً، لكنه لا يصير حالة ملازمة، بل يصبح عقبة يتخطاها الإنسان فيصل منه إلي اليقين، ولعل أوضح نموذج علي اتخاذ الشك منهجا في الوصول إلي المعرفة هو الفيلسوف الفرنسي «ديكارت + ١٦٥٠» وأوضح نموذج علي أن الشك قد يصيب الإنسان اضطراراً هو «أبو حامد الغزالى المتوفي سنة ٥٠٥هـ».

إن الشك المنهجى هو: منهج يفرضه صاحبه بإرادته رغبة منه في امتحان معلوماته، واختبار معرفته، وتطهير عقله من كل مايحويه من مغالطات وأضاليل، وهو يمكّن صاحبه من البدء بدراسة موضوعه وكأنه لا يعلم عنه شيئا، فلا يتأثر بالأخطاء المألوفة، أو المغالطات التي يتلقاها عن غيره من الناس أو يقرأها في كتب الباحثين. . . إنه خطوة تسلم إلي اليقين أو تؤدّي إلي المعرفة الصادقة، فهو وسيلة وليس غاية في ذاته»[(١)].

وإذا كان كثير من رجال الفلسفة الحديثة قد رغّب في هذا النوع من الشك واعتبروه ضروريا لكل معرفة سواء في ذلك العقليون، وعلي رأسهم «رينيه ديكارت» وقد أسموه «بالشك المنهجى» أو التجريبيون من أمثال «ديفيد هيوم - ١٧٧٢م» وقد سمّاه «بالشك العلمى»[(٢)]، ويبالغ البعض في أهمية هذا النوع من الشك، فجعلوه أساس النهضة العقلية والعلمية في أوروبا، بل قال البعض: إن المذهب التجريبي هو ثمرة من ثمار المنهج الشكي في البحث، بل إن فتوحات العلم في ماضيه وحاضره ليست إلاّ أثرا من آثار هذا المنهج الشكى.

---

(١) أسس الفلسفة ص ١٢٩.

(٢) مصادر المعرفة ص ٦٤.

وقد سبق فلاسفة العصر الحديث في استخدام هذا المنهج، فلاسفة اليونان وعلي رأسهم سقراط وأرسطو، وكان لحجج سقراط الشكية، ومن بعده أرسطو في محاورة السوفسطائيين، أثر كبير في تأكيد الحقيقة، والوصول إلي المعرفة الصحيحة.

ولقد اصطنع «سقراط» الشك في مناقشة حكماء عصره، فكان يكشف عن حقيقة فكرهم بإثارة الشك في صوابها، وكان لمنهجه جانبان: **سلبى**: وهو التهكم الذي يؤدي إلي تخليص العقل من الأخطاء، **وإيجابى**: وهو التوليد الذي يرشد إلي الحقيقة، ففي مرحلة التصكم يبدو سقراط مع محدثيه، وكأنه يتعلم منهم، فيسلم بأقوالهم مصطنعاً الجهل، ثم يأخذ في الاستفسار والتساؤل وإثارة الشكوك في صحة مايقولون، ويمضي في أسئلته مستنبطا من أقولهم أفكارا لا تروقهم، فيبدو بهذا تناقضهم، وهكذا، ينتهي من مرحلة التهكم إلي تحرير العقل من الأخطاء التي أوقعه فيها محدّثوه من السوفسطائية ـ وهم حكماء عصره ـ كما كانوا يسمّون أنفسهم ويسمّيهم الناس.

فإذا توصّل «سقراط» إلى هذا، أخذ يرشد محدثيه بأسئلته إلى الحقيقة، وهذا هو الجانب الإيجابى فى منهجه»...

ثم سلك «أرسطو» مسلك أستاذه، وأيّد الشك المنهجي، وأوصى بمزاولته عند البدء بدراسة أى بحث علمى قائلا: (إن الذين يقومون ببحث علمى من غير أن يسبقوه بشك يزاولونه، يشبهون الذين على غير هدى فلا يعرفون الاتجاه الذى ينبغى أن يسلكوه)[1].

وبعد هذا العرض التاريخى للشك المنهجى ـ بصورة موجزة ـ نودّ أن نبرزه فى ضوء شخصيتين كبيرتين، ارتبط بهما هذا المنهج فى الدراسات الفلسفية. **الأول**: مفكر إسلامى كبير وهو أبو حامد الغزالى، **والثانى**: مفكر مسيحى غربى كبير وهو رينيه ديكارت.

---

(١) أسس الفلسفة ص ١٣٠.

وفى الحقيقة إن أكثر الدراسات الغربية تربط هذا المنهج فى العصر الحديث برينيه ديكارت دون الإشارة إلى أبى حامد الغزالى، رغم أن الخطوات التى سلكها أبو حامد والنتائج التى خرج بها من رحلة الشك، هى نفس الخطوات والنتائج - مع اختلاف فى العرض - التى خرج بها رينيه ديكارت، ولندرس أولا بحكم السبق التاريخى «الشك المنهجى» عند أبى حامد الغزالى، ثم نثنّى بدراسة الشك المنهجى عند رينيه ديكارت.

١ - (أبو حامد الغزالى والشك)

بداية نقول: إن أبا حامد الغزالى لم يصطنع الشك منهجا للتفكير، وإنما اتخذه منهجا للخروج من حالة الشك التى حلّت به، وقد عبر هو عن حالته بقوله: (ولما شفانى الله تعالي من هذا المرض بفضله وسعة جوده...][1]، إذن فالشك قد نزل به اضطراراً، ولم يصطنعه ابتداء طريقا إلي الحقيقة.

وقد أثار عنده حديث النبي ﷺ القائل: [كل مولود يولد علي الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه، أو يمجسانه... إلخ. شجون التحري عن حقيقة الفطرة الأصيلة، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين أو الآخرين، فأخذ يسعي إلي طلب العلم اليقيني والذي عرفه بقوله: [الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقي معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم][2].

ثم أخذ يفتّش في علومه، ويبحث عن مواضع اليقين فيها، فرآه أول الأمر في «الحسيات» فلما تفحّصها وجدها من جنس التقليدات التي لم يجد فيها «الأمان» وساق مثلا علي خداع الحواس بحاسة البصر، فقال: إن الإنسان ينظر إلي الظل فيراه واقفا غير متحرك فيحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة - بعد ساعة مثلا - يجده قد تحرك علي سنة التدرج.

ثم انتقل إلي «العقليات» بعد أن فقد الثقة في التقليدات وفي المحسوسات - كمصدر للأمان واليقين - فلما تفحصّها وجدها هي الآخري لا أمان فيها، وقال

---

(١) المنقذ من الظلال ص ٧٦ الطبعة المحققة.

(٣) المنقذ من الضلال ص ٦٩.

لنفسه: إذا كان حاكم العقل قد كذب الحس في أحكامه، فقد يأتي حاكم آخر فوق العقل يكذبه أيضا في أحكامه، واستشهد بحالة النائم الذي يري أموراً ويتخيّل أحوالاً فيعتقد لها ثباتا واستقراراً، فلما يستيقظ لم يجد لجميع معتقداته وتخيلاته أصلا ولا حقيقة، وهكذا يمكن أن يطرأ علىٰ العقل حالة تكون نسبتها إلي اليقظة، كنسبة اليقظة إلي المنام.

وبعد هذه الرحلة الشكية في مصادر المعرفة وأدوات العلم، يقول الغزالى: [فلما خطرت لي هذه الخواطر، وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر، إذ لم يمكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلّمة، لم يمكن ترتيب الدليل، فأعضل هذا الداء، ودام قريبا من شهرين، أنا فيها علي مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال، حتي شفى الله من ذلك المرض، وعادت النفس إلي الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها علي أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالي في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف...][1]، وهكذا انتهي الغزالي إلي وجود اليقين في الأوليات العقلية والتي أطلق عليها «ديكارت» فيما بعد مصطلح «الحدس»، ومن قرأ كتاب «معيار العلم» لأبي حامد الغزالي يلمس منهج الغزالي في طلب اليقين، حيث اشترط وضوح الأفكار، وانكشافها للعقل انكشافا بديهيا.

وهكذا انتهي الغزالي ـ كما أشرنا من قبل ـ إلي أن الأوليات العقلية أو الفطرية هي مفتاح المعرفة السليمة، ولولاها لما رجع اليقين إلي العقل، ويجب أن نثق بها ونطمئن إليها كقولك: العشرة أكثر من الثلاثة، وقولك: النفي والإثبات لا يجتمعان علي شئ واحد من جهة واحدة وهكذا...

والذي نخلص إليه بعد هذا السرد فى إيجاز شديد:-

أ ـ أن الغزالي لم يصطنع الشك ابتداء، وإنما أخذه وسيلة للخروج من أزمته العارضة.

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٦٨ ـ ٨٦.

ب ـ أن الغزالي ـ وهذا هام جدا ـ لم يشك في العقيدة الثابتة، ولم يبق بدون عقيدة انتظاراً لمسلك النظر واليقين، وهو إذا كان قد ترفّع عن التقليد مصدراً للمعرفة، وجعل الحق قائما بنفسه وليس بمن قاله، فإنه لم يُجوّز أن يُهجَر كل حق سابق، له خاطر مبطل، وإلا لزم هجر كثير من الحق كالقرآن والسنة والعقيدة الصحيحة.

جـ ـ ومن هنا كان شك الغزالي في أدوات المعرفة من التقليد والحواس والعقل، من حيث مايتعلق بهذه المصادر من المعلومات الحسية أو المشاهدة، أما أخبار الغيب الصادقة الثابتة بالنقل الصحيح والتواتر فلم يُدّخلها الغزالي ضمن دائرة الشك: هذا والله أعلم.

د ـ اشترط الغزالي في الحق شرطين: الأول: أن يكون معقولا في نفسه مؤيدا بالبرهان، والثانى: أن يكون موافقا للقرآن والسنة، أي مؤيدا بالأدلة الشرعية ومن هنا كان حدّسه العقلي مؤيدا بالعقيدة الإسلامية الثابتة[1].

٢ ـ [رينيه ديكارت ـ والشك المنهجى]

يعتبر «ديكارت» في نظر الكثير من الغربيين واضع منهج البحث الرياضي (الاستنباط)، أو مايعرف بمنهج البحث العقلي، ومنهجه كان يقابله منهج البحث التجريبي (الاستقراء) الذي وضعه «فرنسيس بيكون» وهو مايعرف بمنهج البحث التجريبي والذي كان الأساس في انطلاق العلوم الطبيعية، كما كان منهج الاستنباط الديكارتي الأساس في نهضة العلوم الإنسانية والمعيارية. ويقيم ديكارت منهجه علي أساس الحدْس، والاستنباط العقلى.

والحدْس ـ كما يراه ديكارت: - نور فطري يمكّن الإنسان من إدراك الأفكار البسيطة والحقائق الثابتة، والروابط بين قضية وأخرى، إدراكا مباشرا في زمان واحد، وليس علي التعاقب.

ويعني ـ ديكارت ـ بالأفكار البسيطة: الخواص الطبيعية للأشياء والتي يدركها «الحدْس» بدون مقدمات مثل: الزمان، والمكان، والامتداد، والحركة، ومثل

(١) راجع المقدمة الجامعة لكتاب المنقذ من الضلال من ص ٥ ـ ٦٢.

الروابط بين قضية وأخري: المساويان لشئ واحد متساويان، ومثل: الكميات المتساوية إذا أضيفت إليها كميات متساوية كان الناتج متساوياً وهكذا. . .

ويريد ديكارت بالحدْس ـ كأساس أول في منهجه ـ انتقال الذهن انتقالاً سريعا ومباشرة من معلوم إلي مجهول، وبعد الحدْس تجئ مرحلة الاستباط العقلي وهو: حركة ذهنية نستنتج بها شيئا مجهولا من شئ معلوم، ويراد به البرهنة علي قضية ما عن طريق مبادئ عامة تصدق عليها، وبه نستخلص من شئ نعرفه معرفة يقينية نتائج تلزم عنه.

وأقام ديكارت منهجه علي أسس رياضية، لأن المقدمات الرياضية تمتاز بالنظام والترابط الذي يسلم إلي النتيجة الصحيحة.

ويري ديكارت أن النفس قد أودعت فيها بذور الأفكار النافعة وكلما اتجهنا إلي البساطة واتخذنا النور الفطرى «الحدْس» أداة للإدراك كان اكتشاف الحقيقة أأمن وأيسر، وهاجم ديكارت المنهج الأرسطي وأشار إلي أن منهجه (الاستنباط) يمتاز عن منهج أرسطو بأمرين: الأول أن منهج أرسطو يقوم علي قضايا ظنية أو احتمالية، بينما منهجه يقوم علي قضايا يقينية، الثانى: أن منهج أرسطو لايقدم معارف جديدة لأن نتائج القياس الأرسطي متضمنة في مقدماته، أما نتائج الاستنباط الديكارتي فهي معرفة جديدة تكتسب بالتأمل العقلي.

ووضع ديكارت لمنهجه أربع قواعد أساسية ووصفها بأنها سهلة يمكن تطبيقها في كل بحث نظري وهى:-

١ ـ قاعدة اليقين وهي تعنى: أنه لا يُقبل شئ قط علي أنه حق إلا إذا عُرف يقينا أنه كذلك، ويجب أن يتخلي عن التهوّر وعن السبق إلي الحكم قبل النظر، ويقصد ديكارت بهذه القاعدة: تخليص العقل من الأفكار الخاطئة، وتخليصه من الشك فلا يحكم العقل إلا من خلال اليقين.

٢ ـ قاعدة التحليل: وبها قرر ديكارت وجوب تقسيم المشكلة التي نعرض لبحثها ما أمكننا ذلك، أي تقسيمها إلي أجزاء بسيطة علي قدر ماتدعو الحاجة إلى حلها

على خير الوجوه، فيرد المركب إلى البسيط، والمعقّد إلى السهل حتى يبدأ العقل تفكيره في المعضلة مطمئنا إلى وضوح الأفكار.

٣ ـ قاعدة التأليف والتركيب: وهي أساس المنهج الديكارتى، حيث يبدأ الباحث بتنظيم الأفكار ويتدرج من المعارف البسيطة والسهلة رويداً رويدا حتي يصل إلى المعرفة الأكثر تركيبا، وهذه القاعدة ـ قاعدة التدرج ـ تماثل قاعدة المعادلات الرياضية التي لا يخطئ أهلوها في حلها ومعني هذا أن ديكارت قد طبق بهذه القاعدة المنهج الرياضي على كل العلوم.

٤ ـ القاعة الرابعة: قاعدة الاستقراء التام: ويعني ديكارت بها: أن يقوم الباحث في كل مراحل البحث بإحصاءات كاملة ومراجعات شاملة تجعله على يقين من أنه لم يغفل شيئاً في موضوعه[١].

وبعد ـ فمعذرة لهذا الاستطراد ـ حول المنهج الديكارتى، لأنه خارج الموضوع، وإنما أردنا ذكره بغية الاستفادة منه عند عمل البحوث التي تسند إلى الطلاب.

وإذا كنا قد بدأنا بما انتهي إليه ديكارت وهو صياغة (المنهج العقلى) فيجب العود إلى البداية التي انطلق منها هذا المنهج ـ والتي هي موضوع بحثنا في هذه النقطة ـ إنها بداية الشك التي اصطنعها ديكارت وجعلها الأساس الأول لكل بحث، يقول «ديكارت»: إننا لكي نفحص عن الحقيقة ينبغي أن نشك في كل مايصادفنا من أشياء ولو مرة واحدة، لأننا كنّا في مرحلة الطفولة وقبل أن نبلغ طور الرجولة نحكم على الأمور التي تعرض لحواسنا تارة حكما مصيبا...».

ويكرر هذا المعني في تأملاته الفلسفية فيقول: إنه تلقّي منذ حداثة سنّه آراء باطلة ظنها صحيحة، وأن ما أقامه على أساسها مثار لكل شك، ولهذا وجد نفسه محتاجا لأن ينزع عن نفسه ولو مرة واحدة كل ماسبق له التسليم به من آراء، وأن يهدم كل ماسبق له أن يدين به من معتقدات، وأن يشرع من جديد في اختبار معارفه إذا كان يريد أن يقيم في العلم شيئا وطيداً.

---

(١) راجع قواعد الاستنباط الديكارتي بالتفصيل في أسس الفلسفة ص ٤٨ ـ ٥٢.

وفي رسالة بعث بها ديكارت إلى صديقه الأب «ميلان» حدّد مقصد هذا الشك بقوله: إذا كان لديك سلة من التفاح بعضه سليم وبعضه فاسد مفسد للبعض الآخر، فماذا تفعل للتخلص من التفاح الفاسد وتبقي على السليم؟ لاسبيل إلا بإفراغ التفاح كله من السلة وإعادة السليم منه واحدة واحدة، وطرح الفاسد بعيداً عنها.

فالعقل عند ديكارت حافل بأفكار بعضها خاطئ ولا سبيل إلى تطهير العقل من الأفكار الخاطئة إلا بإفراغه من جميع مافيه، وهو لا يترك العقل فارِغا ـ وإلا شابه غيره من الشكاك الحقيقيين ـ وإنما يعيد إليه مايراه سليما من الأفكار ويطرح عنه الخاطئ في ضوء منهجه العقلي المعروف[1].

وبدأ ديكارت بالشك في المحسوسات، ثم في المعقولات، ولم يتوقف عند ذلك، بل سار في الشك إلى نهايته، فكان مصرّا على أن يحطم الشك ويصل إلى اليقين، أو إلى الأساس العقلي الذي يمكن أن يقيم عليه فلسفته، وقد وجده ديكارت في مبدأ «الكوجيتو» وهو المبدأ اليقيني الأول عند ديكارت وهو: أنا أفكر إذن فأنا موجود، فقد رأي ديكارت أنه يشك في كل شئ إلا في أنه يشك، وهو حين يشك يفكر، ولايمكن أن يقوم شك وتفكير بغير علة، وهي ذات تفكر، إذن فما دام يشك فهو يفكر، ومادام يفكر فهو موجود، وهو بذلك قد أثبت الإنيّة بالفكر، وكان هذا هو المبدأ اليقيني البديهي الذي توصل إليه بالحدْس، ومن هنا وجد ديكارت الأساس اليقيني الذي ينطلق منه وهو المعرفة الفطرية التي تدرك بالحدْس، وتصدر عنها كل معرفة يقينية صادقة صدقا مطلقا ـ وهو بهذا قد توصّل إلى ماتوصّل إليه الغزالي ـ من أنّ المعرفة الفطرية أو الحدْسية، معرفة ضرورية بديهية يقينية، وهي نقطة الأساس التي ينطلق منها العقل ليبني ويؤسس ويستنبط ويقيم نتائجه.

وهذه المعرفة الفطرية لا تقوم باختبار تجريبي، ولا تأمل عقلي، ولا على شهادة الحواس، ولا على أحكام الخيال الخدّاع، وإنما هي عمل عقلي محض، وبه ندرك

(١) انظر في هذه الأقوال ص ١٣٢، ١٣٣ من أسس الفلسفة.

الأفكار والطبائع البسيطة التي لا تنقسم، دفعة واحدة وبدون مقدمات كالوجود والوحدة والزمان والمكان والحركة والامتداد.. إلخ.

وانطلق ديكارت من هذا الأساس اليقيني ليقيم منهجه في الاستنباط، ووضع قواعده المنهجية والتي سبقت الإشارة إليها.

واعتبر الكثيرون «ديكارت» موسس المذهب العقلي في الفلسفة الأوروبية الحديثة، لأنه رد للعقل سلطانه بعد أن هدمته مدرسة الشكاك التي تزعمها في فرنسا من قبل «مونتاني المولود سنة ١٥٩٢م» ورفض ديكارت السلطة الدينية ممثلة في الكنيسة والسلطة العلمية ممثلة في «أرسطو»، رفضهما مصدراً للحقيقة، ورد الحقيقة إلى العقل وجعل البداهة معيارها ومقياس الصواب والخطأ»[١].

ولكن ديكارت نحّي حقائق الوحي عن مجال العقل، لأنها في رأيه لا تدرك إلا بمدد من السماء خارق للعادة. واعتبر ديكارت معرفة الله تعالي معرفة فطرية، فقد انتقل من إثبات الإنّية الفكرية إلى إثبات وجود الله وصفاته، فالله كامل مطلق الكمال منزّه عن كل نقص أو خداع، وهو الذي وضع العقل فينا فهو الضامن لصحة التفكير متي كان موضوع التفكير واضحا متميزاً.

ومن هنا أباح ديكارت لنفسه ـ بعد شكه المسرف ـ أن يفكر في النفس ويعتبر ماهيتها فكرا، وفي الجسم ويعتبر ماهيته امتداداً، وانتهي ديكارت من هذا كله إلى «اليقين» بوجود العالم الخارجي وموجوداته المادية[٢].

وإذا كانت الفلسفة الأوروبية في عصر «ديكارت» يسودها الاعتقاد بوجود هذه الأفكار الفطرية التي تدرك بالحدْس، وصدر عنها كل معرفة يقينية صادقة صدقاً مطلقا، وأن الأفكار التي تكتسب بالتجربة كانت في نظر العقليين ظنية أو احتمالية على أكثر تقدير ـ إذا كان قد قدّر للمذهب العقلي أن يسود الفلسفة الأوروبية منذ أيام ديكارت حتي الحرب الأوروبية الأولي ـ إلا أنه بدأ يأخذ في الانحسار أمام المذهب التجريبي الذي أخذ ينتشر بسرعة، وبدأ يقوّض المذهب العقلي، ويرفض

(١) انظر أسس الفلسفة ص ١٥١.

(٢) انظر أسس الفلسفة ١٣٧ ـ ١٣٨.

القول بالمعرفة الأولية السابقة على كل تجربة، وينكر الفطرة مصدراً للعلم، بل غالي بعض أصحاب النزعة الحسية التجريبية فأنكروا وجود العقل، وجعله البعض تابعاً للحس أو المادة، وبلغ هذا الاتجاه ذروته في الوضعية المنطقية المعاصرة.

وقد سقنا هذه النبذة لنشير من خلالها إلى مدي الاختلاف بين الباحثين حول مصادر المعرفة، وأيها يوصل إلى اليقين، ويصلح أساساً في الوصول إلى الحق، هل هو العقل، أم الفطرة والحدْس، أم المحسوسات أو بعبارة أخري الحس والتجربة أم الوحى، وهذا الأخير هو ماحرصت الحضارة الغربية فى جل توجهاتها الفكرية على استبعاده من مصادر المعرفة حتي استحقت أن توصف بأنها حضارة مادية بحتة لأنها تقوم في استنباط معارفها من المصادر التي ترتبط بهذا الوجود المحسوس دون غيره.

النقطة الرابعة: تقويم الشك كمنهج فى البحث في ضوء الإسلام

بداية نقول: إن الشك التام أو المطلق بكل درجاته مرفوض في المنظور الإسلامي، سواء ماكان منه على مذهب اللا أدرية، أم ماكان على مذهب السفسطة، أم ماكان على مذهب الترجيح والاحتمال، لأن هذا الشك ينفي الوجود الحقيقي للأشياء، وقد قرّر الإسلام أن للأشياء وجوداً عينياً مستقلا عما في الذهن، سواء أدركه الإنسان أم عجز عن إدراكه، بل إن الوجود فى الإسلام ليس قاصرا على الوجود الحسّ المشاهد، وإنما يوجد وجود حقيقى آخر وهو الوجود الغيبى. . . وهو مايطلق عليه «علم الغيب».

ومن هنا كان مذهب الشك المطلق مرفوضا ولا يمت للعلم أو العقل بصلة، وهو أشبه مايكون بالمرض أو بالهلوسة التي تصيب بعض الناس.

ومن هنا: فإن الإسلام يرفض رفضا باتا القول بعدم إمكان المعرفة، والتي روّج لها أصحاب الشك المطلق، ويصرح بإمكان المعرفة الإنسانية الصحيحية إذا ماسلك الإنسان السبل المؤدية إليها.

أما الشك المنهجى: الذي يتخذه صاحبه وسيلة للوصول إلى اليقين، وطريقا لاختبار المعلومات التي لديه فينظر إلى الدائرة التي يتوجه إليها الشك بمعنى:

١ ـ إن كان الشك فى العلوم النظرية المكتسبة: [سواء اكتسبها الإنسان بالتجربة، أو بالتقليد، أو بالاستنتاج القابل للخطأ، أو التأثر بالآخرين. . .] وسعي في تمحيصها مستخدما أسلوب الشك حتي يصل الحق فيلتزمه، ويعرف الباطل فيتجنبه، فهذا المنحي لابأس به ولا يمنع منه الإسلام، بل إن الإسلام يحضّ على النظر والبرهان، ويحث على تحّري الحق، وينهي من كانت لديه القدرة على الاجتهاد ومعرفة الدليل، ينهاه عن التقليد، وما أكثر نصوص القرآن التي جاءت تطلب النظر والتدبر والتفكير، وتنهي عن التقليد الأعمي لموروثات الآباء والأجداد، وتبين أن الظن لايقيم علما صحيحا، وإنما العلم الصحيح الذي

يقوم على النظر والبرهان، يقول تعالى: ﴿**إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا**﴾، ويقول تعالى: ﴿**أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾.. إلخ الدلائل الكثيرة في الإسلام والتي وعاها السلف الأول وظهر أثرها في مناهجهم العملية والتجريبية.

٢ ـ أما إذا تطور الشك فوصل إلى المبادئ الفطرية الراسخة في العقل، أو مايسمي بالمبادئ القبلية، أو المعارف الأولية البديهية ـ فهذا مايرفضه الإسلام، ويرفضه العقل السليم، لأن الشك في هذه المنطقة شك في بؤرة الوجود الإنسانى، أو شك في الأساس الذي يتحاكم إليه الإسلام لغرس العقائد، إنها منطقة الفطرة، وأساس التميّز الإنساني عن سائر الموجودات، إنها منطقة النور التي خلق الله كل إنسان مزوداً بها ـ حتي وإن انحرفت به عوامل البيئة والوراثة بعد ذلك، إنها ـ كما وصفها الحق جل وعلا «سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا» إنها الفطرة التي يوقظها الله في البشر، فتتحرك فيهم تلك المبادئ الضرورية المودعة في العقول، فتزن من خلالها ماعليه من عقائد فاسدة وتقارنها بدعوة الحق التى دعاهم إليها الإسلام فيصلون إلى المعرفة الصحيحة وإلى العقيدة السليمة، وصدق الله القائل: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ وقال تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾.

ومن هنا يكون الشك فى هذه المبادىء الضرورية فى العقل، هو الشك فى العقل ذاته، وإذا سقط العقل فماذا بقى فى الإنسان؟ ونحن نعلم أن أصحاب الشك المنهجى قد انتهوا ـ من حيث علموا أو لم يعلموا ـ إلى هذه المباديء الضرورية، وبنوا عليها معارفهم دون تساؤلات عن أصلها أو شك فى قيمتها[1]، وسلمّوا بأنها مغروسة فى الإنسان بنور الله مباشرة، فهى ليست نتيجة تجربة ولا تعلم ولا خبرة، وإنما هى منحة الله إلى عباده.

(١) مصادر المعرفة ص٨١ مرجع سابق.

أما الشك الإنكارى أو الإلحـاد فى الدين، فهذا كما ذكرنا من قـبل: ليس شكا فى الحقيقة، وإنما هو إنكار وإلحاد فى الديـن، فإن المنكر لوجود الله ينطوى إنكاره على إمكان الاعتقـاد بوجود إله، ومن هنا ذهبت الدراسات السيكـولوجية الحديثة إلى اعتبار الاعتقاد والإنكار- أو الإيمان والإلحاد- مظهرين لحالة نفسية واحدة[1].

وقد رأينا كيف اسـتبعد الغزالى دائرة الاعتقاد أو الوحـى عن دائرة الشك وقال قولته المشهورة: «لايـجوز أن يهجر كل حق سابق، له خاطر مـبطل، والإ لزم هجر كثير من الحق كالقرآن والسنة والعقيدة».

[كمـا رأينا أيـضا ديكارت، قـد استبـعد الوحـى عن دائرة الشـك وقال قولـته المشهورة: «إن حقائق الوحى لا تدرك إلا بمدد من السماء خارق للعادة، فهى عنده فوق مجال العقل وبالتالى غير خاضعـة للشك، حتى وصفه البعض: بأنه ارتد إلى النزعة اللا عقلية فى مجال الدين.

ومن هنا: يصبـح الشك فى العقيدة كفرًا وإلحادًا ولا يـدخل من قريب ولا من بعيد فى مجال الشك المنهجى الذى هو طريق للوصول إلى الحق عند القائلين به.

النقطة الخامسة: الرد على المستشرقين فى ادعائهم الموضوعة وكشف زيفهم

يدعى المستسشرقون أنهم يلتزمون الموضـوعية فى بحوثهم، وأنهم يدخلون على البحث بعقول مجردة من الهوى ومن العصبية، ويقولون: نحن نشك فى كل شئ حتى فى المسلَّمات الـتى درجت عليها الأمم وعفا عليها الزمـن، ويصفون بحوثهم بالنزاهة والإنصـاف، وأنهم لا يتأثرون بمعتقدات سابقـة ولا بموروثات قديمة، وإنما ينطلـقون فى بحوثهم بكـامل الحيدة والإنصاف من أجل الـوصول إلى الحق دون سواه، وأنهم يلتزمون فى بحوثهم«الشك المنهجى» الذى هو طريق إلى اليقين.

وفى الحقيقة: هذه دعوى منقوضة من زاويتين:

الأولى: أن «الشك المنهجى»لا يصلح أن يطـبق إلا فى جانب الدراسات النظرية المكتسـبة، أما المبادئ الفطريـة والعقائد الصحيـحة الثابتة، فهى خـارج مجال هذا المنهج، وتطبيقه عليها يعد إهدارًا لها، وإغراقا فى العمى والضلال.

(١) أسس الفلسفة ص ١٢٠.

الثانية: أن واقع الدارسات الاستشراقية يخالف تلك الدعوى العريضة التى يتغنّى بها المستشرقون، فجلها دراسات تحمل طابع التعصب والحقد على الإسلام، وتحرص على تشويه صورة الإسلام، وتبعد عن المنهج العلمى فى البحث والاستدلال، وكان هدفهم من استخدام المنهج الشكى فيحصر فقط فى... تشكيك المسلمين فى تراثهم وعقيدتهم، وليس إنصاف الحق- كما يقولون- وما أكثر الشواهد على ذلك فى دراساتهم، وانظر على سبيل المثال إلى «جولد تسيهر»ذلك المستشرق المجرى اليهودى فى كتابيه«العقيدة والشريعة فى الإسلام» و«دارسات إسلامية» وجل ما جاء فى الكتابين إنما هو تشويه متعمد، وطعن مقصود فى مصدرى الإسلام القرآن والسنة، انظره وهو يقول: إن القسم الأكبر من الحديث ليس الا نتيجة للتطور الدينى والسياسى والاجتماعى فى القرنين الأول والثانى، وليس صحيحا مايقال: بأن الحديث كان هو وثيقة الإسلام فى عهده الأول، عهد الطفولة، وإنما هو أثر من آثار جهود المسلمين فى عصر النضوج»: هذا فوق طعنه فى كبار الرواة من الصحابة أمثال أبى هريرة وكبار الرواة من التابعين أمثال الإمام الزهرى، وقد تصدى للرد عليه علماء السنة وبينوا كيف أنه يعتمد على الروايات الضعيفة، ويقطع الكلام عند النقل ويغيره من أجل أن يصل إلى مقصوده فى التشويه[1]، وموقفه من القرآن ينضح بالحقد والتعصب أكثر من السنة، وغالبا ما يعتمد على كتب التاريخ والقصص فى نقده للسنة وللقرآن،

وعلى أقوال الفرق الضالة، وعلى التدليس فى الأخبار والتقاط الساقط من الأقوال وترك الصحيح، إنهم يتركون الأصول الثابتة ويبحثون فى الفروع، حيث يجدون فرصتهم فى تحوير المسائل وإيجاد التناقضات التى تنبئ عن هويتهم الحاقدة، والمجال يطول بنا لو استعرضنا جهود المستشرقين فى مجال الدراسات الإسلامية من علوم اللغة، والفقه، والأصول، والقرآن وعلومه، والسنة وعلومها، ودوائر

(١) انظر فى ذلك كتاب«السنة ومكانتها فى التشريع» للدكتور مصطفى السباعى مبحث شبهات المستشرقين والرد عليها.

معارفهم تكشف مخازيهم فى التحامل على الإسلام وتشويه صورته ، ونحن نعلم أن جل المستشـرقين هم من اليهود ومن قُـسس النصارى المتعصـبين ضد الإسلام، ومن يقرأ كتبهم- إلا النذر اليسير من المنصفين- يجد فيها تشويه الحقائق والتدليس العـلمـى، والـطعن من غـير سند ولا دلـيل فى ثوابـت الإسلام وقواعده ولـيس صحيحا مايدعونـه من أنهم يستخدمون المنهج الشكـى من أجل الوصول إلى الحق فقد كذبوا، وتفضحهـم كتبهم ومؤلفاتهم التى تناولها عـلماء الإسلام بالنقد، وإنما هدفهم الحقيقى إنما هو تشويه الإسلام وزعزعة الثقة فيه بين أبنائه فضلا عن تقديمه لبنى جلدتهم مشوها حتى ينفروا منه ولا يفكروا فى الدخول فيه، وكانوا بحق من أكبر الصـادّين عن دين الله فى الأرض، وإنا لله وإنا إليـه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

القضية الرابعة:

قضية اللغة العربية وتشمل:

أ - اللغة العربية: [أهميتها وخصائصها وعالميتها].

ب - التحديات التي تواجه اللغة العربية وتشمل: [الدعوة إلى ترك قواعد النحو والصرف، الدعوة إلى العامية وترك الفصحى، الدعوة إلى الكتابة بغير الحروف العربية]

إن اللغة العربية فى أي أمة هى شريانها المتدفق، ونبض حياتها، وعنوان وجودها، وسجل تراثها وأسلافها، فهى أداة نقل الأفكار والمشاعر، وبها يستطيع الفرد أن يعبر عن نفسه، وهى أساس وحدة المجتمع ومعيار ثقافته، واللغة ذات مدلولات فكرية تتمايز بها المجتمعات، فمدلول كلمة «دين» وكلمة «زكاة» فى اللغة العربية يختلف عن مدلولها فى اللغة الفرنسية مثلا، ومن هنا كانت اللغة هى صانعة الوحدة الفكرية لكل أمة، وهى رابط أساسى فى وحدتها وبها تتمايز المجتمعات، وصدق الله القائل: **﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾**(١).

وإذا كانت اللغة ذات أهمية فى حياة الأمم، فإن اللغة العربية هى روح الأمة الإسلامية، وهى وعاء الدين وحاميته، وبقاؤها بقاء للدين وللأمة، ولم توجد لغة ارتبطت بحياة أمة مثل اللغة العربية، لأنها لغة القرآن والسنة والعلوم والتراث، فهى العمود الفقرى للإسلام، وهل يستغنى بناء عن عماد، وهل يبقى ذكر لأمة الإسلام إذا ذابت اللغة العربية؟ إنها حقاً لغة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين.

ولهذا: ستكون دراستنا فى هذه القضية متضمنة محورين رئيسيين:

الأول: عن اللغة العربية، والثانى: عن التحديات المعاصرة التى تواجه اللغة العربية.

وسيكون حديثنا عن الشق الأول متضمناً عدة نقاط هى:

أ - أهمية اللغة العربية ومنزلتها فى دين الإسلام.

ب - أثر القرآن لكريم فى حفظ اللغة العربية وانتشارها.

جـ - خصائص اللغة العربية.

د - عالمية اللغة العربية.

أما حديثنا عن الشق الثانى من القضية وهو التحديات المعاصرة للغة العربية فيتضمن ما يأتى:

---

(١) الروم الآية رقم ٢٢.

أ - محاولات القضاء على قواعد اللغة العربية [النحو والصرف].

ب - محاولات إحلال العامية محل الفصحى فى التعليم والمحادثة والإعلام والاستخدام الرسمى.

جـ - محاولات تغيير الحروف العربية وكتابتها بالحروف اللاتينية أو تغييرها.

وأسأل الله أن يوفق لدراسة هذه النقاط جميعها، وأن تقدم للطلاب بصورة موجزة وموفية بالغرض، ومؤدية للغاية، والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل.

اللغة العربية

[منزلتها ـ أثر القرآن فى حفظها وانتشارها ـ خصائصها ـ عالميتها].

١ - أهمية اللغة ومنزلتها من دين الإسلام:

اللغة العربية ليست أداة تخاطب فقط، ولكنها أداة تخاطب، ولغة فكر إنسانى عالمى وهو الإسلام، إنها لغة أمّة: هى الأمة العربية، ولغة فكر: هو الفكر الإسلامى، وهي تحمل فكراً وثقافة حية، ارتبطت بالتاريخ والتراث والقيم، وأثمرت هذا التراث العربى الإسلامى الذى تضمه مئات ألوف الكتب والمجلدات والمخطوطات التى تمتلىء بها معظم مكتبات العالم، إنها لغة الوحى، لغة القرآن الكريم، وهى اللغة التى دونت بها السنة، وكتب بها الفقه والأصول، ودونت بها المعارف والعلوم، فهى الوعاء الذى حوى هذا الدين، الوعاء الذى حفظه ورعاه، منذ أن نزل الوحى وحتى تقوم الساعة، وبقاؤها بقاء للإسلام، والقضاء عليها هو قضاء على الدين، وهى الصخرة التى تتحطم عليها قوى الأعداء، فهى التى تحفظ الشعوب من الذوبان فى ثقافات ولغات الآخرين، يقول «جاك بيرك»: [إن أقوى القوى التى قاومت الاستعمار الفرنسى فى المغرب هى اللغة العربية، بل اللغة العربية الكلاسيكية العظمى بالذات - الفصحى- فهى التى حالت دون ذوبان المغرب فى فرنسا، إن الكلاسيكية العربية عامل قوى فى بقاء الشعوب العربية][(١)].

حقاً إن اللغة والأمة أمران متلازمان، واللغة هى التى تجعل من الأشتات البشرية التى تتكلم بها جماعة متماسكة يديرها عقل واحد وقلب واحد - خاصة- إذا كانت هى لغة الدين الذى يؤمنون به جميعاً. إن أهمية اللغة العربية تكمن فى كونها لغة القرآن، وما أكثر الآيات التى جاءت تصرح بذلك مثل: قوله تعالى: **﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين﴾**[(٢)].

---

(١) القيم الأساسية للفكر الإسلامى ص ٢٧٢ للأستاذ أنور الجندى طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) سورة النحل: ١٠٣ (٣) سورة يوسف آية ٢

وقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين،على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربى مبين﴾[١].

والقرآن كما نعلم هو دستور هذه الأمة، وكتابها المقدس، وهو مصدر التشريع، والسنة هى المصدر الثانى ولغتها هى أيضاً اللغة العربية، ومن هنا ارتبطت اللغة العربية ارتباطاً وثيقا بالدين، ولها أوثق العلاقة بعلومه الشرعية المختلفة من تفسير وحديث وفقه وأصول وعقيدة وغيرها، واللغة العربية هى الوسيلة لفهم العلوم الشرعية وإدراكها واستقائها من مصادرها الأصلية، ولهذا صارت اللغة العربية جزءاً من الدين. يقول ابن تيمية رحمه الله-: [وأيضاً فإن الله تعالى لما أنزل كتابه باللسان العربى، وجعل رسوله ﷺ مبلغاً عنه للكتاب والحكمة بلسانه العربى، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتبار التكلم به أسهل على أهل الدين فى معرفة دين الله وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فى جميع أمورهم...][٢] وقال عمر بن الخطاب-رضى الله عنه- :تعلموا العربية فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم][٣].

٢ - أثر القرآن الكريم فى حفظ اللغة العربية وانتشارها:

إذا كان فهم القرآن، ومعرفة أسرار التعبير فيه يتوقف على اللغة العربية، ولا يستطيع أحد أن يفهم حقيقة الإعجاز القرآنى إلا إذا وقف على أسرار اللغة العربية وجمالها، فعرف نحوها وصرفها وبيانها وبديعها، أقول :إذا كان للغة العربية أثر ودور فى فهم القرآن، فإن للقرآن نفسه الأثر الأكبر فى حفظ اللغة العربية وصيانتها من التحريف والذوبان، وله الفضل الأول فى انتشارها إلى ربوع الأرض قاطبة، وإلى إثراءها واتساع مدلولاتها وألفاظها.

---

(١) سورة الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٠٢.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٧٠.

صحيح أن اللغة العربية سابقة على القرآن الكريم والإسلام، غير أن نزول القرآن بها كان بعيد الأثر فى تطور هذه اللغة واتساع آفاقها فى عالم الإسلام، بعد أن كانت محصورة فى الجزيرة العربية، ولولا القرآن لظلت اللغة العربية محصورة فى شبه الجزيرة العربية لم تخرج منها أبداً.

وقد اختصت قريش بتهذيب اللغة، وساعدها على ذلك سدانتها للكعبة، فوفدت عليها سائر القبائل، وقامت على أرضها أسواق العرب الكبرى، التى كانت ملتقى الخطباء والشعراء، كما كانت رحلاتها التجارية إلى اليمن وإلى الحبشة وإلى الشام وفارس والرومان، ذات أثر كبير فى إثراء اللغة العربية لدى قريش، وقد أصبحت لغة قريش هى أرقى اللهجات وأعذبها وأشملها على مستوى الجزيرة العربية، ولهذا نزل بها القرآن الكريم.

ويتبين أثر القرآن الكريم على اللغة العربية فيما يأتى:

أ - توسيع دائرتها حيث تحولت من لغة محلية خاصة بشبه الجزيرة العربية إلى لغة عالمية انتقلت مع الإسلام إلى شتى بقاع الأرض.

ب - أن القرآن حافظ على اللغة العربية من الذوبان وسط اللهجات العربية والإسلامية الكثيرة، وبفضل القرآن الكريم تعد اللغة العربية هى أطول اللغات الحية عمراً، وأقدمها عهداً، ولم يعرف العالم لغة عمرت-وستعمر بإذن الله تعالى- مثل اللغة العربية، لأنها لغة القرآن الذى تكفل الله بحفظه إلى يوم القيامة: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[1].

جـ - وسع القرآن من مدلول اللغة العربية حيث أضاف إليها مصطلحات فقهية وأدبية وشعرية جديدة، وأدخل إليها ألفاظاً متعددة فى جميع المجالات، مثال ذلك: لفظ الصلاة، والزكاة، والإيلاء، والظهار، ... وغيرها، فقد كانت هذه الألفاظ تدل على معانى فى اللغة قبل نزول القرآن، فتحولت لتدل على معانى اصطلاحية جديدة مع احتفاظها بأصل المعنى اللغوى، فالصلاة فى اللغة الدعاء، وفى الاصطلاح: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم. . وهكذا بقية المصطلحات.

---

(١) سورة الحجر الأية ٩.

د - حينما فشا اللحن، ودخلت العجمة إلى اللغة بسبب الفتوحات، خاف العلماء على العربية من الذوبان، أو الإنحراف ولابد من حماية القرآن وصيانته من اللحن، ومن أجل القرآن والحفاظ عليه، هب العلماء يؤسسون العلوم العربية التى تحفظ القرآن كعلم النحو والصرف والقراءات، وعلم البيان والبديع، وعلم مخارج الحروف وغيرها من العلوم الضابطة للسان العربى، من أجل صيانة القرآن وحمايته، وكان فى مقدمة المؤسسين: أبو الأسود الدؤلى، والخليل بن أحمد وسيبويه والفراء وغيرهم من العلماء فى شتى المجالات، كما اهتم العلماء بعمل المعاجم التى حوت بداخلها مفردات اللغة ودلالتها، والتى صارت المرجع الأول للباحثين فى اللغة العربية.

شهادات العلماء بفضل القرآن على اللغة العربية:

* **يقول بركلمان:** [بفضل القرآن بلغت اللغة العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أى لغة من لغات الدنيا].

* **يرى ميليه:** [أن اللغة العربية لم تتراجع عن أرض دخلتها لتأثيرها المباشر من كونها لغة دين ولغة مدنية، و على الرغم من الجهود التى بذلها المبشرون، ومع مكانة الحضارة التى جاءت بها الشعوب النصرانية، لم يخرج أحد من الإسلام إلى النصرانية ...].

* **يقول ادوارد مرقص:** [كان للقرآن الفضل فى قدرة العرب على فهم لغة امرىء القيس وطرفة وعنترةو قد مضى عليها خمسة عشر قرناً، بينما لا تستطيع أى لغة من لغات أوروبا أن تبقى على أهابها ثلاثة أو أربعة قرون قبل أن تتحول إلى صورة جديدة][1].

٣ - خصائص اللغة العربية:

أ - تتميز اللغة العربية بالخصب والغنى، ولديها قدرة فائقة على النمو والازدياد فى ألفاظها وتراكيبها مما لم يتوفر لأى لغة أخرى فى العالم، ويتضح ذلك من خلال ما يأتى:

---

(١) أنظر فى هذه الأقوال كتاب القيم الأساسية للفكر الإسلامى صفحات ٢٧٢، ٢٧٦، «مرجع سابق».

* الاشتقاق وهو أخذ كلمة من كلمة أخرى مع تناسب بينهما فى المعنى وتقارب فى اللفظ.

* القلب ويسمى الاشتقاق الكبير.

* الإبدال ويسمى بالاشتقاق الأكبر وهو عبارة عن وضع ألفاظ جديدة للدلالة على المعانى الطارئة.

*النحت وهو نوع من أنواع الاشتقاق أيضاً وهو أن يعمد إلى كلمتين أو جملة كلمات فينشىء من مجموع حروف كلماتها كلمة عربية.

* والتعريب وهو تحويل كلمة أعجمية إلى عربية.

ومن هنا تتميز اللغة العربية بكثرة مفرداتها وألفاظها فهى أغنى لغة فى العالم بإطلاق فى كثرة ألفاظها وكلماتها، فنجد اللغة الفرنسية يصل عدد كلماتها إلى (٢٥) خمسة وعشرين ألف كلمة فقط، واللغة الإنجليزية كلماتها (١٠٠٠٠٠) مائة ألف كلمة أما اللغة العربية فعدد موادها (٤٠٠٠٠٠) أربعمائة ألف مادة، ومعجم لسان العرب يحتوى على (٨٠٠٠٠)ثمانين ألف مادة، وانظر جيداً إلى لفظة (مادة) فليست كلمة بل (مادة) والمعروف أن المادة فى اللغة العربية يتفرع عنها عدة كلمات، وإذا فرضنا أن نصف مواد المعجم متصرفة، فإن عدد ما يشتق منها يبلغ نصف مليون كلمة، وليست فى الدنيا لغة اشتقاقية أخرى غنية بكلماتها إلى هذا الحد، وانظر معى على سبيل المثال إلى الجذر (س ل م) وما يمكن أن يشتق منه نجد: سلم: بمعنى نجا، سلم: بمعنى حيا، أى ألقى السلام والتحية، سَالَم: بمعنى دخل فى السلم، أسْلم: بمعنى انقاد وخضع، الإسلام: بمعنى الخضوع لله أو الدين المعروف: تسلم: بمعنى أخذ شيئاً من يد غيره، السلام: بمعنى التحية، السِّلم: بمعنى الأمن وهو خلاف الحرب، سليم: بمعنى صحيح أى غير مريض، التَّسليم: بمعنى الرضا والقبول، الاسْتِلاَم: بمعنى لمس الحجر الأسود بالشفة أو باليد أو بالتقبيل وهناك: مسلم، مسالم، مستسلم، ... وغير ذلك مما يخرج أحياناً عن الحصر.

ومن خصائص اللغة العربية أن جل اشتقاقاتها تقبل التصريف وهذا يجعلها طوع أهلها[1].

ب - تتميز اللغة العربية بأنّ أغلب كلماتها ثلاثية الأصل، وهذا يكسبها مرونة، وسعة اشتقاق، فيمكن أن تضيف إلى أولها أو آخرها حرفاً أو أكثر، فتتكون من اللفظة الواحدة صور عديدة ذات معانى مختلفة، كما أشرنا من قبل فى الجذر (س ل م).

ج - تتميز اللغة العربية بقدرتها على التعبير عن معانى ثانوية، لا تعرف الشعوب الغربية كيف تعبر عنها. فالفرنسية مثلاً لا تعنى إلا بالتعبير الواحد، ولكن العربية ما أكثر الأساليب التى تعبر عن مختلف الأحاسيس فمثلاً: يمكنك أن تعبر عن حالة الفرح بقولك: أنا فرحان، أنا مسرور، أنا سعيد، أنا قرير العين، أنا مبسوط، أنا فى غاية الفرح... الخ ويمكن استخدام الأسلوب الإنشائى كالأمر والنهى والاستفهام أو الأسلوب الخيرى أو أساليب القصر والحصر أو التوكيد وغير ذلك من الأساليب الكثيرة في اللغة العربية.

د- أنها لغة ذات جمال لفظى، حيث تكوّن مخارج الحروف من تآلف المعانى والألفاظ موسيقى رائعة، وأكبر شاهد على ذلك حينما تسمع تالياً للقرآن يرتله بخشوع ويخرج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه-كما يقول علماء التجويد- هذا فضلاً عن جمالها المعنوى فى اختلاف التراكيب والأساليب من كناية وتشبيه واستعارة ومجاز وتورية وسجع وقياس وطباق وغير ذلك من فنون علم البلاغة.

هـ- من خصائص اللغة العربية: مرونتها التى لا تبارى، وانسجامها مع كل الشعوب مع اختلاف لهجاتها، فتجد الجزائرى يفهم المصرى إذا تحدث معه، والمغربى يفهم السعودى إذا تحدث معه، وهذا مع اختلاف اللهجات وكذلك الشامى واليمنى، وهذا يدل على الخلاف الطفيف الذى أحدثته اللهجات، حيث بقيت اللغة الأصل وهى العربية الفصحى عامل ربط بين

(١) انظر ص ٢٧٧ من كتاب القيم الأساسية للفكر الإسلامى.

الشعوب حتى مع اختلاف لهجاتها، ولعلنا نلمس هذا أكثر إذا ما قارنا الحال بسكان دولة مثل فرنسا فستجد أن سكان قرية فى شمال فرنسا لا يفهمون كلمة من الكلمات المستعملة فى قرى الجنوب، بينما تجد العربى المعاصر يفهم أخاه العربى فى كل مكان، بل يفهم لغة أجداده من ألف عام وأكثر.

ز - وقد لخص «لويس ماسنيون» خصائص اللغة العربية فقال [: خاصية اللغة العربية تنحصر فى **إظهار** الأفكار بطريقة موجزة دون استدراج السامع إليها، **وفى** الاستناد إلى المقابلة لتوضيح الغرض المقصود كاستعمال الاستثناء، **وفى** إضافة الحوادث إلى الفعل أكثر من إسنادها إلى الفاعل بخلاف اللغات الأوروبية، **وفى** أن الألفاظ العربية تعود غالباً إلى أصل ثلاثى][1].

٤ - عالمية اللغة العربية:

لقد أصبحت اللغة العربية-بفضل الإسلام- لغة عالمية، حيث تجاوزت كونها لغة تخاطب، إلى كونها لغة دين وعقيدة ،فتعلمها عبادة،والنطق بها سنة، ولا تصح العبادات بدونها لمن قدر عليها. فمن قدر على تعلم القرآن وجب عليه ذلك حتى تصح صلاته لقول النبى-ﷺ-: لا صلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب «يقصد الفاتحة».

فهى لغة تخاطب،وهى لغة دين وعبادة، وهى لغة علم وحضارة وتراث،وقد أثبتت على مر الزمن مرونتها وقدرتها على التفاعل مع اللغات الأخرى، فقد اتسعت اللغة العربية لنقل تراث الأمم الأخرى إليها- كما حدث فى عصر الترجمة- زمن العباسيين، فقد نقل الفكر اليونانى ونقلت علوم الطب والكيمياء والفلك وغيرها من علوم الفرس والرومان والهند واليونان إلى اللغة العربية، واستطاعت اللغة العربية بمرونتها أن تستوعب التراث الإنسانى كله وصاغته من جديد بأسلوب خصب وسهل،كله عذوبة وحلاوة.

وتتلخص دلائل العالمية فى اللغة العربية فى الأمور التالية:

أ - قدرتها على هضم التراث الإنسانى الذى نقل إليها من عدة لغات فى عصر الترجمة.

(١) انظر ص ٢٧٩ من كتاب القيم الأساسية للفكر الإسلامى.

ب - قدرتها على إذابة اللهجات أو اللغات التى حل الإسلام فى بلادها، كالسريانية، والقبطية، واليونانية، والفارسية، والبربرية، وحلت اللغة العربية محلها فصارت هى لغة الأقوام.

ج - قدرتها على التأثير فى اللغات الأخرى، فإذا كانت هناك لغات دخل بلادها الإسلام ولم تذب بأكملها، فإن اللغة العربية قد تركت بصماتها واضحة فى مثل هذه اللهجات، وعلى سبيل المثال:

* يوجد بمعاجم اللغة الإنجليزية زهاء ألف كلمة عربية.
* يوجد فى اللغة الإسبانية ١٧٪ من مجموع كلماتها باللغة العربية، أى كلمات عربية.
* كتبت اللغة الفارسية فى أواخر القرن الثالث الهجرى بالخط العربى، واشتملت على كلمات عربية كثيرة.
* تأثرت الفارسية بالعربية فى شتى المجالات والعلوم وظهر ذلك فى موازين الشعر وقوافيه، وقد أحصى الباحثون الألفاظ العربية فى الشعر الفارسى فوجدوها لا تقل عن (ربع) ألفاظه، وفى النثر الفارسى يبلغ (نصف) ألفاظه باللغة العربية أو يزيد، وهذا يشير إلى مدى تأثر الفارسية بالعربية فى مصطلحاتها وآدابها وعلومها.
* كتبت اللغة التركية الشرقية فى تركستان وكذلك التركية العثمانية بالخط العربى، وأخذت الكثير من ألفاظ العربية ومعانيها، وكتبت أمهات كتب التراث الإسلامى باللغة العربية فى البلاد التركية.
* كتبت اللغة الأوردية بالخط العربى، وتضمنت الكثير من ألفاظ العربية ومعانيها، واستمدت من روح القرآن ولا تزال[1].

وهكذا لم يكد يتسع نطاق الإسلام حتى أصبحت اللغة العربية «لغة عالمية» تسيطر على الممالك والشعوب وانتشرت اللغة العربية حاملة معها القرآن الكريم

(١) ص ١١٠، ١١١ المرجع السابق.

والسنة النبوية وعلوم السلف إلى كل البقاع التى دخلها الإسلام وتسابقت الأفراد والشعوب فى تعلم العربية لحفظ القرآن وفهم الإسلام، وتعلقت القلوب المؤمنة باللغة العربية لغة القرآن فمن فاته حفظه من تعلمها سعى فى تعليم أولاده، وما زلنا حتى الآن رغم انحسار دولة الإسلام، نرى اللغة العربية فى كل بقعة وصلها الإسلام.

ولا ننسى ما للغة العربية من جمال المبنى والمعنى إلى درجة الجاذبية لكل من يسمع القرآن يتلى، حتى ولو لم يفهم العربية، وصدق الله القائل: ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾(١). هذا فوق إحكام اللفظ وإيجاز العبارة، فهى لغة الحكمة وجوامع الكلم.

هذه هى اللغة العربية: أوسع اللغات انتشاراً، وأيسرها تعلماً، وأعذبها لفظاً ومعنى، وأغزرها مادة واشتقاقاً، وأحكم اللغات صنعة وإعجازاً، فلا تضاهيها لغة، تذوب فيها اللغات ولا تذوب، تنقرض اللغات ولا تنقرض، بل ستبقى إلى آخر الزمن، لأنها لغة القرآن، وقد قال بعض الباحثين عن أصل اللغات: إن اللغة العربية هى أصل اللغات جميعاً، منذ أن خلق آدم وحواء- عليهما السلام- ومنها تفرعت لغات البشر، بل هى لغة أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾(٢).

يقول (جوستاف جرد يتناوم) فى كلمة جامعة عن اللغة العربية، وهى تدل على نزاهة الرجل فى البحث وإنصافه: [ما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية فى شرفها، فهى الوسيلة التى اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية، وليست منزلتها الروحية هى وحدها التى تسمو بها على ما أودع الله فى سائر اللغات من قوة وبيان، أما السعة فالأمر فيها واضح، ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها على ما سمعته، لغة تضاهى العربية، ويضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة فى المترادفات، وتزين الدقة ووجازة التعبير لغة العرب، وتمتاز العربية بما ليس له من

---

(١) سورة القمر الآية ١٧

(٢) سورة يونس الأية رقم ١٠

ضريب من اليسر فى استعمال المجاز، وأن مـا بها من كنايات ومجازات واستعارات لترفـعها كثـيراً فوق كل لغـة بشرية أخـرى، وللغة خصـائص جمه فـى الأسلوب والنحو، ليس من المستطاع أن يكتشف لها نظائر فى أى لغة أخرى.

وهى من هذه السعة والكثرة أوسع اللغات فى إيصال المعانى، وفى النقل إليها، يبين ذلك: أن الصورة [العربية لأى مثل أجنبى أقصر فى جميع الحالات، وقد قال الخفاجى عن أبى داود المطران، وهو عارف باللغتين العربية والسريانية: أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السريانى قبحت وخشنت، وإذا نقل الكلام المختار من السريانى إلى العربى ازداد طلاوة وحسنا، والفارابى على حق حين يبرر مدحه العربية: بأنها كلام أهل الجنة، وهو المنزه بين الألسنة من كل نـقيصة، والمعلّى من كل خسيسة، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظا...][1].

(١) ٢٧٧ المرجع السابق.

[ثانياً: التحديات المعاصرة للغة العربية]

لقد تبين فيما سبق أن اللغة العربية هي لغة القرآن، وهى الوعاء الذى حفظ الدين الإسلامى، ودونت بها السنة وعلوم الشرعية من فقه وأصول وتفسير، وسيرة وغير ذلك من جوانب التراث الإسلامى العظيم، وأى قضاء على اللغة إنما هو قضاء على القرآن وقضاء على الإسلام، وقد أحزن أعداء الدين أن تبقى للعربية هذه المكانة، ورأوا أنها تقف حجر عثرة فى وجه الراغبين فى هدم الإسلام، لهذا فقد صوبوا إليها سهامهم من أجل أن ينالوا منها وبالتالى ينالوا من الإسلام وأهله، وما أكثر المحاولات التى بذلت وتبذل من أجل القضاء على اللغة العربية، وهى محاولات تلبس لباس زور. فتدعى أنها تنشد الإصلاح وأنها حريصة على تنقية اللغة العربية وتطورها ومسايرتها لزمن العلم والتكنولوجيا، ولكنها كما قلت دعوات هدامة وصدق الله القائل: ﴿**قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون**﴾[1].

يقول الأستاذ محمد محمد حسين -رحمه الله-: «وكانت الشعبة الثالثة من الدعوات الهدامة تتجه إلى اللغة العربية، تريد أن تفرق المجتمعين عليها بمختلف الحيل والأساليب، تحت ستار من الرغبة فى الإصلاح وفى مسايرة الزمان» ثم تناول بعد ذلك الجوانب التى توجه إليها تلك الدعوات المسمومة بشأن اللغة العربية فقال: «وبعد: فلنعد إلى عرض هذه الدعوات الهدامة التى تستهدف قتل العربية الفصيحة فى شىء من التفصيل، نستطيع أن نحصر هذه الدعوات فى شعب ثلاث: تتناول أولاها اللغة، فيطالب بعضها بإصلاح قواعدها، ويطالب بعضها الآخر بالتحول عنها إلى العامية، وتتناول ثانيتها الكتابة، فيدعو بعضها إلى إصلاح قواعدها- أى الكتابة- ويدعو بعضها الآخر للتحول عنها إلى الحروف اللاتينية، وتتناول الشعبة الثالثة الأدب ...»[2].

---

(١) آل عمران الآية ١١٨

(٢) اتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ٢/ ٣٥٩، ٢/ ٣٦٨.

* ومما هو معروف أن كل الذين حملوا على العربية كانوا غير مسلمين، وأغلبهم من نصارى مصر والشام، وقد فتحوا المجلات والصحف المأجورة والمدعومة من قبل أعداء الإسلام للهجوم على العربية، وكان على قمتها جريدة «المقتطف» فهى التى فتحت باب الهجوم على العربية باسم الإسلام والتجديد أو باسم التحديث والتطوير.

وسنحاول فى هذه العجالة أن نلقى الضوء على ثلاث دعوات هدامة تتناول اللغة العربية وهى:

أ - الدعوة إلى تغيير قواعد اللغة العربية (النحو الصرف).

ب - الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى.

جـ - الدعوة إلى استبدال حروف الكتابة العربية بالحروف اللاتينية أو تغيير قواعد كتابة الحرف العربى.

وستكون دراستنا لهذه النقاط دراسة موجزة تكشف عن حقيقة الهجوم، وحسبنا أن تكون حافزاً لمن أراد المزيد.

أ - الدعوة الأولى :تغيير قواعد اللغة العربية:

فى عام ١٨٨٥م: وجهت جريدة «المقتطف» المصرية دعوة صريحة لإبداء الرأى فى اللغة العربية، مدعية أن اللغة التى نتكلم بها اليوم غير اللغة العربية التى دونت بها العلوم، وأنه لا مناص من حل هذه الإزدواجية فى لغة التدوين ولغة النطق، واقترحت «المقتطف» هذه الحلول:

١ - أن نستبدل لغتنا بلغة أخرى.

٢ - أن نكتب باللغة التى نتكلم بها ونتخلى عن اللغة القديمة كما فعل الإيطاليون وغيرهم من الأوروبيين حينما تركوا اللاتينية واستخدموا اللهجات السائدة عندهم كالإيطالية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية وغيرها.

٣ - أن نعلم أولادنا التكلم بالعربية الصحيحة حتى تصير ملكة فيهم فيتكلمون كما يكتبون. [لعل هذا من باب ذرّ الرماد فى العيون].

ثم طالبت الجريدة من أهل الرأى أن يظهروا رأيهم فى هذه المسألة وسرعان ما خرجت الجرذان من جحورها وبث أهل الحقد على الإسلام ولغته سمومهم باسم الإصلاح والتجديد فى اللغة.

وقد طالب هؤلاء بحذف القواعد النحوية أو باستبدالها أو بإعادة صياغتها بحجة أنها صعبة الفهم، وأنها معقدة، ومستحيلة التطبيق ، وهى تعوق حركة التطور والتجديد التى ينشدها المجتمع.

وبرز على صفحات المقتطف كثيرون يبدون رأيهم كان من بينهم رجل الأعمال اللبنانى الذى هاجر إلى البرازيل وتوفى فى سان باول عام ١٩٢٣م واسمه [نعمة أفندى شديد يافث]، هذا الرجل كتب عدة مقالات يهاجم فيها قواعد النحو، وكان مما قال: [... فأحكم أن النحو والصرف والبيان كلها ليست بالعلوم التى تبوبت وترتبت لكى يصح أن يطلق عليها إسم علم...][1].

وكتب [جرجس الخورى المقدسى] وكان يعمل أستاذاً للغة العربية فى الجامعة الأمريكية ببيروت، مقالاً بعنوان: العربية وتسهيل قواعدها، وطالب فى هذا المقال بعدد من الأمور كان من أبرزها ما يلى:

١ - لزوم أواخر الكلمات لحال واحدة تراعى نسبة الكلمة فى الجملة من غير نظر إلى موضعها الإعرابى.

٢ـ جعل ضميرى المذكر والمؤنث واحداً.

٣ـ صرف الممنوع من الصرف نثراً كماجاز صرفه شعراً.

٤ـ إلغاء أحكام جميع النواسخ من الأفعال والحروف ورفع المبتدأ والخبر دائماً.

٥ـ إلغاء أحكام العدد.

ثم يقول: [وقس على ذلك أموراً كثيرة كأنها لم توضع فى العربية إلا لجعلها مغلقة على طالبيها...][2].

(١) المقتطف مجلد ج١ ص١٢-١٦.

(٢) المقتطف مجلد ٢٩ صفحة ٣٤٢-٣٤٤.

* وكتب [القس حنا رحمانى] مقالاً بعنوان: اللغة العربية ووسائط ترقّيها[1]. تناول فيه صعبة النحو العربى ووسائل رقى تعلم اللغة العربية وخلص إلى:

١ - وجوب إصلاح قواعد النحو العربى عامة.

٢ - تعيين حذف باب المثنى.

٣ - حذف حركات الإعراب، فبدل أن تقول: أكلَ الولدُ الطعامَ، يقال: أكلْ الولدْ الطعامْ.

* وهذه فى الحقيقة جملة مختصرة من الحملة الموجهة إلى ضرب القواعد العربية والقضاء عليها، وفى الحقيقة: إن القضاء على هذه القواعد هو قضاء على القرآن نفسه، فإذا كان هؤلاء يريدون توحيد ضميرى المذكر والمؤنث وإلغاء الحركات الإعرابية، فكيف نفهم القرآن ونعرف الفرق بين الخطاب الموجه للرجل والخطاب الموجه للمرأة، يقول تعالى ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ فهل نغير القرآن حتى نرضى هؤلاء؟وصدق الله القائل ﴿**كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً**﴾[2].

ب - الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى:

لقد كانت الحملة على الفصحى، والدعوة إلى العامية، هدفاً استعمارياً، جُنِّدَ له الكثيرون من حملة الأقلام المأجورة، وقد زامنت الدعوة إلى العامية، الدعوة إلى التخلص من القواعد النحوية، ومهما اختلفت الجبهات فإن الهدف واحد، وهو القضاء على العربية حصن القرآن والسنة والتراث الإسلامى العظيم، إنهم باختصار يريدون مسخ الذاتية الإسلامية، وتحويل الأمة إلى قطعان شاردة لا عاصم لها من دين ولا جامع لها من لغة أو تراث.

وكما قلت سابقاً: إن أغلب الذين قادوا الحملات على العربية كانوا من نصارى مصر والشام وغيرها ويتصدر قائمة الدعاة إلى العامية نصرانى حاقد وهو [اسكندر

---

(١) جريدة العراق عدد ٢ حزيران سنة ١٩٢٤ صفحة ٩-١١.

(٢) سورة الكهف الآية رقم ٥

معلوف]، وقد أفسحت مجلة الهلال المصرية -وهى مجلة مأجورة أنشأها النصرانى المتعصب جرجى زيدان عام ١٨٩٢م- أقول: أفسحت الهلال صفحاتها لهذه الدعوة، ونشرت مقاله تحت عنوان «اللغة الفصحى واللغة العامية»، ويرى فى مقاله: أن استعمال الفصحى صعب ويحتاج وقتاً طويلاً لتعلمها، فما المانع من استعمال العامية وهى سهلة القواعد، ومتى صارت لغة الكتابة هى لغة التكلم لم يعد أدنى صعوبة فى اللغة، وهذا ما فعلته دول أوروبا من قبل، ولا داعى لتعلق المسلمين بالفصحى، لأنه يوجد مسلمون لا يتكلمون العربية مطلقاً، فليست اللغة أساساً فى صحة الدين، ولم يكتف بعرض رأيه، بل دعا الحكومات العربية إلى إحلال العامية محل الفصحى فى الدراسة، ودعا الصحف والمجلات أن تكتب إلى الناس بلغتهم العامية، يقول هذا الحاقد: إن ما تفخر به الآن -الفصحى- من البلاغة وحسن التركيب، يضحى بالنظر إلى الأسلوب الجديد - العامية-من سقط المتاع، لا يشترى ولا يباع، ومتى سلكت المدارس والجرائد هذا المسلك، تأخذ هذه اللغة فى مراقى النجاح والتقدم حتى تعد من اللغات المتمدنة، وتتلاشى الفصحى التى ليست سوى رابط يربطنا بحالة الجهل القديمة»[1].

* وكتب «ميشيل سليم كميد» مقالا نشرته مجلة «لغة العرب» وهى مجلة بغدادية أنشأها الأب مارى الكرملى ١٩١١م وقد حمل «ميشيل» على الفصحى حملة شديدة، وسفه رأى القائلين بجمالها وثرائها اللفظى والمعنوى، ويرى أن السلف قد انقضى زمنهم، وزالت دولتهم، وتركوا لنا تراثاً: هو لغتهم-وكأنه يقول: إن الذى ننطق به الآن من العامية هو لغتنا، فما لنا ومال لغة السلف-وقد هاجم الذين مدحوا الفصحى من الغربيين المنصفين، فوصف (غوستاف لوبون) و (آرنست ريتان)، وغيرهم بالنفاق الكذب، وطالب أن تتبنى المدرسة والشعراء والأدباء والمجامع العلمية، أن يتبنوا العامية، ويقربوها من الفصحى حتى تكون لغة العلم والكتابة متقاربة وقد دعا هذا الحاقد إلى أربعة أمور وهى:

---

(١)مجلة الهلال المصرية السنة العاشرة ١٩٠٢م. المجلد الثانى صفحة ٣٧٣-٣٧٧.

١ - أن نذهب إلى الاستعارة فنأخذ الكلمة ونكيّفها ونصقلها لتوافق العربية.

٢ - نذهب إلى جعل الاشتقاق قياساً.

٣ - نفتح باب التعريب على مصراعيه.

٤ - أن نفهم مفردات اللغة في ضوء استعمالات العامة، ويجب أن ندخل في معاجمنا كل ما وقع فيه التفاهم بين العامة من ألفاظ [١].

* ولم يقتصر الأمر على الدعوة المجردة إلى العامية، بل تسابق القوم إلى التأليف، وظهر الكثير من المعاجم العامية، ومن الكتب الداعية إلى العامية، نذكر من أبرزها ما يلي:

١ - معجم في لغة عوام العراق ـــــ لرزوق عيسى البغدادي.

٢ - معجم إلياس ـــــ بقطر القبطي، تناول فيه عامية مصر والشام والمغرب وتونس وطبع سنة ١٨٦٤م.

٣ - قاموس اللغة العامية ـــــ وضعه بالعربية والإنجليزية شكرى إسبير وطبع سنة ١٨٩٤م.

٤ - اللغة العربية العامية وآدابها ـــــ بحث لعيسى اسكندر معلوف نشر في جريدة المنار البيروتية سنة ١٨٩٨م.

٥ - اللغة العربية العامية في مصر والشام ـــــ ميخائيل الصباغ السوري طبع سنة ١٨٨٦م.

هذا فوق الكثير من المؤلفات التي عنيت بالعامية ومحاولة تأصيلها لتزاحم لغة القرآن، وكان جل الذين ألفوا وسعوا لنشر العامية من النصارى العرب، ولا شك أنهم حاقدون مأجورون [٢].

---

(١) مجلة لغة العرب عدد فبراير ١٩٢٩م.

(٢) راجع البحث القيم الذي كتبه د. تركي بن سهو العتيبي، والذي ألقاه على طلاب الثقافة في السنة المنهجية عام ١٤١٤هـ ص ٤٥، ٤٦ بعنوان: اللغة العربية- أهميتها، علاقتها بالعلوم الشرعية، نشأة التحديات المعاصرة.

جـ - الدعوة إلى تطوير الكتابة:

إن الكتابة العربية هى التى دوّن بها القرآن، وكتب بها التراث، وهى منذ أربعة عشر قرناً أو يزيد هى وسيلة التأليف، وهى أداة التعبير والتسجيل لجوانب المعرفة الإسلامية فى كل عصر، وقد تعارف المسلمون على الكتابة العربية ووضعت لها القواعد، والتى تعرف بقواعد الإملاء، وقواعد الخط العربى، ودرج العرف على هذه اللغة ورسمها حتى أصبح التلميذ المبتدىء يميز بين ما كتب خطأ وما كتب صواباً. والكتابة العربية جزء من هذه اللغة، وهى القوالب التى استوعبت أفكارها ومعانيها، وهدمها هدم للغة وبالتالى هدم للقرآن والسنة وعلوم الإسلام الأخرى.

لهذا لم تسلم الكتابة العربية من الهجوم، كما لم تسلم قواعد النحو، والفصحى من الهجوم، ومن العجيب أن كل من حمل دعوة التغير فى اللغة العربية يدعى أنه ينشد الإصلاح، وأنه حريص على حماية اللغة من الاندثار، وصدق القائل: كل يدعى وصلاً بليلى: وليلى لا تقر لهم بذاكا.

وقد تعددت وجهات النظر حول الكتابة العربية بحجة إصلاحها وهى تتلخص فيما يأتى:

١ - رأى يقول: نستبدل الحروف الإفرنجية بالحروف العربية:

ويرى أصحاب هذا الاتجاه: أن اللغة مستقلة تمام الاستقلال عن صور الحروف التى تكتب بها، فالعربية مثلا قد كتبت بالخط الحميرى والكوفى والبغدادى والسريانى والمغربى، ولم يضر ذلك باللغة، فما الذى يمنع أن تكتب العربية بحروف إفرنجية؟ وقد فات هؤلاء أن فى العربية حروفاً لا توجد فى الإفرنجية، وأن دلالات الألفاظ فى العربية لا تستطيع أن تعبر عنها أى حروف أو لغة أخرى فى العالم لا الإفرنجية ولا غيرها، وكيف يحوى الفرع الأصل؟ إن اللغة العربية وحروفها هى الأصل، وكيف نحول حركات الضبط للحروف مثل الضمة والفتحة والكسرة وغيرها؟ -كما قلت- إنها دعوة من أجل الانسلاخ من الرسم الذى تميزت به اللغة العربية عما سواها، ودعوة لهدم الحروف التى دون بها القرآن والسنة وعلوم الإسلام حتى تستعجم فيما بعد على أهلها، ولا يعرف المسلم أن يقرأ فى القرآن أو يفهم شيئاً من كتب التراث.

٢ - رأى يقول: نعدّل أشكال الحروف العربية:

قد تبنى هذا الرأى د. متى عقراوى ونشر عدة مقالات فى جريدة المقتطف تحت عنوان «إصلاح الخط العربى» واقترح عدة مقترحات من بينها:

١ - تعديل أشكال الحروف والاكتفاء بشكل واحد لكل حرف وصلاً ووقفاً فى أول الكلمة وفى وسطها.

٢ - يجب أن يكون للهمزة رمز ثابت كما لسائر الحروف الصحيحة، وأن تكتب على نبرة فى كل أحوالها.

٣ - إضافة بعض الحروف والأصوات.

٤ - إلغاء الألف المقصورة، وكتابة أواخر الكلمات المقصورة كلها بألف طويلة مثل: مصطفاً، مرتضا، ... الخ[١].

أنت ترى معى لو طبقت هذه الاقتراحات كيف يكون المسخ للكتابة العربية والتشويه، والخروج على عرف درج عليه الناس منذ خمسة عشر قرناً أو يزيد، ولن تكون نتيجة هذا التغيير سوى ضياع الحروف العربية.

٣ - رأى يقول: نجعل الحركات مع الحروف فى نمط واحد:

بمعنى أن تكتب الحركات التى تكتب عادة فوق الحروف على شكل حروف وتصب فى هيئة معينة مع الحروف نفسها، ومقتضى هذا الرأى أننا سنضع لكل حرف صوراً أربعاً: صورة الحرف مع الضمة، وصورته مع الفتحة، وصورته مع الكسرة، وصورته مع السكون وهل يقول ذلك عاقل أيكون فى هذا: التسهيل للتعلم والكتابة أم التعقيد والصعوبة.

لقد درجنا على لغتنا ولا نريد عنها بديلا، مهما ادعى المدعون وتطاول المتطاولون على اللغة، فإنها ستبقى بإذن الله مصونة فى قواعدها وفى فصاحتها وفى حروفها، لأنها هى لغة القرآن الذى تكفل الله بحفظه وصدق الله القائل: **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**[٢].

---

(١) جريدة المقتطف المصرية مجلد ١٠٦ لسنة ١٩٤٥م جـ ٣، ٤، ٥.

(٢) سورة التوبة الآية رقم ٣٢

وبعد: فرغم هذا الهجوم على العربية، ورغم الحملات المسعورة، والتى تروج لها الجرائد والمجلات المأجورة والمدعومة من أعداء الإسلام فى حملتها على القرآن واللغة العربية، إلا أنها لم تغير من الأمر شيئاً، وما هبت دعوة مغرضة إلا وأوجد الله لها رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فهبوا لتفنيدها ومحقها، وقد تصدى الأستاذ شكيب أرسلان، والدكتور محمد محمد حسين، وغيرهما كثير لهذه الدعوات الهدامة، وكشفوا عن أهدافها، مما جعل الأمة فى وعى كامل بضرورة البقاء على اللغة الفصحى بقواعدها المحررة، وبحروفها الهجائية المعروفة.

يقول د. محمد محمد حسين فى معارضته للمستشرق الألمانى «نيلّلينو»:

إن الخط العربى موافق لطبيعة اللغة العربية، ولو أردنا استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لتحتم علينا إيجاد حروف جديدة نضيفها إلى الأبجدية اللاتينية لتعبر عن الأصوات العربية.

إن الخط العربى يمتاز بميزة فذة وهى أنه ليس فى حاجة إلى الاختزال، لأن طبيعته تغنيه عن طرق الاختزال.

استبدال الخط اللاتينى بالخط العربى يستتبع نتائج خطيرة، فكيف يكون مصير الكنوز العظيمة التى خلفتها الآداب الإسلامية فى الدين والفقه والفلسفة والعلوم والآداب والفنون وغيرها[1].

(١) بحث اللغة العربية نقلاً عن الاتجاهات الوطنية ٢/ ٣٨١ من ص ٤٦-٥٣.

(الخـــاتمـــــة)

لـقد كـان ما سـبق جـولات تـنوعـت فى مـوادها، وقـضـايا اخـتلـفت فـى عناوينها، لكنها جميعاً اتفقت فى أهدافها وغاياتها، بل اتفقت فى مشاربها ومنابعها.

فقد تناولنـا قضية الوجود، وقضية العالمـية، وقضية الدين والعلم، وقـضية اللغة العربية.

تناولـنا هذه القضـايا جميـعاً من المنظـور الإسلامى، بعد تـأصيل الأفكـار التى تحملها، لـنرى ما شابها من انحرافات عـن الفكر الإسلامى الصحيـح، وقد حرصنا على تصحيـح المفاهيم، وكشف الأغاليط الـتى علقت بهذه القضايـا وفندنا دعاوى أعداء الإسلام فى كـل قضية من هذه القـضايا الأربع، حريصين كـل الحرص على إبراز المـفهـوم الصـحيـح فى كل هـذه الأفكـار، وكان ذلـك من خـلال المنـظور الإسلامى.

لقد رددنـا على دعوى الفـلسفة الغـربية فى حـصر الوجود فى المـادة فقط، أو حصره فى الروح فقط، ورددنا على دعوى الغـرب فى عالمية حضارتهم. ودعواهم فى عالميـة نصرانيتهم، ودعـواهم فى تعارض النقل مـع العقل، وعلى استـبعادهم الوحى السـماوى الصحيح مـن مصادر المعرفة، ورددنـا على دعوى القائـلين بعدم صلاحية اللـغة العربية الفصـحى لمواكبة التقدم والـعلم، وبينا فى كل مـا سبق تميز الفكر الإسلامى المؤيد بالوحى السماوى، ونظرته المعتدلة لكل القضايا.

وكان هـدفنا هو تـقديم المعرفـة للطلاب فـى صورة سهـلة مبسـطة بعيـدة عن مصطلحات الفسلفة، من أجل أن يرتبط الـطالب بأصوله الإسلامية، ويعتز بذاتيته، ويعلم أنه على الحق الأبلج، كما كان هدفنا من هذه الدراسة هو تكوين مادة دفاع بين يدى الـطالب يستـطيع من خلالهـا أن يحاور من يهـاجم دينه، وأن يرد عـليه بموضوعية، ومنهجية فى كل القضايا التى سبق طرحها.

إنه باختصار تقـديم الثقافة الإسلامية من خلال زاوية من زوايـا الفكر الإنسانى الذى تـتصارع فيـه الاتجاهات وذلك بـدراسة لبعـض القضايـا المعاصرة فـى ضوء

الإسلام، عسى أن نكون قد وفقنا وقاربنا وسددنا وإن كان غير ذلك فحسبى أننى اجتهدت قدر طاقتى، وكانت النية الحسنة تحدونى على طول الطريق فى محاولة لتقديم الثقافة إلى الطلاب فى صورة مبسطة موفية بالغرض الذى كان من أجله تقرير هذا المنهج الدراسى.

وأسأل الله أن يغفر لى مواضع الزلل، وأن يصحح العارفون مواضع الخطأ، وأن يجعل هذا السفر فى موازين الحسنات، وأن يكون امتداداً فى الأثر بعد الرحيل.

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الرياض فى يوم الجمعة ٢٤/ ١٢/ ١٤١٤هـ

الموافق ٣/ ٦/ ١٩٩٤م

ثبت بأسماء المراجع المستخدمة فى البحث

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ كتب في السنة النبوية

٣ ـ أسس الفلسفة د. توفيق الطويل طبعة مكتبة النهضة المصرية

٤ ـ الإسلام يتحدي للشيخ وحيد الدين خان طبعة دار المختار مصر

٥ ـ اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية

٦ ـ تجديد الفكر الإسلامي د. محسن عبد الحميد طبعة دار الصحوة

٧ ـ الدين د. محمد عبد الله دراز

٨ ـ حقيقة التبشير مهندس أحمد عبد الوهاب مكتبة وهبة بمصر

٩ ـ القرآن والتورآة والإنجيل والعلم موريس بوكاى طبعة دار المعارف بمصر

١٠ ـ تأصيل الاعجاز العلمي في القرآن والسنة من منشورات هيئة الإعجاز العلمي

١١ ـ الدين في مواجهة العلم وحيد الدين خان طبعة دار المختار بمصر

١٢ ـ الكتاب المقدس النسخة الكاثوليكية مترجمة إلى العربية

١٣ ـ السنة النبوية ومكانتها في التشريع د. مصطفي السباعي

١٤ ـ القيم الأساسية للفكر الإسلامي الأستاذ أنور الجندي طبعة مكتبة وهبة بمصر

١٥ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد محمد حسنين

١٦ ـ المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي الطبعة المحققة

١٧ ـ مدحل جديد إلى الفلسفة د. عبد الرحمن بدوي

١٨ ـ مع الفليسوف محمد ثابت الفندي طبعة دار النهضة العربية بيروت

١٩ ـ المذاهب المعاصرة وموقف الاسلام منها د. عبد الرحمن عميراة طبعة دار اللواء بالرياض

٢٠ ـ مناهج البحث عند مفكري الإسلام د. عـلى سامي النشار طبعة دار المعارف المصرية

٢١ ـ مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب طبعة دار الشروق بيروت

٢٢ ـ مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي د. عبد الرحمن الزنبدي نشر لمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٢٣ ـ الموسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب المعاصـرة إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض سنة ١٩٧٢

٢٤ ـ اللغة العربية بحث الدكتور تركي بن سهو العنيني.

٢٥ ـ المقاصد الحسنة للسخاوي

٢٦ ـ الجامع الصغير للسيوطي

٢٧ ـ مجلة المجتمع الكويتية ـ جريدة العراق.

٢٨ ـ المقتطف ـ مجلة الهلال ـ مجلة لغة العرب

الفهرس
التفصيلي للموضوعات

«الفهرس التفصيلى للموضوعات»

المادة	الصفحة
مقدمة	٥
القضية الأولى: قضية الوجود	[٨ - ٨٩]
أولاً: الوجود فى التصور الإسلامى	١٠
تعريف الوجود وبيان أنواعه	١٠
مصداقية التفسير الإسلامي للوجود	١١
أنواع الوجود في الإسلام	١٢
منهج الإسلام في تعريف الإنسان بالوجود	١٣
خصائص الكون المحسوس	١٤
حصائص الإنسان	٢٢
أطر العلاقة بين الإنسان والكون	٢٤
عالم الغيب والطريق إلى معرفته	٢٩
ثانياً: الوجود في التصورات البشرية	٣٥
الاتجاه المادي في فهم الوجود	٣٦
حديث القرآن عن الاتجاه المادي عند اليهود	٣٨
الجذور الفكرية للاتجاه المادي في الحضارة الغربية الحديثة	٤٤
(١) الفكر المادي في الفلسفة اليونانية	٤٥
(٢) الفساد الكنسي وأثره على البحث العلمي في أوربا	٤٧
(٣) المنهج التجريبي مجردًا من الأيديولوجية الإسلامية	٥١
دراسة بعض النماذج على الاتجاه المادي	٥٧

أولاً: الوجودية ٥٧
التعريف بها ٥٧
أشهر مؤسيسها وأبرز دعاتها ٥٩
مواطن الانتشار والنفوذ ٦٠
مناقشة الوجودية والرد عليها ٦٢
ثانياً: الوضعية ٦٦
التعريف بها ٦٦
مراحل العقل الثلاث عند أوجست كونت ٦٧
الوضعية المنطقية الحديثة ونظرية التحليل اللغوي ٦٩
الرد على الوضعيين ٧١
الرد على نظرية التحليل اللغوي ٧٦
الاتجاه المثالي في تصور الوجود ٧٩
عالم المثل عند أفلاطون ٧٩
التصوف النظري ومذاهبه ٨٠
الروجية الحديثة ٨٣
ظهورها وانتشارها ٨٤
أبرز أفكارها ومعتقداتها ٨٤
الرد عليها ونقدها ٨٥
نظرة تحليلية للاتجاه المثالي ٨٧
تعقيب عام على الاتجاه البشري في تفسير الوجود ٨٨

القضية الثانية: قضية العالمية [٩٠ ـ ١٤١]
أولاً: عالمية الدعوة الاسلامية ٩٤
حاجة العالم إلى دين عالمي ٩٤
دلائل عالمية الإسلام ٩٧
(١) الأدلة النصية ٩٧
(٢) الأدلة العقلية ١٠١
(٣) الأدلة التطبيقية ١٠٤
دور المسلمين من عالمية الدعوة ١٠٦
مقترحات حول عالمية الإسلام ١٠٨
ثانياً: دعوي عالمية الحضارة الغربية ١١١
العالمية وشعار الإنسانية الزائف ١١١
إفلاس الحضارة الغربية من مقومات العالمية ١١٦
ثالثاً: دعوي عالمية النصرانية ١١٩
دائرة التبشير بالمسيحية في عهد عيسي وتلامذته ومناقشة الأساس الذي اعتمدوا عليه متي ضوء الأناجيل الحالية ١٢١
المفاهيم التي تبشر بها المسيحية ١٢٥
(١) فرضية التبشير في الكتاب المقدس ١٢٥
(٢) التثليث ١٢٥
(٣) المسيحية دين المحبة الأوحد ١٢٨
(٤) الصلب تكفير عن خطايا البشر ١٣٠

(٥) نبذ تعاليم التوراة ١٣٤
الاهداف الحقيقية للتبشير ١٣٦
(١) الهدف الاستعماري ١٣٨
(٢) الهدف التجاري ١٤٠
القضية الثالثة: قضية العلم والدين [١٤٣ ـ ١٨٥]
أولاً: موقف الاسلام من العلم ١٤٦
ثانياً العلاقة بين والوحي والعقل ١٥٣
(١) في الفكر المسيحي ١٥٥
(٢) العلاقة بين الوحي والعقل في الإسلام ١٥٨
قواعد الإعجاز العلمي في القرآن ١٦٠
المعايير الأربعة للاستدلال في العلوم التجريبية ١٦١
رفض دعوي معارضة الوحي للعقل ١٦٣
ثالثا: الموضوعية ومنهج الشك ١٦٥
الشك المطلق ١٦٦
حجج الشكاك والرد عليها ١٦٧
الشك الإنكاري والرد عليه ١٦٩
الشك المنهجي والتعريف به ١٧٠
الشك المنهجي عند الغزالي ١٧٣
الشك المنهجي عن ديكارت ١٧٥
رابعا: تقويم الشك بأنواعه في ضوء الإسلام ١٨١
خامسًا: الرد على المنشر فمن فـي دعوي الموضوعية في بحوثهم داخل التراث الإسلامي ١٨٣

القضية الرابعة قضية اللغة العربية [١٨٧ ـ ٢٠٩]
أولاً: اللغة العربية منزلتها في الإسلام ١٩١
أثر القرآن في حفظ اللغة وانتشارها ١٩٢
خصائص اللغة العربية ١٩٤
عالمية اللغة العربية ١٩٧
ثانياً: التحديات التي تواجه اللغة العربية ٢٠١
(١) الدعوة إلى تغيير قواعد اللغة العربية والرد عليها ٢٠٢
(٢) الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى والرد عليها ٢٠٤
(٣) الدعوة إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية والرد عليها ٢٠٧
الخاتمة ٢١٠
قائمة بأسماء المراجع المستخدمة في البحث ٢١٢
الفهرس العام للموضوعات ٢١٤

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب بالدرس والتمحيص قضايا معاصرة مطروحة على الساحة الفكرية، مثل:

- قضية الوجود
- قضية العالمية
- قضية العلم والدين
- قضية اللغة العربية

وهي قضايا يثيرها خصوم الإسلام، فكان لا بد من بيان الحق فيها، وتمحيصها، والحرص في تناولها على التأصيل الفكري.

وذلك ما دأب المؤلف على إظهاره في هذا الكتاب.

الناشر

AL-OBEIKAN
1020784
SR 15.00

840801651700

ردمك: ٧ - ٢٦ - ٧٧٥ - ٩٩٦٠